دار
أخبار اليوم

قطاع الثقافة

كتاب
اليوم

يصدر
أول كل شهر

رئيس مجلس الإدارة :
إبراهيم سعده

رئيس التحرير :
نبيل أباظة

□ عدد أغسطس ١٩٩٧ □

الطبعة الثانية

أسعار كتاب اليوم فى الخارج

الجماهيرية العظمى	٢	دينار
المغرب	٢٠	درهما
لبنان	٤٥٠٠	ليرة
الاردن	٢٠٠٠	فلس
العراق	٧٠٠٠	فلس
الكويت	١,٥	دينار
السعودية	١٢	ريال
السودان	٣٢٠٠	قرش
تونس	٢	دينار
الجزائر	١٧٥٠	سنتا
سوريا	١٢٥	ل.س
الحبشة	٦٠٠	سنت
البحرين	١,٢٥٠	دينار
سلطنة عمان	١,٢٥٠	ريال
غزة	٢,٥٠	دولار
ج. اليمنية	١٥٠	ريالاً
الصومال، نيجيريا	٨٠	بنى
السنغال	٦٠	فرنكا
الإمارات	١٢	دراهم
قطر	١٢	ريالات
انجلترا	٢	جك
فرنسا	١٠	فرنك
ألمانيا	١٠	مارك
إيطاليا	٢٠٠٠	ليرة
هولندا	٥	فلورين
باكستان	٣٥	ليرة
سويسرا	٤	فرنك
اليونان	١٠٠	دراخمة
النمسا	٤٠	شلن
الدنمارك	١٥	كرون
السويد	١٥	كرون
الهند	٣٥٠	روبية
كندا - أمريكا	٣٠٠	سنت
البرازيل	٤٠٠	كروزيرو
نيويورك - واشنطن	٣٥٠	سنتا
لوس انجلوس	٤٠٠	سنت
استراليا	٤٠٠	سنت

● الاشتراكات ●

جمهورية مصر العربية

قيمة الاشتراك السنوى ٤٨ جنيها مصريا

البريد الجوى

دول اتحاد البريد العربى ٢٥ دولارا

اتحاد البريد الافريقى ٣٠ دولارا

أوربا وأمريكا ٣٥ دولارا

أمريكا الجنوبية واليابان واستراليا

٤٥ دولارا أمريكيا أو ما يعادلها

● ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور

● ترسل القيمة إلى الاشتراكات

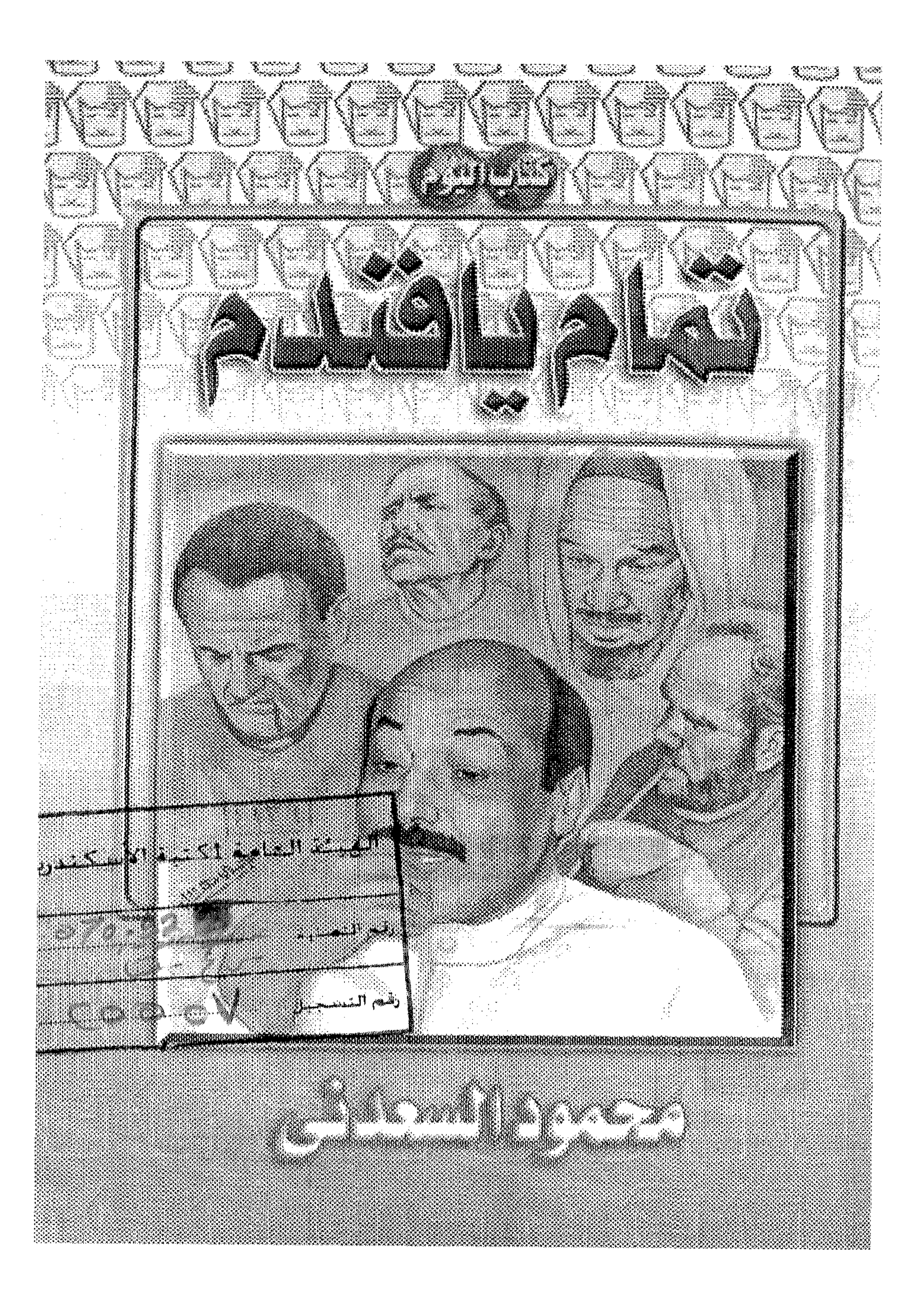
٣ (أ) ش الصحافة

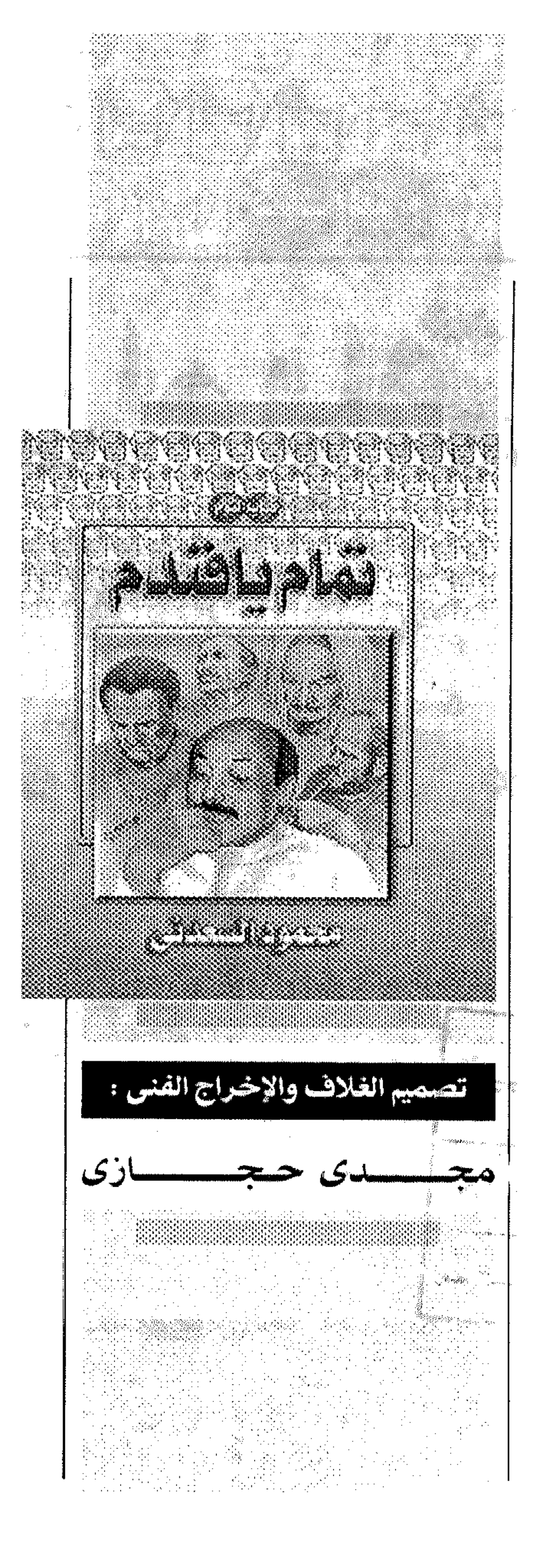
القاهرة ت : ٥٧٨٢٧٠٠ (٥ خطوط)

● فاكس ٥٧٨٢٥٤٠٠

● تلكس دولى : ٢٠٣٢١٠

● تلكس محلى ٢٨٢٠


كتاب اليوم
تمام يافندم
الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية
رقم التسجيل
محمود السعدني



تصميم الغلاف والإخراج الفنى :

مجـــدى حجـــازى



المقدمة

تمام .. مليون تمام !

التمام هـو أهـم شىء فى السجن ، أهـم من النـزلاء ومن الإدارة نفسهـا .. يـالها من لحظـة متـوتـرة ومشحـونـة بـالقلق .. لحظـة وقـوف شـاويش العنبر أمـام حضرة الصـول ، ويضرب كعبـه بـالأرض ويصرخ كعنتر بن شـداد .. تمام يـافنـدم ، ثم تتـوالى اللحظـات .. الصـول أمـام ضابط العنبر ، وضابط العنبر أمـام البيه الوكيل، والبيه الوكيل أمـام البيه المأمور ، والبيه المأمور أمام البيـه المدير .. والكل يصرخ واحد وراء الآخر.. تمام يا فندم !

وتمام يا فندم تعنى أن كل شىء على ما يرام ، الجدران لم يصبها الانهيار ، والسقوف ليس بها شقوق ، والأبواب فى أحسن حـال ، والأسـوار متينـة وعـال العـال ، وعـدد المساجين لم يطـرأ عليه أى تغيير .. أقـول عدد المسـاجين وليس حال المساجين ، لأن حال المساجين لا يهم أحدا على الإطلاق .. مسجون جوعان ، مسجون مرضان ، مسجون عريـان ، هذه كلها أشيـاء تافهة وليس لها قيمـة فى عملية التمام .. وبعـد وصـول التمام إلى البيـه المديـر ، تضـاء الأنوار ، وتبـدأ ضـجة النـزلاء تتردد داخل العنابـر المغلقة بالضبة والمفتاح .

هنـا تبـدأ صرخـات الحراس المرابطين فـوق الأسـوار تتصـاعد فى الجو .. واحـد تمام واتنين تمام وثلاثـة تمام وأربعـة تمام تصل أحيـانـا إلى عشرين تمام فى السجـون المتـوسطـة وتصل إلى أربعين تمام فى السجـون الكبيرة . ولكن .. وبالرغم من كل هـذه التمامات إلا أن الواقع يقول إن كل شىء داخل السجن لا عـلاقة لـه بالتمام.. فليس فى العـالم كلـه فساد كـالفسـاد الموجـود فى السجن .. أغلب الحراس بـلا ضمير ، والسجن بـالنسبـة لهم هـو مكـان للتربح ، والنزلاء آخـر غلب وآخر ضيـاع . والسـجن نفسـه

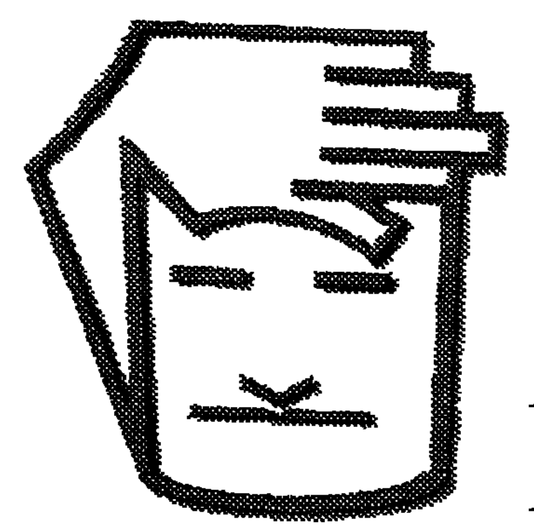
ليس مـؤسسـة عقابيـة فى الحقيقـة ، ولكنـه هيئة عـامـة لارتكـاب أخطر أنـواع الجريمـة وأحقـر ألوان التعـذيب .. ولكن لا شىء يهم - على رأى إحسان عبدالقدوس - فواحد تمـام واتنين تمام ، وكله فى النهـاية تمام يـافندم .. آخـر تمام .

وسياسة تمام يـافندم ليست قاصرة على السجن فقط ، ولكنها سيـاسـة عـامة فى كل المجـالات .. أى مسئول كبير يسأل عن الأحـوال سيأتيـه الجواب على الفور .. تمام يـا فندم !

ولعل سر كثـرة التوجيهات التى تصـدر من أكبر رأس فى البـلاد إلى الـوزراء والتنفيـذيين هى سيـاسـة تمام يـافنـدم .. يسأل الرئيـس كل مسئول فى مجالـه فيكـون الجواب تمام يـا فندم ، بينما التقـارير التى أمـامه تقـول عكس ذلك . ولن تنهض مصر النهضـة المطلوبـة إلا إذا تم القضـاء على سياسـة تمام يافنـدم .. لأن تمام يافنـدم لا تعنى أن النـاطق بها كـذاب فحسب ، ولكنهـا تعنى شيئـا آخر أخطـر ، وهو أن صاحب العبـارة لن يتحرك من أجل التحسين أو التغيير أو التطـوير، ولماذا التطـويـر والتغيير مادام كل شىء .. تمام يافندم ؟

والآن أترككـــكم لتقـرأوا الكتاب نفســه ، وستجـدون فى صفحــاتــه كل شىء .. تمام يـافندم ، فـأنا أيضــا كـذاب وراضى بما هــو كائن ، ولا أرغب فى المزيد ، ومحســـوبكم من أنصـــار حـزب تمام يـافنـــدم .. كل شىء تمام وعلى ما يرام .. والحمد لله على الخيبة والتمام !

محمود السعدنى



تكلم يا خادم

١

البيه المأمور !

●● أدهشني هذا المنظر الذى لم أكن أتوقع رؤيته في هذا المكان الكئيب ، عندما اجتزت الباب الضيق المرفوع أعلاه يافطة مكتوبة بخط جميل (المدرسة) فوجدت بحوش يمثل مساحة لا بأس بها ، وفي ركن منعزل من الحوش يجلس بعض المساجين ، بعضهم على دكة وبعضهم على كراسى قش ، والجميع يرتدون بدل (متآيفة) ومعهم شيخان معممان ، والجميع منهمكون في مص القصب ، قصب داخل السجن؟!! يا للهول .. على رأى يوسف بك وهبى ! واكتشفت أن هؤلاء هم هيئة تدريس المدرسة ، أربعة مدرسين مساجين ، أحدهم بتهمة الرشوة ، والثاني تحرير شيكات بدون رصيد ، والثالث ضرب أفضى إلى موت ، والرابع ضرب أفضى إلى عاهة مستديمة . والغريب أن هذا الأخير كان يرتدى زى المشايخ قبل سجنه ، وكان يعمل في أرشيف إحدى المصالح نهارا ويحترف تلاوة القرآن الكريم في مآتم الفقراء ليلا ، أما الشيخان المعممان فهما موظفان من مصلحة السجون أحدهما يتولى منصب ناظر مدرسة السجن ويقوم بالتدريس في نفس الوقت ، أما الآخر فهو مدرس فقط ويطمع في أن يصبح ناظرا في يوم من الأيام ●●

وعلى مدى أسابيع طويلة حرصت على حضور هذه الجلسة تحت شمس القناطر الدافئة ، وأصبحت جزءا من طاقم المدرسة ، أشترك معهم فى مص القصب وأساهم معهم فى ثمنه ، وتصورت أن المدرسة فى أجازة طويلة للتحسينات ، ولكنى فوجئت ذات صباح بأن الهيئة كلها مشغولة بإعداد مواد الامتحان ، وعلمت أن الامتحان سيجرى فى أسبوع بالتمام والكمال ، طيب .. أين التلاميذ ؟ أجابنى الأستاذ حمد الله بأن التلاميذ موجودون فى العنابر .

— يعنى همة فى إجازة دلوقت ؟

— همة فى إجازة على طول .

— من أول السنة ؟

— من أول ما فتحت المدرسة .

— أمال هيمتحنوا إزاى ؟

— ما حدش بيمتحن فى حاجة ، احنا اللى بنكتب الأسئلة واحنا برضه اللى بنجاوب ، واحنا اللى بنصحح والنجاح عندنا مية فى المية كل سنة والمشايخ الاثنين بياخدوا حوافز .

— غريبة ، ومفيش أى نوع من التفتيش ؟

— فيه تفتيش مرة كل شهر ، بيجى الشيخ عبد الله من المصلحة يقعد معانا يمص قصب ، وياخدوا شيخ من الاثنين دول على البيت ويكون دابح له دكر بط مزغط م اللى قلبك يحبه ، وهو

راجع مصر المغربيـة بياخد معـاه شروة سمك حلوة وعلبة سجـاير عشرين وخمسة جنيه يشترك فيها المشايخ الاثنين الغلابة دول .

— مفيش حد م السجن بيفتش ؟

— ويفتش ليه يا عم ، المدير يهمه ما يحصلش دوشة والنتيجة تكون مية فى المية وخلاص !

الأستـاذ حمد الله المرتشى والـذى صـدر ضـده الحكم بثـلاث سنوات سجن ، كان شديد الثورة على الفساد الذى ينهش فى جسم مصر ، ذات صباح ونحن جلوس على الدكة نمص القصب كالعادة ، قال بحماس شديد :

— مش المدرسة بتـاع السجن بس اللى ماشية كده ، يـا أستاذ دى البلـد كلها ، المهم النتيجـة الرسميـة اللى هتتعرض على المديـر يبص فيها وينشكـح لاحد بيشتغل ولا حد بيتعلـم ، والمهم النتيجة مية فى المية .

وصمت الأستاذ حمد الله وانهمك فى مص القصـب بعض الوقت ثم نظـر نحوى نظرة طـويلة قبل أن يقـول : يعنى أنا عملـت إيه ؟ خـدت ألف جنيـه من المحل ده وخمسميت جنيه مـن الدكـان ده ، وفيها إيه دى ؟ بذمتك دى رشوة ؟ دى حسنة . الدور والباقى على اللى بياخدوه الـوحوش التانية بتوع المصلحـة وبتوع الوزارة ، لكن تقول إيه بقى ، ما يجوش إلا ع الغلابة اللى زينا .

عاد الأستاذ حمد الله إلى مص القصـب ، وسرح بعيدا عن المكان والزمان ، ثم عاد منها إلى جلستنا وقال لى بحماس :

— المهم أنت عملت كام ؟

— عملت كام فى إيه ؟

— يعنى هبرت هبرة نضيفة ؟

— اهبر منين ؟

— منين ازاى ؟ م الحكومة ، ما أنت ممسوك مع الحكومة وكنت بتشتغل مع الحكومة .

— وهو اللى بيشتغل مع الحكومة لازم يسرق ؟

— امال هو بيشتغل ليه ؟

ضحك الأستاذ حمد الله ضحكة عريضة قبل أن يقول :

تصدق بالله ، أنا عمرى ما شفت حد بيشتغل لوجه الله ، كله بيهبر، بس الخايب اللى زى محسوبك هو اللى بيقع ، وبصراحة بقى مافيش حد غريب معانا ، قوللى إنت عملت قد إيه ؟ .. مليون ؟

كان شديد الثقة بأن العبد لله الجالس أمامه هبر هبرة كبيرة ، وكيف لا ؟ وأنا لا ينقصنى الذكاء ولا الحيلة وأعمل مع الحكومة فى نفس الوقت .. وعندما امتنعت عن الإجابة عاد يسأل :

— نص مليون كده ؟ إذا قلت لا هزعل منك قوى ، مش معقول واحد زيك يهبر أقل من كده .

ولم أجد مبررا لمناقشته ، فغمزت له بعينى غمزة ذات معنى ، وقلت له :

— يعنى .. الحمد لله

صاح متهللا : ـ

— أيوه كده .. خلاص فرحتنى

ثم ضربنى بيده على كتفى وقال :

— لو قلتلى لأ ، كنت زعلت منك قوى ، مش معقول واحد زيك حدق وعينه مفتوحة ويطلع م المولد بلا حمص ، دا مولد يا عم وصاحبه غايب ، دنا أعرف ناس أقل منك بكتير وعملوا ملايين ، دا احنا عندنا واحد م المصلحة معفن ، ـ واللى خلقك أنت ـ عاوز له مصلحة بحالها عشان تعد الفلوس اللى معاه .

وتركنى حمد الله وانصرف ، وتوطدت الصلة بينى وبينه بعد

ذلك ، كــان ذكيــا وخفيف الـــدم وخفيف الحركــة وخفيف العقل ، وكــان مذعــورا على نحو مــا يتــوقع الشر فى كل لحظة ، ويتــوجس خيفــة من كل النــاس ، ولم يكن يشغله داخل السجــن إلا الوجبــة القادمــة ، وكان يعمل المستحيل من أجل مــائدة تليق بكرشـــه الذى يشبه كــرش امرأة حامل فى تــوأم .. وذات يوم عــزمنى على أكلة لا تعــوض على حسب تعبيره ، أكلـــة لحمــة راس وكــرشـــة وممبــار وطرشــى بلــدى .وقبل العزومة اكتشفــت أنه تلقى زيارة منــزلية فى ذلك اليوم عبارة عن طشت غسيل من بتــورع زمان ممتلىء بكل هذه الألوان من الطعام .. وعندما انتهيت من غدائى ، قال محتجا :

لا .. دا مش أكلك .. أمــال بتكتب وتقــول إنك بتاكل زى الغول!

قلت له معلقا :

— دا كلام !

قال فى حسرة :

لا .. أنت مش عــاجبنى ، انس السجن يــا راجل وعيش حيــاتك الشوية اللى انت قاعدهم .

واستأذنت وخــرجت إلى الفنــاء ، وبعد نصف ســاعــة لحق بى هناك ومعه الطشت خاليا ، واستأذن منى دقائق لغسيله ، وعلشــان مــا يلمش الطير علينــــا !وبعــد عــدة أســـابيع كـــان قــد اطمأن إلى صحبتى، فــراح يحكى لى عن حيــاتــه التى بــدأت بــالغم ، وانتهت بالغم .. وبــالرغم من ذلك فهو سعيد ، لأنـــه استطاع أن يخرج من المولــد بشــىء من الحمص .. صحيح أنــه ليس الحمص الذى كــان يريــده ، ولكن شــىء خير من لا شىء ! وعلى مدى أيام طــويلة راح يحكى لى قصة حياته الرهيبة ، عائلة فقيرة وبيت مزدحم بالأطفال. وحــاضر مظلم ومستقبل أكثــر إظــلامــا ، ولكن ربك كبير وفــرجــه قــريــب ، ومشيت وبقت عــال العـــال لــولا ولاد الحرام الله يخرب

بيـــوتهم الدنيا بقت حلوة والخير بقى كتير والعيال انبسطت وكل شيء بقى عـال . هُبّ كل شيء راح فى لحظة ، قـال إيه سجلـوا لنا بالصـوت والصورة والتهمـة رشوة ، رشـوة إيه يـا أولاد الهرمة ، ماتمسكوا اللى بيهبروا بالملايين مـا بيتشطروش الا ع الغلابة وهى ألف جنيـه والـــلا ألفين تبقى رشـوة ؟! دى تبقى حـــلاوة ، تبقى إكرامية ، تبقى أى كلام والسلام ، حاجة كده تمشى المركب . المهم عكمونا وهزأونا وهات يـا سين وجيم ، وبعدين افرجوا عنى بكفالة، وبعـدين طخونـا ٣ سنين ، وأنا طلعت هنـدى ، لو هـربت وسلمت نفسى فى شهر ينـاير كنت خدت ١٨ شهـر ، لكن أنا سلمت نفسى على طول ، هاخد ٢٧ شهر .. مش مشكلة ، وكل اللى عملته ٨٠ألف جنيه عمى ، لكن زى بعضه . المهم اخرج من هنا بس ، وكل شيء هيبقى عـال العال ع العمـوم أنا لســه صغير وبكره اعمل اللى انـا عاوزه . كان يحكى لى بين الحين والآخر جزءا من قصة حياته ..

وفى ذات صبـاح دخلت السجـن فـرقـة مسرحيـــة مشهـورة ، ونصبوا المسرح فى حـوش السجن الضيق وتركوا الـذين اعتذروا فى الحوش الكبير ، وكان العبد لله والأستـاذ حمد الله فى الحوش الكبير ، وكانت فرصة للأستاذ حمد الله ليحكى لى قصة حياته بالتفاصيل .

— تصدق بالله يا أستـاذ ، أنا عاوز احكيلك عشان أنت صحفى وممكن تكتب قصتى دى فى يوم مـن الأيام ، أنا لـو اغتنيت فى يوم من الأيام هاعملها فى السينما .

— والله فكرة يا أستاذ حمد الله

— إلا تتكلف كام عملية زى كده ؟

— مش مهم التكاليف ، أنت ممكن تاخذ فلوس كمان .

ـ بذمتك ، يا سلام ، يعنى اخد كام ؟

— حسب الظروف ، على كل حال اكتب أنت القصة والباقى على الله .

— أنا مش هكتب حاجة ، أنت اللى هتكتب .

— ماشى يا أستـاذ حمد الله ، بس احكى على مهلك كده ، واللى فيه الخير ربنا هيعمله .

وانطلق حمد الله كالمدفع الرشاش يحكى بلا انقطاع .

يـا قوة الله ، أخيرا جـاء فـرج الله ونـال حمد الله بكالـوريـوس التجارة منذ ثلاثين عاما وهو يحلم بهذا اليوم ، وهو لم يدخل كلية التجارة قسرا ولا عن طريق مكتب التنسيق ، ولكنـه هو الذى اختار الكليـة وعينـه على مصلحـة الضرائب ، أعظـم نـاس فى العـالم هم مأمـورو الضرائب ، سلطاتهم لا تقـاومها أى سلطـة فى العالم ، فى امكان المأمور الجدع المفتوح العين أن يصبح فى زمن وجيز سلطان العالم ، إنه يتقاضى عـدة ألوف من الجنيهات مقابل إغماض العين عن عشرات الألـوف من حق الدولـة .. وما يأخذه مـأمور الضرائب ليس رشوة إنها عملية توزيع للثروة بشكل عادل !

ثم ما هى مهمـة الدولة على وجه التحـديد ؟ أليست هى تحقيق السعـادة والطمأنينـة للمـواطنين ؟ طيب .. إذا كـان فى وسع بعض المواطنين تحقيق السعادة لأنفسهم بالحلول الذاتية ، فما المانع ؟ يا لها من أحـلام جميلة لو تحققـت يا حمد الله لقد تقـدم بطلب إلى مصلحة الضرائب ليصبح مأمـورا يشار إليه بالبـواكى والأسـاتك ! ولكن هل يتحقق الحلم ؟ لـو تحقـق حلمك يـابن الشربينى لـوضع حدا لعمليـة التعذيب التى استمرت منـذ سقطت راسك فى حارة من حـارات شبرا الضيقة وحتى يـوم جـاء الفرج ونـال بكـالوريـوس التجارة ، ويـا ضيعة سنوات الشقـاء ، وما أرخص البكالـوريوس لو رفضت المصلحة طلبه .. وما جدوى اشتغاله موظف بالأرشيف أو حتى محاسبـا فى مكتب محاسبة ؟ ليست هـذه أهدافـه على كل حال .. لابد مـن منصب المأمور والهيمنة على مساحـة فى العاصمة

تفوق مساحة إمارة من إمارات الخليج .. يا له من انقلاب رهيب فى حياته .. حمد الله ستنقلـب حياته رأسا على عقب ولا الـزلزال الذى ضرب سان فرانسيسكـو وجعل سافلها عاليها . وداعـا لأيام الفقر الحيسى والغم الأزلى والجوع الـذى يفرى البطـون .. كان حمد الله واحدا من بين تسعـة أطفال للحاج حسن الشربينى عامل الـدريسة بالسكة الحديـد .. ولا يذكر حمد الله شيئا عن أيامـه الأولى ، عندما كـانت العائلـة كلهـا تتكدس فى حجـرة بـائسة على شريط السكـة الحديد.

ولكن حتى هـذه الحجرة لم يستطع الحاج الشربينى الاحتفـاظ بها طويلا .. فقد أكل القطار مشط رجله ، فأعطوه بعض الجنيهات تعويضـا وعدة جنيهـات أخرى مكـافأة وسرحـوه بمعروف ، وداخ عمك الشربينى حتى عثـر على حجـرة فى حارة من حـارات شبرا .. واشتغل بعـد ذلك فى عـدة مهن ، مناد سيـارات ، منـاد يبحث عن الأطفـال الذيـن تاهـوا فى المدينـة ومسحراتـى فى شهر رمضـان ، وهكـذا اشتهـر الشربينى فى الحى الذى يسكنـه ، وأنعم عليـه أهل الحى بلقب الحاج ، مع أنه لم يغادر القاهرة منذ جاء إليها من كفر أبـو محمـود ، وبالـرغم من العيشـة الضنك والقـرش اللى بطلـوع الـروح ، استطاع حمد الله دون إخـوته جميعـا أن يدخل المدرسـة الابتدائيـة ، وكان يـرغب فى دخول المدرســة الثانـوية ، ولكن العين بصيرة واليـد قصيرة ، واضطـــر إلى دخـول مـــدرســة التجـــارة المتوسطة .

كانت المدرسة بعيدة عن شبرا بعـدة أميال .. وكان يذهب إليها فى الترام ، ليس فى تـرام معين ، ولكن كـــان يقطع الـرحلـة فى عشر ترومايات على الأقل . فلم يكن هنـاك بد من الشعبطة ولكن ليس فى كل مـرة تسلم الجرة .. فقد كـان يخرج أحيـانا من الـرحلة بعـدة

كدمـات وعدة جـروح ، أحيانـا بفعل الكمساريـة ، وأحيانـا بفعل الأرصفة التي يضطر إلى القفز عليها هربا من مطاردات الكمسارية الجشعين الذين لا يؤمنون بحـرية المواطن في استخدام المواصلات بدون حاجـة إلى دفع المعلوم .. وبالرغم من بشاعـة البيت ومرمطة المواصلات ، كـان على حمد الله أن يبحث لنفسه عن مـورد ليتمكن من الحصول على بعض الفلوس ، اشتغل في محل بقالة ، وفي مكتب محام ، وأعطى دروسا لبعض أولاد الجيران . واضطـر في وقت من الأوقات أن يسرح بأمشاط وفلايات ومحافظ في ميدان العتبة .

وعنـدمـا حصل على دبلـوم التجـارة ، وجـد لنفسـه مكـانـا في مصلحة حكومية يتقاضى منها ٦ جنيهات شهريا .

وفي الليل يكتب على الآلة الكاتبة في مكتب محام بستة جنيهات . ودخل بذلك في عـداد الأعيان ولكن هذه الجنيهات لم تكن خـالصة له وحده ، كان يعطى نصفها للأم ويحتفظ لنفسه بالنصف الآخر .

ولكنـه بالـرغم من كل شيء استطاع الحصـول على التوجيهيـة والانتساب لكليـة التجارة . ويالها من أيام كئيبـة ، عمل من طلعة النهار وحتى منتصف الليل ، والتهام للكتب حتى الفجر . ولكن كل شيء يهون في سبيل الهدف الأسمى .. بكـالـوريـوس التجـارة ومنصب مأمور الضرائب .. كاد حمد الله أن يفقد عقلـه عندما جاءه خطـاب التعيين من مصلحـة الضرائب .. واضطـر لأول مـرة إلى اقتراض مبلغ بالفوائد للحصول على بدلـة جديدة قبل أن يذهب إلى المصلحة لاستلام خطاب التعيين .

وذهب حمد الله مبكـرا في البـدلـة الجديـدة واستلم الخطـاب ووضعه في جيبـه بعنايـة وقلبه يكاد يقفـز من بين ضلوعـه .. فقد أصبح أخيرا مأمورا للضرائب .

ومنذ لحظة خـروجه من المصلحة وإلى لحظة وصولـه إلى منزله بشبرا على بعد عدة أميال ، سار حمد الله على قدميه متوقفا أمام كل

دكان يقدم نفسه لصاحبه .

ـــ أنـا حمد الله الشربينـى مأمـور الضرائب الجديـد . فلـوس يقبض ، قماش يقطع . عصير قصب يشرب ، لب وفـول سـودانى مفيش مـانع ، خضار وقـوطة لا بأس ، لحمـة بتلو ولحمة ضـانى كله ماشـى ، وعندما وصل إلى البيت كـان يبدو كأنه عائد من سفر طويل ، أكياس ورق وقراطيس ورق من النـوع الفاخر الذى يلفون فيـه القماش ، وصناديق أحـذيـة وجـوارب شغل المحلة وقمصـان إنتاج الشوربجى .

وهكذا تكررت رحـلات حمد الله من المصلحة إلى شبرا مرة ومن المصلحـة إلى الجيزة مـرة ، ومرة مـن المصلحة إلى بـاب الشعريـة ومرة من المصلحة إلى السكـاكينى .. المهم إنه يدخل البيت فى كل مـرة محملا بـالبضـائع ، والمأكولات وأحيـانـا يخرج من الرحلـة وجيوبه محشوة بالنقود .

ولكن ، وبالرغم من الـرحلات المتكررة والجهد المرهق ، لم تكن الحصيلة كما كـان حمد الله يتمنى ، أغرب شىء فى هـذه الحياة أن بعض الناس تطفح الدم وتكسب قليـلا ، وبعض الناس تربح مئات الألوف وهم فى راحـة ولا راحة أمير تـركى فى أجازة .. عنـدك مثلا وكيل المصلحة يحقق مائة ضعف ما يحققه حمد الله دون أى تعب. تأتيـه البـواكى حتى بـاب مكتبـه فى المصلحة .. ورئيســه المبـاشر يا ميت حلاوة على النعمة التى هبطت عليـه أقام عمارة فى العباسية بـاسم شقيق زوجتـه ويملـك سيـارتين نقل ، وعنـده صرة فلـوس ولا الصرة التى كان يمنحهـا هارون الرشيـد لرجال حاشيتـه.. أما حمد الله فيا ميت حسرة عليـه ، كل ما خرج به ٨٠ ألف جنيـه بعد أن أبلى مائة جـوز جزمة فى المشـاوير التى قام بها خـلال عمله فى المصلحة .. وأغرب شىء أنهم يمنحون من يقطع عدة كيلومترات فى

السباق حفنة فلوس وميدالية ذهـب ، ولو كان هناك عدل فى ميدان الرياضة لمنحوا حمد الله الميداليات والكئوس .

ولكن الرياضة شأنها شأن كل شىء فى الحياة طبيخ فى طبيخ.. والنـاس يـا حمد الله فيما يبدو صنفـان ، صنف يبيع بـالجملـة ، وصنف يبيع بالقطاعـى ، والجميع تجار .. وقرر حمد الله ذات يوم أن يهجر البيع بالقطاعى ويشتغل فى الجملة ، اختار شركة صابون محترمة يملكها رجل من أصل شامـى ، وهو يعلم أنها تربح بالهبل وصاحبها أغنى من شيخ فـزارة وهجم حمد الله على مكتب صاحب الشركة هجومـا خاطفا ولا هجوم روميـل فى الصحراء . وحدد حمد الله مطالبه بصراحة ووضوح ، ١٢ ألف جنيه فى السنة على دفعتين، ٦ آلاف الآن، و ٦ آلاف بعد ٦ شهور .

هـذا وإلا سيكـون مصير الشركة أسـود من قـرون الخروب .. وحاول الـرجل صاحـب الشركة زحـزحة حمد الله عن مـوقفه دون جدوى . كان حمد الله قد اتخذ قـرارا لا رجعة فيه ، وهو أن يقصر عمله على ١٠ ممولين فقط ، ولو صحـت اللعبة سيكون عنده ١٢٠ ألف جنيـه سنويـا وهو دخل يجعـل منه ملكـا من ملوك الهنـد فى الزمن القديم .

١٠ آلاف جنيـه لأسرتـه و ١٠ آلاف جنيـه لنـزواتـه التى أخـذ يمارسها منـذ أن عرفت الفلـوس طريقها إليـه .. والحقيقة أن حمد الله ليس له نـزوات سوى شغفه بـالبنات المراهقات فى البدايـة كان يتصور أنها مسألـة صعبة ، ولكنه بـالتجربـة اكتشف أنها مسألة سهلـة وبسيطـة ولا تكلف إلا حفنـة جنيهـات ، يخرب بيت الفقـر وبيت أهله ، إذا حل بقوم بـاعوا كل شـىء حتى الشرف .. ذات مرة وقعت فى طـريقـه بنت فى الإعـداديـة لا تتعـدى الخامسـة عشرة ، صغيرة ورقيقة ، ولكنهـا مدربـة وبنت سوق .. واستطـاعت البنت

اللهلــوبـــة أن تحرك رجــولـــة حمد الله الـــذى يقف على أعتـــاب الشيخـوخة، وكـانت ترقص فـرحا لـرؤية الـورقة ذات الجنيهـات العشرة ، ولكنها كشفت عن حقيقتها بعـد شهرين بالتمام والكمال، فإذا بها محترفة تخطط لضربة تغنيها عن سؤال اللئيم ، ادعت أنها حامل فى البـداية ، ثم جاءت معهـا بشاب يحمل وجهــه القبيح آثار معارك بالمطـاوى قرن الغزال ، ادعت أنه شقيقهـا ، وبالطبع هدده الشقيق وتوعد حمد الله بأن الشرف الرفيع لا يسلم من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم !

وعـاش حمد الله أيامـا مـريرة ورهيبـة ، ولم يتخلص من هــذه الـورطـة إلا بعـد أن انفق ٣ آلاف جنيـه ، حـار ونـار فى دم البنت المراهقة وشقيقها المزعوم .

المهم .. اذعن صاحب مصنع الصابون لطلب الأستاذ حمد الله ، ووافق على كل شروطـه كما وافـق الألمان على شروط الحلفـاء بعـد الحرب العـالمية الثـانيـة ، ودفع الـ ٦ آلاف جنيـه صـاغرا ووعـد بـالدفعـة الثـانيـة فى الميعاد المحـدد .. ولم يضيع حمد الله وقتـه ، اشترى بـالمبلـغ بيتـا صغيرا فى قليـوب ودفع الثمـن ورقـا أخضر مقرقش ، وأعطتـه هذه البـداية ثقة كبيرة فى نفســه فضرب ضربته الثانية والثالثة ، ونجح حمد الله نجـاحا ساحقا ولا نجاح روميل فى اجتياح خط مـاجينو .كان حمد الله يحكى وكأنـه يحكى قصة فيلم لا عـلاقة لـه بأحـداثه من قـريب أو بعيـد .. وخطر للعبـد لله ذات جلسة هادئة فى مكتبة السجن أن أسأله سؤالا كان يلح على العبدلله بشـدة : لكن أنت عملت كل الحاجـات دى كلهـا ببساطـة زى مـا بتحكيها دلوقت ؟

سكت حمد الله فترة وعض بأسنـانــه على شفته العليـا وقـال : بينى وبينك كنت بامـوت فى جلدى م الخوف والسجن والفضيحة ،

واللى اكتر من السجن والفضيحة هم العيال .

أنـا ماليش فى الـدنيـا دى حد غير العيـال ، كـان نفسـى أغتنى عشـان أمتعهم وأعلمهم لحد مـا يـاخدوا الـدكتـوراه ، مش عـاوز يحصل لهم اللى حصل لى .

— وأنت حصل لك إيـه يا عـم حمد الله ؟ ما أنت الحمـد لله فت منها .

— أيوه فت منها بعد إيه ؟ تصدق بـالله ، أنا مرة ناظر مدرسة التجـارة طردنى من المدرسـة وطلب منى أجيب ولى أمرى ، خـدت ولى أمرى ورحت المدرسـة ، ساعة الناظـر ما شافه شتمـه وضربه بالشلوت قدام التلامذة .

— وأبوك عمل أيه ؟

— نـزل ع الأرض وباس جـزمتـه عشان يقبلنى تـانى صمت حمد الله قليلا ولمحت فى عينيه لمعة غـريبة وشرود لم أعهده فيه من قبل ، وتوقف عن الكلام ، واستأذن من العبد لله وخرج .

فى ساحة المدرسـة ذات صباح قال للعبد لله !

— تعرف كنت مبسـوط م المكاسب اللى زى الـرز والبنات اللى زى الزغاليل ، ولكن كان كل ما عينى تقع على العيال ينقبض قلبى، هايعملوا ايه لو اتمسكت أو مت ؟

قاطعته ضاحكا :

— يمكن يتربوا أحسن بعد موتك

— بقى دا اسمه كلام يا أستاذ

— هـو الكلام الصح يـا أخ حمد الله ، سيـدك وسيدى وسيـد الناس كلها محمد بن عبد الله أتربى يتيم .

— زمنه كان حاجة والزمن بتاعنا حاجة تانية .

— طيب ما عمك عبد الناصر من الـزمن بتاعنا وكان يتيم راخر

ثم ضحكت ضحكة خفيفة قبل أن أقول :

— موت أنت بس وما لكش دعوة

وكانت المفاجأة الشديدة عندما انفجر حمد الله فى نوبة بكاء عنيفة وتملكته رعشة شديدة فراح جسده كله يهتز كأنه واقف على سطح خشب ابلكاش ، ولم يتوقف عن البكاء إلا بعد فترة طويلة حاولت التخفيف عن حمد الله :

— يا راجل أنا بهزر معاك ، أنت خدت المسائل جد ؟

مسح آثار الدموع من عينيه وقال :

— أنا مستعد أموت نفسى بس اضمن مستقبل عيالى مش عاوز حد منهم يعيش عيشتى المهببة ، مش عاوز يلمولهم مصاريف المدرسة من التلامذة زى ما حصل معايا .

مش عاوز حد من عيالى يقف فى حوش المدرسة يبص للعيال اللى جايبين معاهم سندوتشات من بيوتهم زى ما كنت بابص لهم ومصارينى بتتقطع م الجوع . وقلت له وأنا على أهبة الانصراف .

— إن شاء الله هتعيش يا أخ حمد الله ويتربوا فى عزك ، نهض حمد الله على الفور وجذب رأسى بشدة وطبع عليها قبلة :

— يا رب ما يحرم عيالك منك ، بس بشرط ، تبقى غنى ومبسوط .. آخر مرة رأيت حمد الله كانت فى صباح يوم جمعة بارد ومطير كان السجن فى إجازة والخروج إلى الحوش ممنوع ، خطفت رجلى من الدور الثانى إلى الدور الأرضى ، كانت زنزانة حمد الله مفتوحة ، وكان منهمكا فى لصق صور أبنائه على الجدران الباردة ، صور ياسر وإسماعيل وإبراهيم فوق ، وصور لبنى وجمالات تحت ، وأشار إلى صورة إسماعيل وقال:

لو ربنا أكرمنى هبعت الواد إسماعيل أمريكا يتعلم هناك إن

شــاء الله لما نطلع هتشوفـه واد عبقرى بحق وحقيق ، الــواد الكبير ياسر ده حمار زى أبوه ، بيحب الأكل وبس أما إبراهيم بقى هيطلع بتاع كورة !

كان وجهه مكتسيا بهالة من النور وهو يحكى عن أبنائه .

وكان سعيـدا لدرجـة أنه أتـى بحركـة راقصة وهـز وسطه ولا كـاريوكـا أيـام زمـان وضحكت من أعماقى وتـركته وصعـدت إلى زنزانتى ، وواربت الباب وجلست أقرأ فى كتــاب ، وبعد ساعة زمان لا غير ، شعـرت بحـركـة غير عـاديـــة داخل السجن ، نهضت من مكانى وألقيت نظـرة على الطرقة الأرضيـة ، فإذا بممرض وبعض المساجين يحملون نقالة والدكتور ميشيل يمشى خلف الجميع وقد برز كرشه الضخم ، بينما هو يزمجر كالضبع الجريح .

— حتى فى يوم الاجازة لازم يتعبوا قلبنا .. ملعون أبوهم .

نزلت الدور الأرضى لأعرف تفاصيل الحكاية .

لقـد دخلـوا زنزانـة حمد الله أفنـدى وحملـوه معهم .. ليس إلى المستشفى ، ولكن إلى مشرحـة السجن .. لقـد مات حمد الله أفنـدى بالسكتة .

●●●

غادرت سجن القناطـر بعد موته بعـدة أشهر ، ومضت سنوات طويلـة ، عشرون عاما أو أكثر وأثنـاء زيارة خاطفـة إلى الدنمارك ، وفى ليلة وبدعوة من الجالية المصريـة فى كوبنهاجن لإلقاء محاضرة وبعد أن انتهت القعدة وخرجت بصحبة السفير ، وأثناء وقوفنا على الرصيف فى انتظار السيارة ، تقـدم منى شاب مصرى فى الخامسة والثلاثين من العمر ، وقدم نفسه للعبد لله .

— إبــراهيم حمد الله .. دكتــوراه فى الكيميــاء مــن جــامعـــة كوبنهاجن .

بدا على وجهى أننى لا أعرفه ، فاستطرد قائلا :

— حضرتك مـا تعرفنيش ، بس أنـا أعـرف سيادتك ، أنـا ابن المرحوم حمد الله زميلك فى القناطر . هتفت بدون وعى :

— يا سلام .. أهلا يا بنى .

وهجمت على الشاب الذى يقف أمامى واحتضنته وقلت :

— الله يـــرحم أبـوك .. بـس أنت عـرفتنـى إزاى ؟ دا أنت كنت صغير لما مات .

قال وهو يبتسم :

— كان عمرى ١٠ سنوات .. بس لما كبرت قريت الجوابات اللى كـان بيبعتها لنـا من هناك ، مـا كـانش له سيرة فى ا لجوابـات إلا حضرتك

سألته متلهفا .

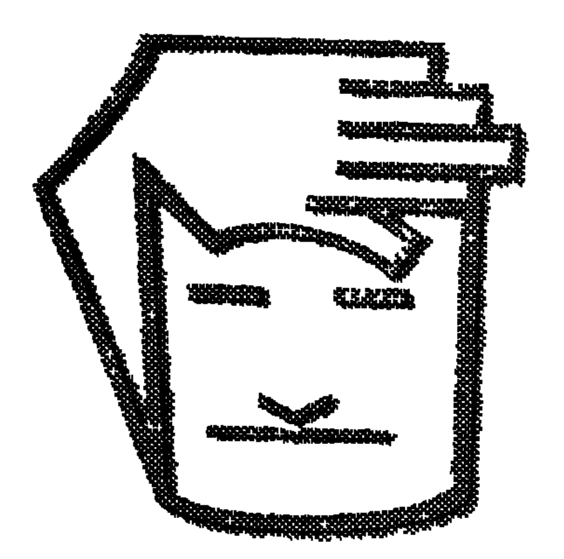
واخواتك فين ؟

— البنـــات اتجوزوا ، ويـــاسر بيشتغل محامـــى ، وإسماعيل محاسب ، وأنـا هـاجـرت هنا وأنـا عنـدى عشرين سنـة واشتغلت ودخلت الجامعـة ، وخدت البكـالوريـوس ، واشتغلت فى الحكومـة الدنماركية ، وبعـدين سبتها واشتغلت فى الأعمال الحرة ، وشاركت واحـد مصرى مقيم هنـا ، وربنا أكـرمنـا وبنشتغل هنـا وفى مصر وعنـــدنـا قـــريـة سيـــاحيـة فى شرم الشيخ ، وأرض زراعيـــة فى الإسماعيلية.

— ووالدتك راحت فين ؟

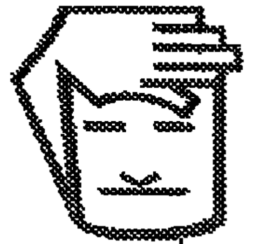
— توفاها الله ودفناها جنب أبويا .

وصـــافحت إبـــراهيم حمد الله مـودعـا ، وركبـت السيـارة مع السفير وقـرأت الفـاتحة على روح البيـه مأمـور الضرائب حمد الله أفندى ، صديق ورفيق سجن القناطر .



٢ الدكتـــور

●● عندما رأيته أول مرة تصورت أنه نشال وسخ من إياهم الذين يمزقون جيوب الفلاحين فى ميدان المحطة، لقد كان منظره يوحى بأنه واحد من هؤلاء كما أن معاملة الآخرين له كانت تؤكد أنه كان يمارس فى حياته خارج السجن مهنة أوطى من ذلك بكثير، كان (الدكتور) وهذا اسمه، موضع اضطهاد من الجميع لايصادفه حارس من حراس السجن إلا ويلطشه على وجهه أو يلزقه على قفاه وكان النزلاء يتحرشون به بمناسبة وبدون مناسبة أحيانا يمزقون جلد وجهه بشفرات الحلاقة وأحيانا يكتفون بالسخرية منه وسبه بكل ألوان السباب، ولكن الجميع حراسا ومساجين كانوا حريصين على تلقيبه بالدكتور، وكانت دهشتى شديدة عندما اكتشفت أنه دكتور بالفعل وأنه مارس مهنة الطب سنوات طويلة، وبالذات فى مستشفى سجن القناطر. صحيح أنه مارس الطب مدة طويلة من الزمان ولكنه لم يدرس الطب فى أى مكان، ولم يحصل على أى شهادة طبية من أى مدرسة ولا حتى شهادة ممرض! ●●



ولكنـه حصل على بكـالوريـوس الطب من جـامعـة عطـوة وهو مـزور شهير زور شهـادة البكـالوريـوس وتقـدم الـدكتور بطلـب وظيفة فى مصلحـة السجـون، فرحبـوا به على الفـور، ولم يختبره أحد، ولكنهـم اكتفوا بـالنظـر فى الشهـادة ثـم أرسلـوه إلى مستشفى سجن القنـاطر ليمارس العمل هنـاك. وارتاح البيـه الدكتـور لعمله الجديد.. فقد ضمن لنفســه بيتا مستقلا فى حدائق القناطر. ولأنه صايع ووحيد وحريص على عدم الخروج من دائرة السجن. ولأن زميلــه الـدكتــور ميشيل كان رجلا مريضا ويقترب من سن المعاش، كان صاحبنا الدكتور يقوم بدور النوبتشى، سواء كان الدور عليه أم على الدكتور ميشيل. وفى السجن يستطيع أى إنســان أن يقـوم بـدور الطبيب فـا لمرضـى من النـزلاء أغلبهم متمارضـون، أمـا فى الحـالات الحرجـة فيمكن تحويل أصحـابها إلى المستشفيـات الحكـوميـة، وأى طبيـب فى السجن يستطيع أن يكـون صاحب شعبية واسعة داخل السجن لو وافق على طلبات الأجازة التى يسعى إليها المساجين المتعبين .

وكان صاحبنـا الدكتور إنسانا بحق. كـان يمنح الاجازات للفقراء بـدون حســاب. ولكنـه مع تجار المخـدرات والمختلسين كـان الأمـر يختلف. كـان يلبى طلبـاتهم أيضـا ولكـن بثمن بـاهظ. بعض هـؤلاء المســاجين السـوبر يطلبـون إدراج أسمائهم فى كشف المرضى بـداء السكر، وبعضـهم يطلب زنزانة انفـرادية لكى ينأى بنفسه عن سماجة

ورزالـة المســاجين. وكـان الثمن فى هــذه الحالات يتراوح بين خمسين ومائة جنيه، أما عندما يطلب المسجون دخول المستشفى عندئذ يرتفع الثمن إلى ٥٠٠ جنيه مقـدما و ١٠٠ جنيه عـن كل شهر وكان الـدكتور واضحا وحاسما أيضا، ولذلك كان الجميـع يرتاحون فى التعامل معه. خصوصـا وزميله ميشيل كـان معقدا ومـزاجيا، وكـان على استعداد لنقض اتفاقه مع المسجون فى أى وقت. وجـرت الفلوس فى يد الدكتور فاشترى سيـارة، وقضى إجازتـه مرة فى قبرص. واستطـاع أن يكون موضع ثقة مدير السجن والمأمور والضباط أيضا، وكان يتردد عليهم أحيـانا فى مقـار إقامـاتهم، ويقوم بتـوقيع الكشف الطبى عليهم وعلى أولادهم وعلى حريمهم أيضـا. ابتسمت الدنيا أخيرا للـدكتور والتأمت جـروحه وودع أيـام الفقر إلى غير رجعـة، ونسى أو كاد المأزق الـذى وقع فيه عندما كان يعمل فى إحدى الدواير الحكومية بمركز من مراكز الـريف الصغيرة. كانت شهـادته المتـوسطـة لا تسمح له بأكثـر من وظيفـة صغيرة. وكان مـرتبـه لايكفيه أسبـوعا، وكـان يمـد يده بعـد الأسبوع الأول للأصدقـاء حتى ضاق به الجميع. ثم اكتشف أن معه عهـدة للحكومـة، وأن بها مبالغ لا بأس بها، وأنـه يستطيع أن يقتبس منهـا أحيانـا ما يفـرج به ضـائقتـه ومنذ أن اكتشف الـدكتور هـذه الحقيقة لم يعد يمد يده لأحـد، وأصبح مستورا لا يريق ماء وجهه للى يسوى واللى مـا يسواش، ولكن لأن الحجر الـداير لابد عن لطـه، فقد انكشف سر الـدكتـور وسين وجيم وشرطـة ونيـابـة وسجـون. أمـر الحكومـة عجيب ومحير أيضا، تنتفض جميع الأجهزة وتنشط عنـدما يكون الحرامى صغيرا، ويأخـذ العدل مجراه سريعـا، ويذهب الجانى إلى محبسه قبل أن يـرتد إليـه طرفـه. وهكذا وجـد الدكتـور نفسـه فى زنـزانـة فى سجن إقليمى ردىء ، الطعـام فيـه ردىء ، والنظـام فيـه ردىء، والنزلاء هم أردأ شىء فى السجن على الاطلاق! وخـرج الدكتور

من سجنه بعـد ٩ شهور، مضت بطيئـة خاملـة، واضطر إلى العمل فى المركز موظـف استقبال فى عيادة طبيب. لكنه اكتشف بعـد عدة أشهر أنه محاصر بالديون والهموم، وأرهقه العمل عند الطبيب الريفى الذى كـانت علاقتـه بـالطب لا تزيـد كثيراً عن عـلاقته هـو نفســه باللغـة الصينية! ولكن الفرج جاء أخيرا، عنـدما استقبلت عيادة الطبيب زميلا للدكتور فى السجن كـانت تهمته التزوير. وكانت لـه أصابع من النوع الذي يستحق أن يلـف بالحرير. وعنـدما زاره الـدكتور فى مقـره وجد عنده جوازات سفـر تحت التزوير، وشهادة جامعية خـاصة بشاب فى طـريقـه إلى الهجـرة للخارج ولمعت فى ذهـن الدكتـور الفكـرة. فكـرة الحصول على شهـادة تنقله من خـانة الشقيـانين إلى خانـة السعداء. وأبـدى المزور استعـداده لتأدية الخدمـة.. ولكن المسـألـة تحتـاج إلى ١٠٠ جنيه، مائة جنيـه يا دكتور.. ونجوم السماء أقــرب إليه من هذا المبلغ الجسيم. وفكر طـويلا ثم قـرر. جمع بعض الأدوات الطبية من عيادة الطبيب الريفى وفص ملح وداب !

ولزم الطبيب الصمت، فلم يستطع إبلاغ الشرطة، فهو حريص على أن يكون بعيدا عن الشرطة، خصوصا والولد الحرامى يعرف أكثر مما ينبغى. يعـرف عمليات الاجهـاض التى يقـوم بها، ويعرف العمليـات الجراحيـة التى انتهت كلهـا بقتل المريض، ثم الإتاوة التـى يفرضهـا الطبيب على أهل القتيل حتى لايقوم بتشريح الفقيد !

المهم أن الدكتـور حصل على المائة جنيه وسلمها للمـزيف، وسلمه المزيف بعدها بكـالوريوس الطب من جامعـة المنصورة وهكذا أصبح الدكتور طبيبا بمستشفى سجن القناطر. شىء واحد كان ينغص عليه حيـاتـه وسط هـذا النعيم اللى إنت فيـه يـاقلبى. خشيتـه من وقـوع المحظور، فيأتى إلى سجن القناطر صديقه المزيف الذى سلمه شهادة البكالـوريوس، أو يحل ضيفا على السجن أحـد الضباط الذين كـانوا

يعملون فى سجن المركـز الذى سبق للدكتور قضاء عـدة أشـهر خلف أسـواره. ولكن ربك ستار ورحمتــه واسعة. والأمـور تسير من حسن إلى أحسن، لدرجـة أنه بدأ يفكر فى إجراء عمليـة تجميل لتغيير ملامحه التى جلبت له الفقر منذ ولدته أمه على أرض قرية شرنوب!

ولكن ما حدث بعد ذلك كان أغرب من الخيال.

دخلت العيـادة ذات صباح امرأة فى حـوالى الاربعين من عمـرها فى حراسة شـاويش عجوز. ومنذ اللحظـة الأولى انتابت الدكتور رعشة لم يحس بها من قبل، لم تكن امرأة عادية، ولكنهـا امرأة من النوعية التى جـاءت إلى الحياة لتـؤدى فيها دورا يختلف عن جميع الأدوار! جبهـة عريضة وعينـان واسعتان وفم مكتنز ومضموم وحاجبان مـرسومان كقوسين يـرسمان قوسـا من السواد، وصـدر بارز وجسـم ملفوف، وخصر ممشـوق، وحـركـات امرأة لعـوب تجيـد العـزف على قلـوب الرجال! استقبلها الدكتـور فى اضطراب لم يستطع إخفاءه ودعاها إلى الجلـوس، وأمر الشـاويش بالانصراف. لقـد جاءت تشكـو من حالـة اضطراب لاتعـرف سره، لا يستقر طعام فى معدتها، ولا تنـام أكثر من ثلاث ساعات فى اليوم، كثيرة العراك كثيرة النرفزة. وهى حالة يعرفها الدكتـور جيدا، وهى تصيب المساجين من وقت لآخر نتيجـة الحبسة والقهـر والغيظ وعنـدما تمددت السجينـة على دكـة الكشف. تصبب العرق بشدة من جبهـة الدكتور وتلاحقت أنفـاسه، ولم يتمالك نفسه فانحنـى على المرأة يقبلها، ولكنها صـدته بعنف ونهضـت على الفور، وألقت على الدكتور درسـا فى السلوك والأخـلاق. وجفف الدكتور عرقه ووقف يلهث أمامها كالكلب الجربـان. ولكن ثورة السـجينة هدأت بعد لحظة وعادت فتمددت على دكة الكشف.

لم يحفظ الـدرس الذى لقنتـه إياه المرأة التفـاحـة فانحنى عليهـا يقبلهـا، فلم تصده ولم تـرحب به، ولكنهـا كانت لحظـات هى فى واقع

الأمر من أسعد لحظات العمر لقد كانت حياته جافة دائما، لم يعرف طبيعة العلاقة المستمرة مع امرأة. كانت علاقاته مجرد عمليات تجارية العلاقة الوحيدة التى استمرت عدة أسابيع كانت مع امرأة بدينة وأكبر منه سنا. كانت تنجز أعمالا فى المصلحة التى يعمل بها .

وكان فى يديه الحل، فتعمد التعطيل والتسويف، ورأت فى عينيه رغبة مشبوبة، وكانت عطشى، ووجدت فى الدكتور فرصة لتضرب عصفورين بحجر، وشعر بالسرور لأن المسائل تطورت كما كان يخطط لها. ولكن الذى جعله يفقد عقله هو انسحاب المرأة من حياته بعد انتهاء العلاقة الإدارية بينها وبينه!

منذ دخول المرأة المسجونة فى حياة الدكتور وأحواله كلها تغيرت. لم يعد حريصا على التواجد الدائم فى مستشفى السجن كما كان يفعل من قبل، وأصبح شاردا على الدوام، وارتكب خطأ فاحشا مع المأمور حين لجأ إليه الأخير يطلب دواء لابنه الطفل، فأعطاه دواء خطأ من أجزخانة المستشفى، ثم هرول على عجل إلى بيت المأمور ومعه الدواء الصحيح، ومن حسن الحظ أن المأمور لم يعط الدواء الخطأ لابنه الطفل لأنه كان نائما !

راحت المرأة المسجونة تتردد على المستشفى مرة كل أسبوع بأمر الدكتور، وتطورت العلاقة بينهما إلى الذروة. واستسلمت المرأة للدكتور بعد أن أقنعها بأن كل شىء يسير فى خطه المرسوم. ولاحظ المرضى والممرضون والعساكر أن الدكتور يقضى وقتا طويلا فى حجرته مع المسجونة واللمبة الحمراء مضاءة. وهمس الجميع بحكاية الدكتور والمسجونة، ووصل الهمس إلى الدكتور ميشيل فى وقت قاتل، فقد كانت هناك معركة ضارية تدور فى الكتمان بين ميشيل والدكتور. كانت المعركة حول المعلم قطقط تاجر المخدرات الكبير، وكان قطقط من نصيب ميشيل. وكان ميشيل من النوع

المنشــار نــازل واكل طــالع واكل. ولكن المعلم قطقط المدرب وجـد فى (الدكتــور) ثغرة ينفد منهــا ويهرب من حصار ميشيل. وبـدأ التعامل بين قطقط والـدكتــور ولكن بنصف التكاليف التــى كان يتحملهـا فى تعاملــه مع ميشيل. وراح ميشيل يفتش عن أخطــاء (الدكتور) كـانت كل أمنياتــه تنحصر فى نقل (الدكتور) إلى سـجن آخر. وعنـدما استمع إلى الهمس الذى يدور حول الدكتــور والمسجونة، طلب ميشيل أجازة لكى يخلـو الجو (للدكتور) لكــى يمضى. أبعد فى عـلاقته المشبـوهة. وأكل (الدكتــور) الطعم. فأمعن فى علاقتــه بالمسجـونة إلى أبعـد حد، وحدث تغيير (للدكتور) خصوصا فى عـلاقاته مع النزلاء. لم يعد يهتم بفقراء المساجين كما كان يفعل من قبـل، واشتد فى طلب الرشاوى من أثريـائهُم حتى تجاوز السقف الذى وصل إليه ميشيل. كـانت طلبات المرأة المسجــونــة من النوع غير المعقــول. كـان لها نصف دستــة من الأطفال يعيش ثـلاثة منهم عند أخـت لها والثلاثة الآخـرون مع أمها، وكانــوا فى سن الخطــر، خصوصا ابنتهــا الكبرى، وكانــت على عتبات الســابعة عشرة، وكــان على استعداد لتلبيــة كل الطلبــات، خصوصــا عنـدمــا وقع بصره على البنت الكبيرة. كــانت نسخــة طبق الأصل مَن أمهـا.. ولكنهــا لا تزال شابــة ومتفتحة. العينــان هما نفس العينين عند الأم، تطلق شرارا ورصــاصــا، والجســد يفور بــالفتنــة، والعــود مثل شجرة الموز مكتنز وممشوق، والصــوت يرن كالـجرس ويفح كصوت الحيــة. وأصر (الـدكتــور) أن يقــوم ليس بإطعــام العيــال فقط ولكن بتأمين طلباتهم فى الفسحة والترفيه. وفى الصيف استأجر للعيال كلهم وستهم العجوز شــاليها على شــاطىء البحر وحصل (الـدكتور) على أجــازة شهر، وقضــى الفترة كلهــا على رمــال الشاطىء مع العيــال. أو بمعنى أصح مع سعاد البنـت الكبيرة التى بهرت رواد الشاطىء ولأن الـدكتور كــان قـد مضى كل عمره الـذى يقترب الآن من الخمسين فى

الجوع والحرمـــان، فقـــد حـــاول مع البنت، ورش فى محاولتـــه كل ماحصل عليه من رشاوى، وكان لـدى البنت استعداد فطرى، فأبوها مـات قتيـــلا، وأمهـا ستقضى العمـــر كلـه فى السجن، فهـى يتيمـة ومحرومـة، ولا أمل لها فى تغيير الحال، و(الـدكتـور) فرصـة العمـر للنجـاة من هذا السجن الأبـدى الـذى فرضتـه الظروف على سعـاد. ولذلك استسلمت له ببساطة عندما همس فى أذنها بكلمة الزواج .

●●●

عندمـا عاد (الدكتور) من أجـازته الطويلـة إلى عمله فى مستشفى سجن القنـاطـر، اكتشف أن ميشيـل عـاد إلى عملـه واحتل الغـرفـة الرئيسية تاركا للدكتور الغرفة الصغيرة تحت سلم المستشفى، والتى تشبـه غرفـة بواب. ووجـد عند ميشيل إصرارا على مبـاشرة العمل فى المستشفى والـــوقـوف على كـل التفـاصيل. حتـى عنـدمـــا حضرت المسجـونة للفحص، أصر على الاشتراك فى عمليـة فحصهـا، ثم ضرب ضربته الكبيرة عندما كتب على التـذكرة الطبية (المريضة لا تحتاج إلى علاج) لم تهتز المرأة المدربة، فقد كانت تعلم أن عشيقها (الدكتور) لن يستسلم لتأشيرة ميشيل، ولكنها انتظرت طـويلا قبل أن تكتشف أنه لم يفعل شيئا لتعديل الأمر. لم تفطـن إلى أنه أعجز من أن يفعل شيئا. ولكنهـا تصورت أنـه شريك فى المؤامـرة، وأنه شرب من عشقهـا حتى ارتوى ولم يعد فى حـاجة إلى مزيد. وتـأكدت هذه الفكرة لـديها عندما جاءتها الأم فى زيارة وأخبرتها بما جرى بين (الـدكتور) والبنت سعاد، وأن ثمرة العلاقة بـدأت تظهر على بطن البنت التى انتفخت واستدارت وصارت ملفتـة للنظر. أكلها الغيظ واستبـد بها الإصرار على الانتقام، ومن يكون هـذا (الدكتور) الذى لا يسـاوى قرشا فى سوق الـرجال؟ ولـولا السجن الطويل والحرمـان الشـديد مـا قبلت أن تمد لـه يدهـا لتصـافح يده. وهى تستطيع أن تنتقم إلى حـد قتله والشرب من دمـه.

ومن يكون هذا (الـدكتور) إلى جانب زوجها الذى كان وحشـا فى غابة الرجال؟ لقد ذبحته بدم بـارد وبأعصاب أكثر برودا. ووضعت قدمها على رقبته وهو يشخر ويحفر الأرض بقدميه كالثور السودانى عندما تفصل السكين رأسه عن جسده!

ستقتل (الدكتـور) ولن يغير قتله من وضعهـا فى السجن. ستكون قضية جديـدة وحكما آخر لن يزيد عن عشرة أعـوام تضاف إلى أعوام التأبيـدة، ولو طـال عمرهـا فستخـرج من السجن بعد ربع قـرن من اليـوم الأول من سجنهـا! لأنـــه فى قـوانين السجـون، لايجوز سجن انسان أكثر من هذه المدة مهما كـانت الجرائم التى ارتكبها!! وتقدمت السجينة بالتماس تطلب تـوقيع الكشف الطبى عليها لأنها تشعر بأن رأسـها تكـاد تنفجر. ورفض الالتماس. والذى جعلها تتمـزق غيظا أن الرفـض هذه المرة من جـانب (الدكتـور) فى هذه اللحظة تـأكد لها أن (الـدكتور) كـان يلعب بها وبالبنـت سعاد. لم تعـرف المسجونـة أن (الدكتور) رفض الكشف عليها بسبـب محاصرة ميشيل له وإحراجه بكـلام كالسم. كما أن رفضــه الـذى لم يكن مخططا لـه تسبب لها فى توقيـع عقوبة الحبـس الانفرادى عليهـا، لأنها اعتبرت فى عرف الإدارة متمارضـة، وهى تهمة رهيبـة فى السجن، مع أنها لا تقـوم بأى أعمال خلف الأسـوار. واتحد الغيظ مع الخوف فى قلب المسجونـة، فأسرعت بشكـوى للإدارة تتهم فيهـا (الدكتـور) بتهم مختلفة، مـراودتها عن نفسها، أثناء ترددها على العيـادة وتغريره ببنتها القاصر حتى حملت سفاحـا منه. لم تهتز الإدارة أمـام شكوى السجينة، فهى مـدربة على مثل هذه الأمـور، وما أكثـر شكاوى النـزلاء التى ثبت بالتجـربة أنها غالبـا كاذبـة. ولكن السجينة لم تسكت، أرسلت شكـوى إلى مصلحة السجـون عن غير طريق السجن. وجـاء مفتش لبحث الأمـر، وفى مثل هذه الحالات ينتهى الأمر بنقل السجينة إلى سجن آخر، أو نقل الطبيب

ولكن الذى حدث كان أغرب من الخيـال. عندما جلس (الدكتور) أمام هيئة التحقيـق، انهار بشكل كامل. نفى عـلاقته بـا لمسجونـة وابنتها صحيح أنه زار بيت أمها فى بنـى سويف، ولكن تحت إلحاح السجينة، ولكى يقوم بتوصيل رسالـة إلى أولادها، ولكنه لم يمس شعرة فى رأس البنت، ولم يـراود السجينة عن نفسهـا، ولكنه فى نفس الـوقت اعترف بأنـه ليس دكتـورا ولا يحمل سـوى شهادة متـوسطـة، وأنـه التحق بالعمـل نتيجة أوراق مزورة. تم القبـض على (الدكتور) وحـل ضيفا على سجن الاستئناف، وفى المحكمـة استمع إلى الحكم ضده بـالسجن لمدة عشر سنوات، وبعد الحكم تم ترحيلـه إلى سجن القناطر. يالها من حفلة صاخبة استقبل بها المساجين (الدكتـور) وياله من منظر عندما جاء دور الدكتـور ميشيل للكشف على النزيل الجديد، قفـا (الدكتور) صافـح جميع أصابع العسـاكر والضبـاط والنزلاء، وصـار ملطشة للكل. وصار اسمه (الدكتور) عنـد الإدارة وبين النزلاء! وعندما التقيت به أول مرة كـان قد مضى على سجنه عدة سنوات. كـان قد تعود على الذل والإهـانة وتلقى الضرب من الجميع. وعندما سألتـه عن شعوره وهو مسجون فى ذات السجن الذى شهـد أيام مجده السابقة. ازدادت دهشتي عندما اكتشفـت أنه ليس نادما وليس حزينـا فى نفس الوقت، فكل شىء قسمـة ونصيب، وما هـو مكتوب على الجبين لازم تشـوفه العين! ولكن الذى يغيظـه فعلا أنه يفهم فى الطب أضعاف أضعـاف ما يعرفه الدكتور ميشيل عن هذه المهنة.

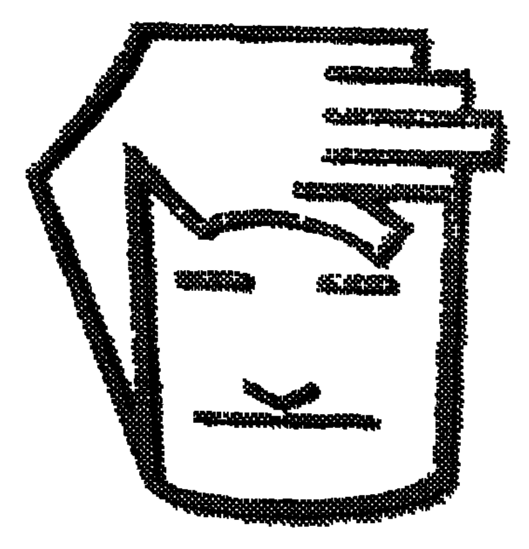
طيب اسـأل المساجين يا بيـه أنا أحسن واللا ميشيل غيرش ان دى بلد طبيخ.. صحيح بلد شهادات على رأى عادل إمام.

وسكت عدة لحظات ثم قال :

وانت فـاكر إيه ؟ أى حـد من المساجين دول حتى النشـالين ينفع دكتور فى السجن، هو الدكتـور بيعمل إيه؟ دا بيقعد على مكتبه الصبح

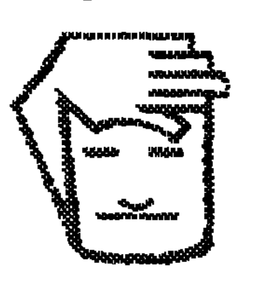
ويفتح الـدرج وهـو بيكشف ع المساجين، والمعلـوم يتحط فى الـدرج. الاجازة بثمن ، والزنزانة الانفرادى بثمن ، والتحويل على المستشفيات الحكـوميـة بثمن، واللى مـامعهـوش نهار أبـوه أزرق، هيـاكل ضرب مـاكلوش حـرامى فى مـولد. على الأقـل أنا كنت بـاكشف وأصرف دوا وأرحم الغلبان واهبر من بتوع الحشيش. ثـم ميشيل بقى ما يرحمش أمه، دا بقى عنده عزبة فى أسيوط من دم المساجين. طيب إيه رأيك بقى أنا طلبت اشتغل نوبتشى فى المستشفى، يعنى خـدام للدكتور ميشيل، ورفضوا ووضعـونى فى المجارى ليه؟ علشـان المعلم قطقط طلب كده من ميشيل. بينتقم منى، علشـان أنـا هريـت بدنـه فى الفترة الأخيرة، ماهـو شارى السجن كله يـابيه.. إدارة وحراسة ومسـاجين. تصدق باللـه ياسعـادة البيه، دى بلـد المعلم قطقط لكن تقول إيـه.. ربك مع المنكسرين !

ولكن .. بـالرغم من كل شىء بـالرغم من شماتـة النزلاء وانتقـام الحراس، وضيعـة الـدكتـور وراء الأسـوار، إلا أن الجميع كـانـوا فى لحظات صفوهم يتحسرون على أيـام الدكتور، الذى كـان مع الغلابة والمنكسرين، وخنجر مسموم مع تجار الحشيش !



٣ المعلم جمل

●● لفتت نظري في البداية الضجة الهائلة التي سبقت وصوله إلى سجن القناطر .. وهي الضجة التي تسبق وصول أو خروج أحد نجوم مجتمع السجون ولكن الضجة هذه المرة كان مبالغ فيها إلى حد كبير استمرت الاحتفالات بقرب وصول الضيف الجديد أسبوعاً كاملاً في المساء وبعد التمام وانصراف الإدارة : يأخذ المساجين في تحية الضيف القادم ، وخلع صفات الشهامة والكرم والجدعنة عليه . أسبوع كامل من الاحتفالات اشتركت فيه جميع الزنازين بدون استثناء . ماعدا زنازين السياسيين والموظفين الكبار المتهمين بالرشوة والاختلاس وفي الأحوال العادية يكون الاحتفال في الليلة السابقة لوصول الضيف ، وغالباً يشترك فيه عدد من الزنازين لايزيد على أصابع اليد الواحدة ولم تكن الأوصاف التي خلعوها عليه هي نفسها الأوصاف المستعملة في مثل هذه المناسبات ، ولكن النزلاء اختصوا الضيف الجديد بأوصاف جديدة . البرنس والملك وأبو كف نبي وحديد :: أبو وش أبيض زي اللبن الحليب والبطل اللي الخيبة بتي وهو لبنا ، المعلم حسن الهوارى اللي هيشرف السجن وينوره وشووش الحبايب ●●



● المعـلم جمـل ●

لم تكن هى المرة الأولى التى يتردد فيها على مسامعى اسم المعلم الجمل .. فقد سمعت عنه كثيرا أثناء المعركة الانتخابية التى دارت عام ١٩٦٨ بعد هزيمة يونيو الشهيرة وكان أحد الأصدقاء قد رشح نفسه فى الدائرة ، وكان دائم الحديث عن المعلم جمل الهوارى الذى يمتلك ويتحكم فى نصف أصوات الدائرة على الأقل. وزادت دهشتى عندما سمعت من صديقى المرشح ان المعلم جمل هو أكبر تاجر حشيش فى مصر ، ولكن ما علاقة الحشيش بالانتخابات خصوصا والسياسة عموما ؟.. واكتشفت فى ذلك الحين أنها علاقة وثيقة وحميمة أيضا . فهؤلاء الذين يعملون فى أنشطة غير مشروعة ، ويربحون الملايين فى صفقة واحدة ، يستخدمون جزءا لا بأس به من أرباحهم فى شراء حب الناس واحترامهم . وغالبا ما يكون هذا الحب من النوع الافلاطونى ، ولكنه حب عملى للغاية ، وصفقة تجارية أيضا من نوع اللى يراعينى قيراط أراعيه قيراطين ! كان المعلم الجمل من النوع الذى لاتعرف يساره ماذا أعطت يمينه . كان سخيا وبارا وكريما مع رعاياه ، بنفس القدر الذى يكون فيه قاسيا ومدمرا ورهيبا مع الذين يقفون فى طريقه . ولذلك كان من الصعب إلقاء القبض عليه فى منزله أو فى القهوة التى اتخذها محلا مختارا له فى الحى الذى يسكن فيه أو فى مخزن التجارة التى اتخذها ستارا لأعماله الواسعة فى عالم المخدرات . كان يدير مخزنا للفراشة ، سرادقات للمآتم وللأفراح ، وكان يبذلها بالمجان للأصدقاء

والأتباع ولأصحاب النفوذ أيضا .

ومع أنه كان يدفع ضرائب سنوية عن هذه التجارة بالذات لا تقل عن مائة ألف جنيه ، ولكى تكون هى سنده إذا سألوه يوما ما.. من أين لك هذا ؟ أما نسبة الخمسين فى المائة التى يسيطر عليها فى الدائرة الانتخابية فكان يستخدمها بذكاء وحذر . ولكن قبل أن يصبح المرشح نائبا عليه أن يفهم تماما أن المعلم جمل هو الذى شده إلى المجلس وعلى النائب الموقر أن يطبق الحكمة الشعبية الخالدة : من شدك تشده ولو بعد حين !! وبالطبع النائب الذى جاء إلى المجلس على أكتاف المعلم جمل ، لابد أن يرد الجميل ويقف مع المعلم جمل حتى النهاية . وبالرغم من كل ما سمعته عن المعلم جمل إلا أننى لم أتشرف برؤيته أو مصافحته أو الجلوس معه فقد كنت أتردد على المرشح صديقى فى مكان عمله بعيدا عن الدائرة ومشاكل المعركة الانتخابية ! ولذلك كنت شديد الشوق لرؤيته وهو قادم إلى سجن القناطر ، خصوصا وهو سينزل فى نفس الدور الذى أنزل فيه وفى الزنزانة المواجهة لزنزانتى .

ومع أن دور «٢» هو دور السياسيين كما يطلقون عليه ، إلا أننى اكتشفت أنها مجرد تسمية ولاتعنى شيئا . فقد كنا ١٧ سجينا سياسيا فى دور يضم ٦٠ زنزانة . وبالطبع نزل غير السياسيين فى الزنازين الأخرى ، غير أن النزول فيها كان يخضع لشروط فلابد أن يكون النزيل فيها من أصحاب الحظوة أو أصحاب النفوذ أو أصحاب الفلوس . كان هناك مدير بنك مختلس، ورئيس شركة نسيج كبرى هبر عدة مئات من الألوف وتاجر مخدرات معروف ، وتلميذ ابن ناس هارب من الجيش ومحكوم عليه بالسجن ثلاث سنوات ، وصاحب مصنع ملابس متهم بإحداث عاهة مستديمة لإحدى العاملات فى مصنعه وصديق فى الوقت نفسه للبيه مدير السجون . وخلال أسبوع

كامل كانت الاستعدادات تجرى على قدم وساق لاستقبال المعلم جمل . الزنـزانة أصبحـت تحفة ، الطلاء على الجدران بـالزيـت ، والأرضية فرشت بالقنالتكس والستائر وضعت على النـافذة الوحيدة ، والسرير جـاء من المستشفى والفـرش جـاء من بيـت المعلم ، وعنـدمـا سألت الضابط الدسوقى عن سر هذا الاهتمام الكبير قال على الفور :

– من حق المعلـم جمل ، أصل دا مش مسجــون دا معتقل ، يعنى أكل ملكى ولبس ملكى وكل شىء ملكى فى ملكى !

المعلم جمل لم يكن مسجـونـا ولكنه كـان مجرد معتقل ، احتـارت الحكومة فى أمره فاعتقلته لكى تتقى شره ، خصوصا والبلد كلها كانت تحشد قواها لمعركة العبور .

المهم .. جاءت اللحظـة الحاسمة واستعـد الجميع لاستقبال المعلم جمل ، حشد المأمور عددا من العساكر بكـامل ملابسهم الرسمية عند باب مكتبه ليظهـر العين الحمرة للمعلم جمل ، ومنعت الإدارة التجمهر فى الحوش ، حتى تترك الانطباع عنـد المعلم جمل بأن الأمور فى السـجن منضبطة وليست سبهللة . وأخيرا جاء المعلم جمل يـرتدى بدلة موهير وقميص حرير سلكـا ٥٥٠٠ وبالطو مطر بيربرى وحـذاء ساكسـون ومعه ٤ حقائب تحتوى على أدوية وأطعمــة وسجائر مستوردة . وبعد أن تم تفتيشـه فى حجرة المأمور ، وتجريـده من ساعته وخاتمه الماس ، اصطحبه وكيل السجن بنفســه إلى الزنزانة رقم ٢٠ فى الـدور الثانى . وعندمـا دخل الوكيل ومعــه المعلم جمل صاح الشـاويش الحلوانى فى صوت كالـرعد .. انتباه .. وسـاد الصمت العنبر كله ، وعنـدما صعدت المجموعـة سلالم السجن الحديدية ؛ حـدثت جلبة شديدة وضـوضاء ليس لها مثيل ، ثم تـرامى إلى أسماعنا صـدى صفعات وركـلات ، ثم هدأت الضجة واكتشفنا أن الموكب غـاد مرة أخرى إلى مكتب المأمور . ياللهـول على رأى يوسف وهبى ، مـا الذى حـدث للمعلم جمل ؟.. وما

الذى أعاده من جديد إلى مكتب المأمور ؟

ويافرحة ماتمت ، لم يقع بصرى على المعلم جمل يوم وصوله ، ولا بعد ذلك ولمدة ١٥ يوما بالتحديد . وأصل الحكاية أن نزيلا من دور ٤، دور الصياع والمتسولين ، هجم على المعلم جمل أثناء صعوده السلم ومعه نصلة حادة وحاول أن يغرزها فى بطنه ، إلا أن الحراس أمسكوا به وطرحوه أرضا وجردوه من النصلة واقتادوه إلى مكتب المأمور . وقال الولد أمام المأمور ان المعلم جمل كان السبب فى حبسه فى زنازين التأديب عندما كان يزامله فى سجن الاستئناف بعد أن اتهمه بسرقة بعض حاجياته من الزنزانة، وأنه لذلك كان يريد الانتقام من المعلم جمل . وبناء عليه طلب المعلم جمل من المأمور نقله من سجن القناطر إلى سجن الاستئناف لأن وجوده فى القناطر يعرضه للموت على يد بعض الحاقدين ولكن المأمور طمأنه وتعهد له بأنه سيكون فى الحفظ والصون . وأمر بإبعاده عن العنبر ووضعه فى زنزانة من زنزانات التأديب مع تزويدها بكل ما يحتاجه ، على أن يطبق عليها النظام العادى ، فتفتح أبوابها طول النهار ، ويسمح له بطابور شمس فى الصباح وطابور آخر بعد الظهر ، وبالتعامل مع الكانتين وكتابة الرسائل ، ويسمح له بالزيارات ومقابلة محاميه فى أى وقت يشاء . وبعد عشرة أيام من نزول المعلم جمل فى زنزانة التأديب ، جاء إلى السجن مفتش من المصلحة ، ومعه اتهام صريح من محامى المعلم جمل ، بأن المأمور يضطهده والدليل هو وضعه فى زنزانة تأديب دون أن يكون قد ارتكب عملا يستحق عليه هذا العقاب الشديد !! المسألة كلها كانت تمثيلية ومقلب دبره المعلم جمل للمأمور . ولم يكن الهدف إلحاق أى أذى بالمأمور ، ولكن الهدف الحقيقى كان العودة إلى سجن الاستئناف ، حيث به سبع فوائد . أولا وجوده فى قلب العاصمة وثانيا لأنه سجن مفتوح يتيح لمن كان فى وضع المعلم جمل الاتصال

بمن يشاء وقت أن يشاء ، والأهم من ذلك أن المعلم جمل استطاع خلال فترة وجوده فى سجن الاستئناف عدة شهور متواصلة تأسيس تنظيم من المسجونين يتبعه وينفذ أوامره ويدبر له الاتصال اليومى بأعوانه خارج السجن ، كما استطاع أن يرتب زيارات لنفسه بأسماء مساجين آخرين ، وأن يضع فى الأمانات مبالغ بأسماء مساجين ليس لهم أهل خارج الأسوار ، واستطاع بهذه المبالغ شراء السجن كله وإدارته كما يشتهى وليس كما يشتهى المأمور ولكن هدف المعلم جمل من الشكوى لم يتحقق . ولكنهم فقط نقلوه من زنزانة التأديب إلى الزنزانة رقم ٢٠ فى الدور المخصص للسياسيين .

وأخيرا أتيح للعبد لله رؤية المعلم جمل .. عندما فتح الشاويش عبدالقادر زنزانتى وقع بصرى على رجل فى الخمسين من عمره يجلس على كرسى أمام الزنزانة رقم ٢٠ . كان يبدو أصغر من سنه الحقيقى متوسط الطول متين البنيان يرتدى جلابية سكروتة حرير وينتعل «شبشب» سويسرى غالى الثمن ، وبين أصابعه جريدة «الأهرام» وعلى طاولة صغيرة أمامه فنجان قهوة تفوح رائحتها من بعيد . وكان يضع ساقا على ساق ويهز ساقه المرفوعة فى حركة رتيبة ، بينما تطل علبة سجائر مستوردة من جيبه العلوى ونظارة شمس إيطالى الصنع من أحدث إنتاج .

عندما ألقيت عليه تحية الصباح ، رد التحية بأحسن منها ، ثم نهض واقفا ومد يده لمصافحتى ، فخطوت عدة خطوات حتى اقتربت من حيث يجلس ، وصافحنى بحرارة ، وعزم على العبد لله بفنجان قهوة محوج :

– أنا أصلى أحب القهوة بس بشرط تكون من بيتنا ، قهوة السوق ماتعجبنيش .

واعتذرت له لأننى لم أتناول إفطارى بعد . فقال على الفور .

– خلاص .. افطر وتعال اشرب القهوة .

تناولت إفطارى وتلكأت بعض الوقت ، وفوجئت بالمعلم جمل على باب زنزانتى ، ونظراته تمسح الزنزانة وتتفحصها ، وقال فى لهجة ساخرة :

– هيه دى زنزانتك ؟.. مش عيب تبقى كده ؟!

– داكده رضا يا معلم .

صمت قليلا ثم قال :

– ناس ماعندهاش دم ، هو انتو حرامية أو نصابين ، دانتو من غير مؤاخذة سياسيين ، يعنى كنتم حكام فى يوم من الأيام ، ومين عارف .. على العموم الدنيا مابتدومش لحد !

خرجت معه من زنزانتى فاكتشفت أنه أعد مقعدا آخر إلى جواره وعندما ألقيت نظرة على زنزانته من الداخل ، أدركت سر احتقاره لزنزانتى ، كانت أشبه بحجرة فى فندق ثلاث نجوم ، لا ينقصها إلا جهاز تكييف وجهاز تليفزيون لتصبح فى مقام الخمسة نجوم . ووجدت فى الداخل سجينين عرفت من المعلم جمل أن أحدهما طباخ يعمل فى مطعم شهير قبل سجنه ، وأن تهمته هى الاتجار بالعملة الصعبة فى السوق السوداء . أما الآخر فهو بلطجى ومحكوم عليه بالمؤبد ، وتهمته القتل المقترن بالسرقة، ونادى المعلم جمل على الأخير وأمره بإعداد فنجان قهوة للأستاذ من البن «بتاعى» ثم التفت نحوى وقال :

– على فكرة أنا عارفك كويس ، وكنت باقرأ لك مقالاتك «ونطق القاف كافا» وعلى فكرة أنت ساعات بتتكلم فى الصميم وساعات لأ..

قلت للمعلم جمل :

– حسب الظروف يا معلم !

– مفيش حاجة اسمها ظروف ، لو عاوز تكتب فى الصميم على

طول يبقى لازم تسمع منى .. أنا مستعد أديك الخلاصة كلها وأنت تكتب ، صدقنى أنا كان بيجيلى ناس من الفطاحل تقعد عندى نسمعها كلمتين وتقوم من عندى وتدى .. وبقوا كبار قوى ومهمين قوى والفضل لمحسوبك .

ولما بدا على العبد لله عدم الاهتمام وربما عدم التصديق ، قال معلقا:

– مش مصدقنى .. طب تعرف الأستاذ محمد السنارى ؟

ولما أبديت له أسفى بعدم تشرفى بمعرفته ، قال :

– ازاى ؟.. دا كان محرر كبير قوى فى مجلة الاسبوع ، وكان بيحط صورته مع «المكال» .. وعلى فكرة .. كان معاه شنطة جلد كلها مقالات وكان بيكلم عبد الحليم حافظ وشادية والحكمدار من تليفون المكتب بتاعى .

– كان أكبر منى فى السن واللا أصغر ؟

– أبدا .. كان من دورك كده ، بس واد ابن حنت ، كان مايهابش حد كان يخش القسم من دول يهز المأمور واللى خلقك. وتعرف مين اللى كان بيجى كمان يأخذ الخلاصة منى ؟ الأستاذ المناويشى .. كان ماسك الاعلانات كلها فى مجلة النهار ، ولا فيش إعلان ينزل بدون أمره ، كان صحفى جامد قوى ، وياما نشر لى إعلانات فى المجلة . فى أعياد الثورة بالذات ، ياما دفعت فلوس فى الإعلانات .. وآدى أخرتها زى ماانت شايف ..

كانت فناجين القهوة «من البن بتاعه» قد أعدت وجاء بها النوبتشى فى فناجين أنيقة للغاية ، وشفط المعلم جمل شفطة طويلة بصوت مسموع ، ثم لكزنى وقال :

– اشرب ، أنا أصلى أحب اللى يحب القهوة ، أنا اشرب عشرين فنجان من القهوة دى ، وفى السجن أشرب أكثر !

وعندما أبديت استحساني بالبن قال وهو يغمز بعينه :

– أما يكون مزاجك رايق ابقى تعالى اشرب معايا قهوة وتشرب لك كمان نفسين حلوين ، معايا تعميرة مش موجودة فى مصر كلها .. نفسين اتنين منها أبرك من ميت نفس من غيرها .

وعندما أبديت له عدم تدخيني للحشيش ، قال باستهزاء :

– أنا مابحبش اللغة دى بقى من غير مؤاخذة .. كلهم بيقولوا كده وبعدين بيشربوا زى الحريقة .. وهوه الحشيش عيب ياأستاذ .. كل الوزراء بيحششوا من غير مؤاخذة ، والنائب بتاع الدايرة كان يشد النفس يحرق الحجر من غير مؤاخذة .. وسعيد بك جنيدى اللى هو فى الإدارة العامة بتاع الاتحاد الاشتراكى حشاش أرارى من غير مؤاخذة.. عارفه واللا لأ ؟

وعندما أبديت له أسفى لعدم معرفته ، قال :

– انت خايف من غير مؤاخذة ؟.. خد بقى الخلاصة منى أنا ، عاوز تمنع الحشيش من مصر ، خلى الجماعة الكبار دول يبطلوه.. ايه رأيك فى الخلاصة دى ؟

مرت أيام طويلة بعد ذلك والعلاقة بيننا تدور فى حدود معينة، حتى كان يوم أصابنى التهاب فى الشعب ، وكان لابد من مضاد حيوى قوى لوقف الالتهاب قبل أن يتحول إلى التهاب فى الرئة . ولما كانت صيدلية السجن.. ياامولايا كما خلقتنى ، سلفا وراوند وصبغة يود وحقن بنسلين تكفى حقنة واحدة منها للقضاء على المريض .. كان لابد من شراء الدواء من خارج السجن ، والدواء يحتاج إلى فلوس ، والفلوس محرمة على نزيل السجو . لابد من الاتصال بالبيت لشراء الدواء ، والاتصال ممنوع . ولكن المعلم جمل اقتحم زنزانتى وطلب الروشتة ، وبعد ساعات كان الدواء المطلوب فى يدى .. كيف جاء الدواء ؟ من الذى جاء به ؟.. لم أعرف حتى خرجت من السجن .. المهم

دعانى المعلم جمل إلى زنزانته لكى أنسى همومى وأتذوق صنفا جديدا من التعميرة ليس له مثيل فى بر مصر ، وألح المعلم جمل فقبلت دعوته تحت ضغط إلحاحه ، واكتشفت وجود اثنين من النزلاء فى الزنزانة ، عزمى بيه موظف كبير بالحكومة ، تهمته تقاضى الرشوة من خريجى الجامعة الراغبين فى التوظف فى دواوين الحكومة ، والمعلم طلبة تاجر حشيش من نجوم حى الباطنية يقضى فى السجن خمس سنوات . كانت النار مشتعلة فى الفحم على موقد أمامهم ، والجوزة يخرج منها عامود دخان ، وعلى مقربة منهم صحن كبير يضم كل الأنواع من فاكهة الموسم . وكان يقوم على خدمة الجميع اللص القاتل الذى كان يتولى حماية المعلم جمل ويحتفظ له بكل الممنوعات . وكان المعلم جمل كلما سحب نفسا من التعميرة الجديدة راح يثنى عليها ويعدد مزاياها وقال تأكيدا على جودة صنفها :

– تصدق يا أستاذ .. الكمية المضبوطة كلها من الصنف ده .. الحكومة باعتها لفرنسا .. أمال .. دا بنج مش حشيش .. فجأة والجوزة تدور والدخان ينعقد فى حلقات فوق رؤوسنا ، والبعض منا يضحك ، والبعض يثرثر ، اقتحم الزنزانة المواربة الصول طه . وتصورت أن هناك كبسة ، وأسفت على قبولى الدعوة ، وجمد الدم فى عروقى على المصير السيىء الذى سأنتهى إليه ، دخلت السجن فى قضية سياسية ، وها أنا ذا فى طريقى إلى دخول السجن من جديد فى قضية مخدرات . ولكن ما أشد دهشة العبد لله عندما نظر المعلم جمل إلى الصول طه نظرة زاجرة ونهر الصول طه بشدة وقال له فى صوت غاضب :

– ازاى تسمح لنفسك تخش علينا بالشكل ده ؟

فرد الصول فى تخاذل :

– مساء التماسى يا معلم ..

– مساء الزفت ..

– أنا كنت عاوز أدوق الصنف بس ..

– عيب الطفاسة دى .. والدناوة بتاعتك لازم تبطلها .. انت خدت حقك خلاص .. وبقولك ايه .. بلاش الرزالة بتاعتك دى .. أنا بقولك أهه .. وانت عارفنى كويس أنا لحمى مر وما أحبش العيب..

ياسلام .. المعلم جمل هو الآخر لا يحب العيب ، انه على درب السادات لا يحب العيب ، وبالتأكيد هو الآخر متمسك بأخلاق القرية . والعيب فقط فى دخول الصول طه الزنزانة ونحن نشفط أنفاسا معطرة ، أما وجود الحشيش والأصدقاء فى الزنزانة فهو أمر لا يمت للعيب بسبب . بعد انصراف الصول طه لم أجد فى نفسى القدرة على الاستمرار فى القعدة ، فاستأذنت وتركتهم . وحاولت بشتى الطرق فك الاشتباك بينى وبين المعلم جمل ، فقد أدركت أن الاقتراب منه خطر ، والابتعاد عنه خطر أيضا . ولذلك حرصت على الاحتفاظ بينى وبينه بشعرة معاوية . كنت أجلس على مقعد أمام زنزانتى وكان يجلس أمامى على مقعده أمام زنزانته ، وكنت أستخدم حيلا كثيرة لكى أبقى فى مكانى . وكان إذا لمح مظاهر قلق على العبد لله قال لى محاولا تهدئتى :

– انت مش عاجبنى اليومين دول .. وبعدين عاوز أقولك حاجة .. انت مايهمكش وارمى حمولك على جناب الله .. وانت هاتخرج من السجن قريب .. الحكومة الموجودة دى هايفة قوى ومش هاتعمر .. وأنا وانت أهه .. وبكره تقول الجمل قال ..

– مش قلتلك .. علشان تعرف ان أنا عندى معلومات .. أنا مش تاجر مخدرات زى مابيقولوا .. دى «فريم» من غير مؤاخذة.. أنا راجل صاحب أملاك .. من الأعيان .. وبينى وبين الحكومة دى ضغائن .. وبكرة تشوف مين اللى هايكسب فى الآخر ..

كان المعلم جمل يقصد فرية ، ولكنه نطقها «فريم» ولم يلاحظ المعلم جمل خلال محاولاته التى استمرت طويلا لاستخدام الفصحى فى حديثه ان المستمعين من المتعلمين يتغامزون ويضحكون ، فقد كان حرصه على نطق الفصحى أقوى من كل شىء .. ذات صباح قال للعبد

الله ونحن جلوس فى مواجهة بعضنا:

– الحاكم العسكرى يا سيدى رفض طلبى للإفراج عنى .. ولما قلت له معلهش بكرة ربنا يفك سجنك ، رد على العبد الله :

– ومين قالك إن أنا زعلان .. دى معركة كبيرة يا أستاذ بينى وبين الحاكم العسكرى .. وبكره تشوف أنا واللا هو .. أنا ياأستاذ قاسيت مقاسى ..

ولما لاح شبح ابتسامة على شفتى العبد الله ، قال المعلم جمل :

– انت بتضحك من غير مؤاخذة مش مصدقنى .. انت حاربت الحكومة من غير مؤاخذة مرة واللا اتنين واللا ثلاثة .. بتحارب شوية وترتاح شوية .. لكن أنا من غير مؤاخذة بحارب على طول .. ولو ماكنتش متأكد ان أنا اللى هاغلب فى الآخر .. كنت بطلت حرب وارتحت.. وإن شاء واحد أحد أنا خارج الأسبوع ده من هنا على البيت .. مش الحاكم العسكرى رفض .. أنا هاوريك بقى هاعمل ايه.. وبكره تشوف ..

كان المعلم جمل يحارب على جبهتين .. لم يكن السجن مشكلة بالنسبة له ، كان الجميع يخدمونه بلا استثناء ، الإدارة والمساجين والحراس ، ولكن كان هدفه الأساسى الخروج من السجن إلى عالم الحرية ، أو على الأقل نقله من سجن القناطر إلى سجن الاستئناف ، وذات صباح وجدت الدكتور إميل يقتحم علىّ زنزانتى ويقول للعبد الله أن يحل المشكلة التى نشأت بينه وبين المعلم جمل .

كانت المشكلة ببساطة أن المعلم جمل طلب من الدكتور إميل كتابة روشتة ليصرفها من الاجزاخانة بأدوية لعلاج الذبحة الصدرية والتهاب أغشية المخ ولم يفكر الدكتور إميل طويلا ، كتب الروشتة وتقاضى عشرة جنيهات رشوة من المعلم جمل ، وبعد يومين من كتابة الروشتة ، وصل خطاب من مصلحة السجون يطلب توقيع الكشف الطبى على المعتقل المعلم جمل لتقرير حالته الصحية وعما إذا كان مصابا بذبحة صدرية والتهاب فى غشاء المخ من عدمه ، وأسقط فى يد

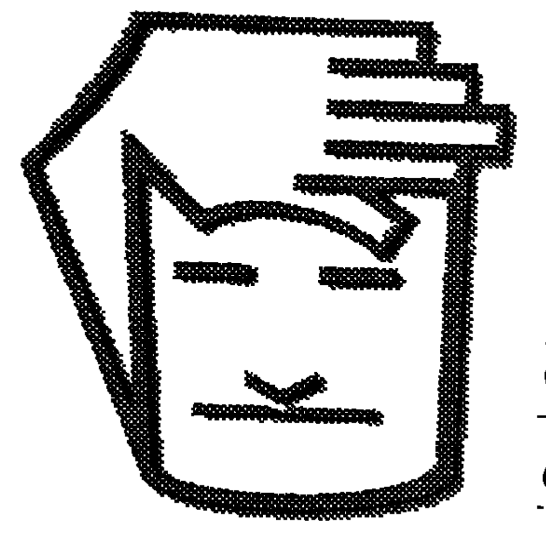
الدكتــور إميل ، وأدرك أنه كان ضـحيــة مقلب من مقالب المعلم جمل ، فـهو إذا رفض كتابــة هذا التقرير وإثبات مرضـــه بهذه الأمراض ، قدم المعلم جمل روشتة الدكتور إلى مصلحـــة السجون ، وسيتـهم الدكتور بأنـــه تقاضـى رشـــوة لكتـــابة الـــروشتـــة ، وإذا أثبت هذه الأمــراض فى تقرير طبى رسمى للمصلحة ، يكــون قد خسر صفقة ثمنها ألف جنيه على الأقل وليست عشرة جنيهات ، وهو المبلغ الــذى دفعه جمل مقابل الروشتة إياها ، ورجانى بـذلة أن أتوسط له عند المعلم جمل لكى يرد له الـــروشتة ، أو يـــدفع له خمسمائة جنيه على الأقل لكتـــابة التقـــرير المطلوب وعندما فاتحت المعلم جمل فى الأمر ، قال بهدوء شديد :

— هايكتب التقرير وهاضربه بالجزمة .

وبالرغم من أن الدكتور هبط با لمبلغ المطلوب إلى مائتى جنيه ثم إلى مائة جنيه ، إلا أن المعلم جمل أصر على موقفه ، ثم وافق فى النهاية على أن يمنحه عشرة جنيهات أخـــرى ، وأعجب شــىء أن الدكتور وافق على عرض المعلم جمل فى النهـــاية وكتب التقريـــر وقبض العشرة جنيهات ، وبعد أسبــوع صعد ضـــابط العنبر إلى دور «٢» وطلب من المعلم جمل أن يجمع حاجيـــاته ، فقد صدر قـــرار بالإفراج الصحى عنـــه لخطورة حالتـــه الصحية ، ورمقنى المعلم جمل بنظـــرة ذات مغزى ، وأخـــذ معه بعض حـــاجياتـــه ووزع مـــاتبقى منها على المســـاجين ، وعنـــدما جـــاء لتوديعى ، همس فى أذنى :

— ماتفتكـــرش التقرير بتـــاع الدكتور هـــو اللى طلعنى .. أنا دفعت فلوس تملأ الزنزانة دى .. بس التقـــرير ده كان ضرورى علشان ربك بيسبب الأسباب .. وقال وهو يهم بنزول السلم :

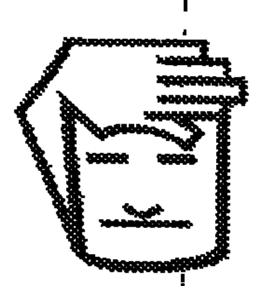
— اللى قلتلك عليه هو اللى هايحصل ... أنت هاتخرج قبل معادك .. الحكومة دى هايفة ومش هاتعمر وبكرة تشوف !!



٤

سر وفاة الحلوانى

●● هو فى الأصل فلاح اشتغل فترة فى الأرض بقريته على شاطىء الرياح المنوفى قبل أن يستدعوه إلى الخدمة العسكرية، وبالرغم من إصابته بعرج خفيف فى قدمه اليسرى، إلا أنهم جندوه، فقد كانت الحرب العالمية على أشدها، والمعارك مشتعلة فى صحراء مصر الغربية وأخذوه فى الجيش المرابط وأصبح حارسا لمخبأ بالقرب من محطة السكة الحديد بالجيزة. وارتدى حسن الحلوانى زى الجيش المرابط فصار أشبه بمهرج فى سيرك الحلو، طاقية واسعة وبنطلون قصير وقميص نص كم وصندل مفدوغ ومفشوخ ورباطه مفكوك وجورب يظهر من ساقه أكثر مما يخفى. ولكن الحياة فى الجيزة تختلف تمام الاختلاف عن الحياة فى قريته (الخضرة) على مرمى حجر من القناطر الخيرية. كان [illegible] - بالرغم من فقره وهزاله - ذكيا ولماحا، وسرعان ما عقد أواصر الصداقة بينه وبين عبده المكوجى والمعلم صابر صاحب مطعم الفول والحاج حسين المخدماتى، كان إشرافه على المخبأ روتينيا.. فلم تكن هناك غارات مدمرة، حتى القلة القليلة التى كانت تلجأ إلى المخبأ لحظة انطلاق صفارة الإنذار، كفت عن الحضور إلى المخبأ بعد أن تبين لهم أن الصفارة تنطلق ويسود الظلام بعض الوقت ثم تنطلق صفارة الأمان دون أن تسقط قنبلة أو تنطلق المدافع ●●



واستغل الحلوانى وقت فراغه الطويل فتعلم فى دكان عبده المكوجى صنعة كى الملابس. وكان يساعد عبده بدون أجر، ولكنه كان ينعم معه بوجبة إفطار شهية.. فول وطعمية وسلطة طحينة، ثم كوب شاى ثقيل وسيجارة.. وفى فترة بعد الظهر كان يتولى إدارة مكتب عم حسين المخدماتى. فيقابل الزبون ويسجل فى الدفتر طلباته. وكان يقرأ ويكتب طشاش، حيث إنه التحق فترة فى صباه بكتاب الشيخ (ازدحمد) واستطاع أن يفك الخط وكان يكتب الكلمات بحروف أشبه بحروف فرعونية. وبعد فترة استطاع الحلوانى أن يوفر لنفسه دخلا لا بأس به، بعد أن جعل من المخبأ فندقا للشيالين الذين كانوا يلقطون رزقهم فى محطة السكة الحديد. ولكن بعد فترة من الوقت لم يعد المخبأ وقفا على إيواء الشيالين، ولكنه تحول إلى مخزن لإخفاء المسروقات من معسكرات الجيش البريطانى. فرد كاوتش وصفايح بنزين وصناديق شاى وزجاجات ويسكى وبطاريات جافة، حتى تحول مخبأ الحلوانى إلى مستودع رئيسى لتجارة السوق السوداء، وكان الحلوانى سعيدا بالقروش القليلة التى يحصل عليها من رجال العصابات، ثم راح يطالب بنصيبه بعد أن أفهمه عبده المكوجى بأن البضاعة التى يضمها المخبأ تقدر بعشرات الألوف من الجنيهات وبالرغم من أنهم رفعوا نصيبه إلا أن الحلوانى لم يقنع بما يحصل عليه، فقرر أن يحصل على حقه (ناشف) باستيلائه على جزء من محتويات المخبأ وبيعه لحسابه

فى السوق. وزاد وزن الحلوانى وزال عنه القشف وارتدى الجلاليب السكروتة والأحذية الكاوتش والطواقي الحلوة، وعرف طريق السهر فى القهاوى، واشترك فى لعب الكوتشينة على المشاريب. وشعر حسن الحلوانى بالاستقرار، وأن الحياة قد ابتسمت له أخيرا وأنه سيقضى حياته يتقلب فى بلهنية العيش. ولكن آه من الحياة.. طبعها الغدر وأبرز صفاتها التقلب. اكتشف رجال العصابات أن الحلوانى حرامى وغشاش، وأنه يقتبس من المخزون نسبة لحسابه، فضربوه علقة ومزقوا له جلبابه ومنعوه من دخول المخبأ وجن جنون الحلوانى.. فالمخبأ مخبأ الحكومة، وهو مندوب الحكومة لحراسة المخبأ. ومع ذلك فهو ممنوع من دخوله، بينما مندوب العصابة هو الذى يتحكم فى المخبأ وفى محتوياته. خسر الحلوانى كل شىء حتى القروش القليلة التى كانوا يعطونها له فى البداية. وفكر الحلوانى فى طريقة للانتقام. ولكن كيف؟ هو يعمل فى الحكومة.. فلماذا لا يذهب إلى الحكومة؟ وهى بالتأكيد ستنصفه!

وخطف الحلوانى رجله إلى مركز الجيزة وأبلغ مخبرا فى المباحث ووعده المخبر خيرا. ولكن العصابة علمت بالخبر بعد يوم واحد، وبالتأكيد من المخبر نفسه. وأكل الحلوانى علقة أخرى أشد قسوة من العلقة الأولى. وقبل أن يفكر فى طريقة أخرى للانتقام. جاءت العصابة ذات مساء وأثناء وجود الحلوانى فى مكان بعيد عن المخبأ ونقلت كل البضائع إلى مكان آخر، عاد المخبأ مجرد لوكاندة لبعض الشيالين، وعاد الفقر للحلوانى مرة أخرى، وعاد هو نفسه إلى محل عبده المكوجى يطفح الدم أغلب النهار فى كى الملابس لكى يحصل على وجبة مناسبة. ولكن الشىء الذى تغير بشدة هو موقف عم حسين المخدماتى من الحلوانى. أصبح إذا قابله لا يلقى عليه السلام، وإذا شاهده متجها إلى دكانه أدار له ظهره. لابد أن عم حسين العجوز

يخشى بطش العصابة ولذلك قرر قطع علاقته بالحلوانى، هكذا فسر الحلوانى الانقلاب فى موقف عم حسين. وتأكدت شكوكه عندما أغلق عم حسين دكانه وأصبح يختفى عن الأنظار بالأيام والأسابيع ولكن الولد عبده المكوجى الناصح الحويط فسر له الأمر بما جعل الدم يغلى فى عروقه. لقد أجر عم حسين الدكان للعصابة فصار مخزنا لهم بعد اكتشاف خيانة الحلوانى. هل هذا معقول؟! عم حسين العجوز الطيب يحول دكانه إلى مخزن للعصابة لم يصدق الحلوانى فى بادىء الأمر. ولكنه تأكد من الحقيقة عندما رأى كل شىء بعينيه. ذات ليلة والظلام حالك والبرد قارص، شاهد الحلوانى عم حسين يفتح أبواب الدكان، ثم جاءت سيارة نقل وبها بضائع سرعان ما اختفت داخل الدكان. هى نفسها البضاعة التى كان يضيق بها المخبأ، صفائح بنزين وصناديق شاى وخراطيش سجاير وفرد كاوتش. ولم ينم الحلوانى حتى طلع الصباح، فخطف رجله إلى المركز وأصر على مقابلة المأمور وأفضى له بسر العصابة ودكان عم حسين الذى تحول إلى مخزن للمسروقات. وفى مساء نفس اليوم الذى أبلغ فيه الحلوانى البيه المأمور، هجمت قوة من البوليس علي دكان عم حسين وكسروه ونقلوا كل محتويات الدكان، حتى الكراسى والمكتب القديم الذى كان يحتفظ به عم حسين من أيام العز القديمة. أما عم حسين فلم يظهر له أثر بعد ذلك، وقيل إنه لجأ إلى قريته دير الجنادلة فى حضن الجبل الغربى بأسيوط. أما أفراد العصابة فقد اختفوا وكأنهم فص ملح وداب. انتقم الحلوانى لنفسه من الجميع، وعاش حياته فى هدوء، يكوى الملابس فى دكان عبده طول النهار ويجلس على قهوة المعلم أمين طول الليل. ويدخل المخبأ فجرا لينام ساعات قليلة بالقرب من باب المخبأ، لكى يبقى بعيدا عن رائحة الشيالين التى تشبه رائحة الخنازير. ولكن الحلوانى لم ينعم بهذه الحياة إلا أسبوعين. وذات صباح استيقظ

الشيالون وهموا بمغادرة المخبأ، ولكنهم فوجئوا بالحلوانى ممددا على الأرض والدماء تنزف منه بغزارة، وقد ذبحه مجهول من رقبته كالخروف. وجاءت الإسعاف وحملت الحلوانى إلى المستشفى، وتأكد للسلطات أن الجناة هم أنفسهم أفراد العصابة التى قام الحلوانى بالإبلاغ عنها وعن مخزنها فى دكان عم حسين. ولكن أين هم أفراد العصابة؟ لا أحد يعلم.. ولذلك أغلق البوليس المحضر والفاعل مجهول !

وخرج الحلوانى من المستشفى بعد شهور طويلة، بعد أن فقد نصف وزنه، وأخطر من ذلك أنه فقد صوته، فأصبح مبحوحا ومتقطعا ومن الصعب على أى إنسان أن يفهم شيئا مما يقوله الحلوانى. وعاش الحلوانى مرعوبا من شبح العصابة، يتوقع القتل فى أى وقت، حتى انتهت الحرب فسرحوه من الجيش المرابط وعاد إلى (الخضرة) مرة أخرى.

ولكن القرية صارت غير القرية التى كان يعرفها، والشغل فى الحقول بعد الذى رآه فى المدينة أهون منه الموت على يد العصابة. وفكر الحلوانى فى طريقة للخروج من هذا المأزق، وسرعان ما عثر على الحل ونفذه على الفور. خطف الحلوانى رجله إلى مصر وذهب لمقابلة البيه المأمور الذى صار مديرا للأمن العام. وكان الرجل قد أبدى عطفه الشديد على الحلوانى بسبب محاولة القتل التى تعرض لها بعد إبلاغه البوليس. وتوسط له الباشا المدير عند الباشا مدير السجون، فعينه حارسا بسجن القناطر. ولم يكن سجن القناطر سجنا كما هو الآن. ولكن كان إصلاحية للرجال. والإصلاحيات فى ذلك الزمان كانت هى الجحيم بعينه. يحشرون فى الإصلاحية أعتى المجرمين وأخطرهم، الذين فشلت الليمانات فى تقويم سلوكهم.. وخصوصا هؤلاء الذين ارتكبوا جرائم جسيمة داخل السجون. ولم يكن لنزيل الإصلاحية

وقت محدد للإفراج عنه، ولكنهم كانوا يمنحون النزيل الذى يسلك سلوكا حسنا شريطا يعلق على ذراعه كعساكر البوليس. فإذا بلغ عدد الأشرطة خمسة، عرضوا أمره على لجنة كانت تنعقد مرة كل عام للنظر فى أمر هؤلاء المساجين. وكان يرأس اللجنة حيدر باشا نفسه. وكان من حق الباشا أن يأمر الحراس بفتح الباب والإفراج عن المسجون الذى يرى سعادته أنه يستحق الإفراج، أو ينزع الشرائط المعلقة على ذراعه ليعود المسجون إلى الدوامة المهلكة من جديد. وعندما وقع بصر العبد لله على الشاوش الحلوانى كان قد مضى عليه فى سجن القناطر حوالى ثلاثين عاما، وقد أمضى الفترة كلها داخل منطقة القناطر، بالنهار داخل أسوار السجن وبالليل فى مسكنه بعزبة السجانة. وهى ليست عزبة ولكنها مجموعة من العشش على مرمى حجر من السجن وداخل حدوده. وهى فكرة من ابتكار سلطات الاحتلال الانجليزى، وهدفها فصل حارس السجن عن المجتمع المدنى فصلا تاما. فلايكون له صداقات أو علاقات من أى نوع من المدنيين، وهو وضع كفيل بتحويل الحارس إلى وحش بلا قلب أو أحاسيس من أى نوع. وكان إلمام الشاويش الحلوانى بالقراءة والكتابة هو الطريق إلى ترقيته حتى صار شاويشا. وكان بالإضافة إلى العشة التى يسكنها مع أسرته يتقاضى ١٧ جنيها فى الشهر، وكان يسلمها كل شهر لزوجته لإنفاقها على الأسرة المكونة من ٧ أبناء غير الأم والشاويش الحلوانى نفسه، والغريب أن الشاويش الحلوانى كان على عكس أبناء مهنته لا يقبل الرشوة ولكنه كان يقبل بعض أصناف الطعام (الملكى) من النزلاء فى إفطاره أو غدائه. وكان من عادته بعد فتح الزنازين والتمام على النزلاء. أن يرسل المسجون النوبتشى إلى المخبز لكى يحضر له رصة عيش من النوع الفاخر الذى يبيعه شاويش الفرن للنزلاء الأثرياء !

وكـان يقبل كل ما يقـدم إليـه من الأطعمة، ويـرصـهـا بعنايـة على (الباشتختة) ملوخية بـايتة على بيض مسلوق على طعمية على طرشى على سلطة قوطة على مربى على عسـل اسود على ورك فرخة. وكان إذا بدأ إفطاره فى الساعة الثامنة صبـاحا، فهو لا ينتهى منه إلا فى الساعة التاسعة، وخـلال الساعة كان الشاويش الحلـوانى يأكل الرغيف على دفعتين، يطوى نصـف الرغيف بأصـابعه، ثم يحشوه بكـل الأصناف التى أمامه، ثم يلقى به فى فمه، فينتفخ شدقـه كأنه عازف ناى فى فرقة أبـو دراع. وكان من عادته لحظة دخوله العنبر فى الصباح الباكر تعليق زمزميـة المية على حديـد شباك الوسـط، وهو شباك عـريض ومرتفع ومطل على الجهة البحرية وفى مـواجهة ملقف هواء بارد حتى فى فصل الصيف. وكان إذا بـدأ الشاويش الحلوانى إفطـاره نزع الزمـزمية من مكانها على الشبـاك ووضعها أمـامه على البـاشتختة. وكـان إذا زلط اللقمة أسرع إلى الـزمزمية وعب منهـا عبا ثم يتجشأ بصـوت مسموع ويحمـد الله قبل أن يستـأنف التهام الطعـام. فإذا انتهى من إفطـاره طلب كوب شاى مضبوط من أحـد النزلاء المبسوطين، فإذا جاء الشاى قبل شاكـرا سيجارة ليحبس بها من أول نزيل يقدمهـا له. فإذا انتهى من الشاى والسيجـارة جلس هادئا يلقى نظرات متفـرسة يمسح بها الدور المكلف به. ولكنه كـان بين الحين والحين يطلق من أسفله قنابل من ذوات المسموع وأحيـانا من ذوات المشموم. وذات مـرة اقترب منه مدير بنك كـان متهما بالاختلاس فسقط مغشيا عليـه، فقد كان الجو المحيط بالشاويش الحلوانى أشبـه برائحة دورة مياه لم يجر تنظيفها منـذ سنـوات. ولكن العجيب أن الحلـوانـى كـان لايقبل أى شىء من النـزلاء غير الشـاى والسيجـارة التى يحبس بها بعـد الـوجبة. وكـان حريصا على التفتيش على عهدة السجن من البطاطين والأوانى.. كأنها عهدة أبيـه. وكان يحب النظـام وحريص على تطبيـق اللائحـة. وكان شديـد الغم لأن السجون تخلت عن مبـادئها الأصيلـة وانهار النظام

فيها إلى حد الفوضى :

ـ تصدق باللى خلقك.. مصر كلها خابت بعد الخيبة اللى حطت على السجون !

ـ ليه يا عم حلوانى ؟

ـ وهيه دى بقت سجون .. السجون كانت زمان يا بنى . كنا نقتل المسجون وندفنه فى الحوش اللى قدامك ده.. ولا سين ولا جيم النهاردة متعرفش تشخط فى مسجون ؟!

وأشار عم الشاويش الحلوانى على مسجون يتأهب للخروج من العنبر، كان يرتدى بدلة سجن بيضاء مكوية بعناية، وتطل من جيب الجاكتة علبة سجائر مستوردة، ويدس قدميه فى حذاء رياضى ماركة شهيرة.. وقال :

ـ بذمتك ده مسجون ؟ دا بيه، دا عايش أحسن م المأمور. تصدق باللى خلقك، زمان كان المسجون إذا ضبطوه واكل بصل نهار أبوه أزرق، إذا شموا ريحته سجاير هيندم على اليوم اللى امه ولدته فيه. كانت الجزم ممنوعة والملابس الداخلية ممنوعة، وإذا المسجون احتاج حاجة من الشاويش لازم يقوله.. يافندى. وإذا المسجون راح مكتب المأمور، وأول ما يدخل من الباب لازم يركع على ركبه لحد المقابلة ما تنتهى. أمال. كان فيه نظام !

كان مهموما ويائسا من إصلاح الحال المايل. ولم تكن ثورته ضد النزلاء فقط ولكنها امتدت إلى الضباط أيضا، وكان يتناول فى حديثه ضابطا شابا يتمتع بشعبية واسعة بين النزلاء، وكان إذا تعرض له قال بسخرية شديدة :

ـ أصله مش ابن المصلحة، وأصله ضابط مرور، وهمه دول اللى خيبوا السجون، بيجيبوهم من المطافى ومن الأقسام ومن المباحث ودول ما ينفعوش. الضابط الكويس لازم يتأسس فى المصلحة من الأول. ولازم يعرف اللايحة ويفهم النظام. ودول مابقاش موجود

منهم حد دلوقت !

عندما كان الحلوانى غفير مخبأ فى الجيزة. كان إنسانا محبا للحياة. وبحبوحا للغاية. وبعد أن ضربته العصابة علقة الموت امتلأ مرارة وحقدا على الناس جميعا. ولكنه نسى الأمر بعد فترة وحمد الله بعد تعيينه فى السجن، وسلوكه الطيب كان نشازا وسط حراس الاصلاحية. ولكن حقده القديم كله تفجر فجأة عندما جاء إلى السجن ذات صباح نزيل جديد، كان هو نفسه عضو العصابة الذى استأجر المخبأ، وكان هو نفسه الذى أشرف على علقة الموت التى كادت تودى بحياة الحلوانى. ولم يستطع الحلوانى السيطرة على نفسه عندما ضبط النزيل إياه يدخن سيجارة فى دورة المياه، فضربه ضربة غيظ بالشومة على رأسه فسقط النزيل على الأرض، وباءت بالفشل كل محاولات عودته إلى وعيه، وبعد نقله إلى المستشفى اتضح أنه أصيب بكسر فى جمجمته وأنه فارق الحياة. وصرح الطبيب بدفن النزيل فى مقابر الصدقة، وحكموا على الحلوانى بالحبس خلف أبواب السجن تمهيدا لمحاكمته، وتأكد الحلوانى أنه ضاع، وتمنى لو كان عاد إلى زراعة الأرض فى قريته الخضرة. ولكن حظه المهبب قاده إلى السجن، وقاده السجن إلى ضياعه فى آخر العمر. ولكن أشد ما كانت دهشة الحلوانى عندما حكموا عليه بالبراءة، لأنه كان فى حالة دفاع عن النفس. فالنزيل مجرم معتاد إجرام، وفشلت جميع السجون فى إصلاحه، وشهد زملاؤه بأن المسجون اعتدى عليه بآلة حادة. ولولا أن الحلوانى تفادى الضربة لانتهى به الحال إلى قرافة الإمام !

ـ كان فيه رجالة حلوة زمان : كل السجانة وقفوا معايا، والباشا المأمور نفسه شهد فى صالحى. تصدق باللى خلقك، لو حصلت الحادثة دى دلوقت.. كل السجانة اللى انت شايفهم دول هيشهدوا ضدى، ولو اتحكم على بالسجن وجيت هنا أقضى المدة، هيضطهدنى

السجانة قبل المساجين. مش بقولك الدنيا خابت يا سيد !

كان مثله الأعلى فى الحياة هو حيدر باشا. كان مدير سجون بحق وحقيق. كانت له هيبة وكانت أوامره ملزمة للجميع .

ـ تصدق باللى خلقك. الباشا حضر مرة مجلس الإفراج، وكان فيه مجرم رهيب كسروه لحد ما بقى مش قادر يقف على رجليه. نادى عليه الباشا.. وقاله انت معلق خمس شرايط يعنى ماشى كويس، رد المجرم وقال.. أنا خدام جزمتك ياباشا. سأله الباشا عاوز تخرج ياواد. رد المجرم وقال.. اللى تؤمر بيه يا باشا. قال له طيب ازحف على رجليك وايديك وتعالى لحد عندى هنا وبوس جزمتى. تصدق باللى خلقك، زحف الواد المجرم زى الكلب على إيديه ورجليه لحد ماجه عند الباشا وطبع ميت بوسة على جزمته. شاور الباشا للسجانة الواقفين وقال لهم.. افتحوا الباب وخرجوه!! مش بقولك الخير كان كتير زمان، وكان كل شىء مطرحه، الباشا باشا والمسجون مسجون والشاويش شاويش. فين دا كله النهاردة؟ تصدق باللى خلقك.. أنا بادعى ربنا ياخدنى النهاردة قبل بكرة عشان ما شوفش المناظر اللى بشوفها قدامى. امبارح مسجون جايله طشت لحمة راس وكوارع وفتة وطرشى بلدى.. ليه؟ هوه قاعد فين؟ فى الهنتور (الهيلتون) مش بقولك ربنا هيسخطنا إن شاء الله ويعملنا قرود !

كان من رأى الشاويش الحلوانى أن سر خراب الأرض أن السجون لم تعد تردع أحدا من المجرمين. تحولت السجون إلى فنادق ومستشفيات. تكلم المسجون يبوأ فيك. والضرب ممنوع والنيابة حاضرة وكل يوم تحضر للتفتيش على السجون. إيه رأيك إن أنا امتحنت باكشويش ونجحت وما علقتش الرتبة لحد دلوقت. عارف ليه؟ لأن واد مسجون كان عامل صداع للسجن كله مسكوه فى يوم وحطوه فى التأديب. كنت نوبتشى يوميها وعمل لى مشكلة. حبيت

أأدبه حطيت له ميه فى الزنزانة. قال إيه جاله التهاب رئوى ومات. طب وانا مالى، عمره كده، واللى جه أجله بيروح. إزاى بقى أقول كده للنيابة، ادونى جزا وحبسونى ١٠ أيام ورا البوابة ووقفوا ترقيتى لحد الوقت.. بذمتك ده عدل. بقولك البلد دى تستاهل الحرق، غيرش المشايخ حارسينها .

كان حلم الحلوانى الدائم ترك الخدمة والعودة إلى قريته. يشترى قطعة أرض ويزرعها بنفسه، ولكن من أين له المال الذى يشترى به فدان أرض فى الخضرة .

ـ تصدق باللى خلقك.. دا الحيطان اللى ساترانا، انت عارف أنا عايش ازاى. البيه المأمور ربنا يخليه سمح لى آخد أكل من مطبخ السجن للعيال. والأكادة أن المساجين بيقرفوا من أكل السجن . والمساجين المجرمين بيقرفوا منه وأنا وعيالى بناكل منه.. حد يصدق دى؟ كان واضحا أن الشاويش سيقتله غيظه من الحال السيىء الذى تدحرجت إليه السجون فى السنوات الأخيرة. وكان يقضى أغلب وقته يقرأ فى لائحة السجن التى أهملوا شأنها فلم يعد يطبق منها شىء. المساجين سارحون طول النهار خارج الزنازين، ويحتاج الشاويش إلى ساعة كاملة لكى يجمعهم ساعة التمام. مع أن اللائحة تنص على فتح الزنازين الخالية للتهوية وإغلاق الزنازين التى تضم مساجين .

ـ أمال الإجرام زاد ليه فى البلد؟ لأن المجرم بييجى يقعد كام شهر فى اللوكاندة ويطلع يشرح فى الناس تانى. طيب اكسر ضهر المسجون كده وسيبه يطلع بره وشوف هيمشى كويس واللا لأ؟

ذات صباح تحول الشاويش الحلوانى إلى نمر هائج. السبب أن وكيله فى حراسة العنبر ضبط أحد نزلاء دور ٤ يقبض بين أصابعه على نصلة حادة. ولما حاول انتزاعها من بين أصابعه طعنه بها فأحدث جرحا عميقا فى ذراعه. وجمع الشاويش الحلوانى كل حراس العنبر

وهجموا هجمة عنترية على دور ٤ وضربوا كل نزلائه علقة ساخنة سالت فيها الدماء وتقطعت فيها الأنفاس. وعندما جاء الشاويش الحلوانى بعد انتهاء المعركة كان التعب قد نال منه .

وراح يلتقط أنفاسه بصعوبة . وقلت للشاويش الحلوانى :

— كان لازمته إيه ضرب كل الناس اللى فى دور ٤ ، كويس اللى حصلك ده ؟

— أمال كنت عاوزنى أعمل إيه ؟

— كان كفاية تضرب الواد اللى معاه النصل وخلاص .

— بقى دا كلام ده .. أنا لما يقرصنى دبور ، أروح أموت الدبور اللى قرصنى ، وألّا أهد العش كله ؟

— لكن دول ناس يا شاويش حلوانى مش دبابير .

— تصدق باللى خلقك ، دول أوسخ من العقارب والتعابين .. تعرف أنا نفسى فى إيه ؟ يعملوا سجن فى الجبل ويعملونى شاويش ع السجن كله . ويرحلوا جميع المساجين على هناك ، إذا خليت حد منهم يشوف الأسفلت تانى أبقى تف علىّ ، خلى البلد تفوق وتشم نفسها تانى ، لكن مين يسمع ومين يقرأ ؟

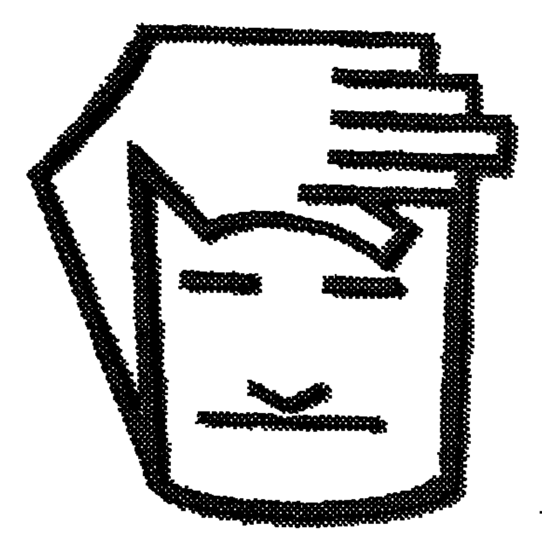
بعد أسابيع جاء العيد ، وفى صبيحة أول أيامه جاء البيه المأمور ومعه الوكيل وبعض الضباط ، ودخل العنبر ، واهتزت جدران السجن من صرخة الشاويش .. انتباه ! وكان المأمور والهيئة كلها تمر على الزنازين ، وتصور الشاويش الحلوانى أن حدثا خطيرا قد وقع فى العنبر ولكنه فوجىء بالمأمور يصافح المساجين ويهنئهم بالعيد ويتمنى لهم عيدا سعيدا خارج الأسوار فى العام القادم .. ثم فوجىء بالمأمور يوزع علب الكحك على المساجين من باب الترفيه ، ولم يتحمل الشاويش الحلوانى الصدمة فانسحب من الموكب ووقف عند الباب ينفخ من شدة الضيق ، ويردد فى صوت مسموع .. عشنا وشفنا .. لا

حول ولا قوة إلا بالله !!

بعد أن انتهت جولة المأمور ، صعد الشاويش الحلوانى إلى دور ٢ وجلس فى مكانه المختار على الباشتختة ، ولأول مرة يطلب من العبد لله كوب شاى مظبوط وسيجارة . وخلع الشاويش الحلوانى الجاكتة وجلس يشفط الشاى ويسحب أنفاسا عميقة من السيجارة . ثم فجأة مال رأسه على الباشتختة ، وسقطت السيجارة من بين أصابعه ، وهرع إليه بعض النزلاء ، ولكن الشاويش كان باردا كلوح الثلج يبدو أن منظر المأمور وهو يصافح النزلاء ويوزع عليهم علب الكحك ، قد أصاب الشاويش الحلوانى بغصة شديدة . يبدو أنه تمنى الموت بعد أن رأى بعينيه هذا الانهيار الشديد الذى بلغ حد توزيع الكحك على النزلاء . مع أن أحدا فى المصلحة لم يفكر فى توزيع الكحك على الحراس!

وأخيرا قدر للشاويش الحلوانى أن يتخلص من كل أحزانه ، مات الشاويش الحلوانى فى لحظة اكتشف فيها أن الفساد الذى دب فى السجون تجاوز كل الحدود !!

ولكن طبيب السجن الذى لم يعرف من الحلوانى إلا اسمه ، كتب على شهادة وفاة الحلوانى .. هبوط شديد فى الدورة الدموية .. ولم يكن هذا السبب هو الذى أدى إلى وفاة الحلوانى بالتأكيد !!



٥

الأسير

●● كل شيء وأي شيء معرض للجنون حتى الدنيا نفسها ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية ظهرت بوادر الجنون على الدنيا كلها. السبب المباشر أن الحرب كانت قاسية للغاية. أكثر من ٦٠ مليونا من زهرة شباب الكرة الأرضية فقدوا أرواحهم وهم في عمر الزهور. ومدن كاملة تم مسحها من على ظهر الأرض ومئات الألوف من الأطفال تم شحنهم بعيدا عن ميادين القتال، وانتهى الأمر بهم إلى اليتم والتشرد والضياع وجيوش بالملايين غادرت أوطانها ذات صباح في طوابير فخيمة وعلى نغمات موسيقى حماسية ولم يقدر إلا لبضعة مئات منهم بالعودة إلى الوطن ودفن الباقون تحت حقول الطين وكثبان الرمال. ثم اتسعت رقعة الجنون عندما بدأت أكبر حركة تغيير في تاريخ الكون الامبراطوريات العظمى بدأت في التفسخ، والذين استضعفوا في الأرض أخذوا في النهوض. افريقيا مثلا التي كانت غابة وحوش ومستودع خدم، بالنسبة للأبيض من أوروبا مريضا ومسعورا فتحول إلى طرزان. ضاع بملك وفي ألوف الخدم يحكم. بعضه في قصر ولا قصر الانجليز يزرع الأفيون لأهل البلاد، ويزرع الدخان والشاي للتجارة، ويفطر كل صباح ببعض العبيد ويتعشى كل مساء غزالة. وبين الصباح والمساء يلهو بكل الطواويس وأسراب النعام. افريقيا شهدت بعد ذلك طبول الثورة وجيش خلاص هب لانقاذها من سنوات الذل والجوع ●●



والعملاق الميت آسيا دبت فيه الروح من جديد، وقام الذين كانوا من سقط المتاع يطالبون بنصيبهم من الحق والحرية ونهض ولـد سفروت مصـاب بالانيميـا يدعى جياب واستطـاع بحفنة من المرضى المقشفين أن يحطم كبرياء فرنسا وأن يجبر الجنرال الفرنسى فى فيتنام على الـركوع أمـامه والتـوقيع على وثيقـة الاستسلام بعـد استسلام القـائد الفرنسى بسنـوات. فعل نفس الشـىء القـائد الأمـريكى ووقع وثيقة استسـلامه لنفس القائد وفى نفس المكـان. وبين الـــواقعتين هبت ريــاح التغيير على الشرق الأوسط، وحـدث فى هذه الأثناء أن تلقـى سرحان ابن هـدية استـدعاء للكشف الطبى وليصبح بعدهـا جنديا فى جيش مصر، وغـادر سرحان قريته (المعـدية) فى ريف كفر الشيخ وفى يقينه أنـه لن يلتحق بالجيش فهو مـريض بالبلهارسيـا ولونـه أصفر دائما وصـحته على قـده، وأنه سيحصل على شهادة (المعـافاة) وبعدهـا يستطيع الالتحاق بخـدمة الحكومة فـراش فى مدرسة أو غفير مزلقـان ويصبـح مستوظفا يقبض «فلوس» أول الشـهر وآخره !

ولكن فـرحة مـاتمت خدهـا الغـراب وطار فى (النضـارة) طلع ابن هـدية صـاغ سليم وأصبح عسكرى فى الجيش وشمال يمين وطـوابير على ودنه وأثمـر طعام الجيش فيه فـردت الدمويـة فى وجهه وانتفخت عضلاته، ثم فجأة وجـد نفسه على مركب فى البحر فى طـريقه إلى بلاد بره .. باضت لك فى القفص يـاابن هدية .. كان يحلم بـالسفر إلى طنطا

لزيــارة مقام السيــد البدوى فإذا بــه يركب البحــر فى طريقــه إلى بلاد بعيدة أبعــد من البلاد التى تشرفت بالــرسول الكريم وبعد عــدة أيام وصلت المركب إلى الميناء وعرف ابن هديــة انه فى اليمن ويالها من بلاد غــريبة يــرتدى أهلهــا الفوط ويــدخنون الشيشـــة ويطبخون الحلبــة ويزرعــون العنب ولكن من غضب الله عليهم أنــه بعثر فى كل شــبر من أرضــهم سلسلــة جبال لا تنتهى جبــال تنــاطح السحاب وجبــال نص نص، وفى الجبال وحوش وثعــابين ونحل قرصته ولا قرصـــة العقربة، وشــهده من نفس نوع شــهــد الجنة وسوء بختك يابن هــدية انه استلم موقعا على رأس جبل يا سبحان الله حكمته واسعة وهو على كل شىء قدير.

أحيانــا يمر السحــاب فيغطيه وأحيانــا تتكشف الدنيــا عن وديان جميلــة وزراعات تشبــه حقــول المعديــة وربما يكــون فيها فــلاحين كفلاحين كفــر الشيخ غلابــة أيضا وآخــر قشف أيضا يــا لها من أيام طــويلة مملــة مرت على ابن هــدية وهــو فى موقعــه أحيانــا يقطع الملل صــوت الرصاص وأحيانــا يسمع أخبارا عن سقوط قتلى هنا وهناك آه لو استطاع ابن هدية أن ينزل يــوما من فوق القمة ليتجول فى الحقول ويشــم رائحة البرسيم والحلبة. ولكن هل يــزرعون البرسيم هنا أيضا؟ وهل كل الحيــوانــات تأكل البرسيم أم أنها حيــوانــات مصر فقط التى تأكله؟ ليتــه يلقى نظرة على بيت فلاح هنــا وهل يا ترى لديهم مقــاعد وقاعات وافران لزوم النوم فى ليالى الشتاء؟ ليته يلقى نظرة على أحوال الناس فى بلاد بره ليرى الفرق. مصر طبعــا هى أم الدنيا وأكلها أحسن أكل وأرضها أفضل أرض. هل يــا ترى يشربون اللبن من «البــوشة»؟ وهل يخضــون اللبن ليتحول إلى سمن؟ هل يأكلــون الخبيزة والملوخية والفــول الحراتى؟ يــاسلام لــو عــرف أحوال النــاس هنــا لكى يحكى للفــلاحين فى (المعديــة) عندمــا يأذن الله بــالعودة، ولكن كيف لــه أن

يحقق هـذا الحلم والأحوال هنـا صعبة والحرب لا تنتهى، ويقـول إن الإمام مصر على العودة. إمام خايب بـالتأكيد لأنه يصر على العودة إلى هذه الجبـال الموحشة مع أنهم يقولـون إنه يعيش آخر مملكـة فى بلاد الافـرنك! شهـور طويلـة مضت قبل أن تسنـح الظروف لابن هـديـة بالنزول من القمة. جاءه الفرج بالنقل إلى صنعاء، ونزل من الجبل إلى المعسكــر فى السفح قبل الــرحيل إلى صنعـــاء، وذات صبـاح كـــان الشاويش المسئول عـن المعسكر بلدياته من (مطـوبس) فاستأذن فى الخروج قليلا فأذن لـه بشرط أن يعود إلى المعسكر قبل مـوعد التمام، وخرج ابن هـدية يتجول فى الفضــاء المحيط بالمعسكـر، ورأى مزارع على مـدد الشوف وبيـوتا وقطعـان ماشيـة تسرح فأسرع الخطى إلى هناك. وأخيرا وصل إلى هدفـه ووجد جماعة يجلسون حـول منقد نار تفـوح منه رائحـة شاى ومعهم بـرسيم يمضغونـه وهم يتسامـرون ويضحكـون. البرسيم هنا إذن للبنى أدمين وليـس للبهائم. والغـريب أنهم يسمون البرسيم.. القات، بلاد عجيبة وأحوالها أعجب ولا يعرف السر فى اللخمـة التى أصابتهم عنـدمـا وقع بصرهم عليه، يبـدو أنهم ظنوه حـرامى فأمسكوه وكتفوه، وسـاقوه أمـامهم كما كان يفعل أهل المعديـة عندما يقبضـون على فلاح غلبـان يسرق كوز ذرة من الحقل. ومضـوا بـابن هـدية إلى مكان بعيـد، هناك وجـد ناس كثيريـن حفاة، وجوههم شـاحبة وأعـوادهم ممصوصـة. كأنهم خرجـوا من القبور فجأة. وفى قاعـة مظلمة حبسوا ابن هـدية ولكنهم بعد فترة جـاءوا له بالشــاى، وفى المساء جاءوا لـه بالعشـاء لحم وخبز وحلبة مطبـوخة. وجاء أحـدهم ومعه الشاى ولقمـة عيش وقال لـه.. أنت الآن فى منطقة الشيخ الغـادر، وتستطيع أن تفلت مـن الموت.. إذا قلت.. أنـا فى وجـه الغـادر. يـالها من بـلاد طيبة يهتـف الانسان.. أنـا فى وجـه الغـادر فيتركونه ويعفونه من الموت، وفى بـلاد أخرى لو قال البنى آدم.. أنا فى

وجه ربنا، لا يفلت من العقـوبة ولو كانت هينة! هتف ابن هـدية أنا فى وجه الغـادر. من هو الغادر؟ لايـدرى.. من يكون هذا الغـادر؟ لا أحد يدرى ربما هـو قاطع طـريق أو شيخ منصر لابد أن أسنـانه مـدببة وعيونـه تطق شرارا. ولكنه رأى عكس هذه الصورة عنـدما أصبح بين يدى الغـادر. رجل يرتدى ملابـس نظيفة، وعلى رأسه عمامة ملفـوفة بعنايـة، ولون بشرته أقرب إلى لـون بشرة الخواجات، وعيونـه فى لون البحر المالح. ويبدو من جلستـه أنه صاحب مركـز كبير. وعندما تكلم الغادر كان كـلامه بالعربى الفصيح. قال لـه.. المفروض أننا نضربك بالنـار. لأنك عسكرى جئت لغزو بلادنـا، ولكن لأنك قلت أنك فى وجه الغـادر، فسنعتبرك أسيرا وسنعاملك معـاملة الأسير وأمـر له الغـادر بملابس يمنية، فوطة وقميص وخصص لـه ريالا كل يوم بخلاف أكله وشربه. مصير أسـود يا ابن هـدية، وستعيش حيـاتك فى الغربـة ولن يكتب لك رؤية المعدية وعاش ابن هـدية عشرين يوما بالتمام والكمال، قبل أن يستـدعيه يمنى آخـر طويل وعـريض، ثم سلمه لجماعـة من الخواجات معهم مترجـم مسلح بمدفع رشـاش. وانطلقت بهم سيارة مسرعة تطـوى الوديـان والجبال، وبعـد عدة سـاعات وصلت بهم إلى مدينة تشبه طنطا. يا سلام على أيـام العز التى قضاها فى طنطا عندما كان يتردد عليها فى أيـام مولد السيد أحمد البدوى. الفـرق الوحيد بين هذه المدينة وطنطـا هو أن الأولى هادئة ونظيفة وليـس بها دكان واحد يبيع الحلاوة الحمصية. فى مكـان مثل هذا يمكن لـلانسان أن يعيش. وتصبح الأشيـا معدن لو اشتغـل شغلانة يأكـل منها عيش ويـدخر بعض المال ليسافر بـه إلى المعدية، ولكن حظك المهبب يـا ابن هدية أن السيارة توقفت عند مبنى أشبه بالقلعة التى فى (المعدية) والتى قيل إن الحكومة أقـامتها منذ ألف سنة لصد هجمات الخواجات الـذين كانوا يطمعون فى بر مصر بين الحين والحين !

وعندما أدخلوه القلعة اكتشف ابـن هدية أنه فى السجن. الله يخرب بيت الغادر وبيـت أبوه. قال لـه سنعاملك كأسير، وهل يـدخل الأسير السجن!؟ ولكن الحق أحق أن يتبع. السجن الـذى أدخلوه فيـه أنظف وأفضل مـائة مرة من السجن الـذى دخلـه ذات مرة فى قسم بـوليس طنطا. كانت ليلـة مولد والجميع مسرورين، وكان ابن هـدية يسهر فى قهوة عشوائية أقيمت على الرصيف بمنـاسبة المولد. وكانت ترقص فى القهوة غـازية لهلـوبة أشاعت النشـوة فى القلوب. وفجأة جـاء بوكس الحكومـة وطربق القهـوة على رءوس الجالسين، وحطم نصبـة الشاى واستولى على الجوز والشيش، وساق الجميع إلى القسم، يالها من ليلة ليلاء باتها ابن هدية على الأسفلـت، والبرد يفرى العظام لا كوب شاى ولا حتى شربة ميه ولا لقمة تسند القلب. وليلـة ثانية وثالثة حتى كاد يهلك، بعدها أفـرجوا عنه بعد أن انتهت التحـريات، ولكن هذا السجن نظيف والطعـام الذى يقدم لـه طيب ويليق بالبنـى آدمين. والمشرفون على السجن نـاس طيبون لأنهم يقـدمون لـه أربع سجـاير كل يـوم. لوفقط واجهـوه بتهمته، لـو يقف أمام محكمة، لـو يفهم إيه الحكـاية. المهم.. بعـد شهر من وجـوده فى السجن جاءه أحـد الخواجات ومعـه مترجم. وسألوه عن اسمه وظروف تجنيده، وبدا أن مأساته بعد قليل قد تنتهى، ولكن الخواجا والمترجم لم يحضرا إلا بعد مضى شهر آخر. وفى هذه المرة أعلنـوا أنهم على استعداد لـلإفراج عنـه، وترتيب إقـامة مريحة له فى بيت ضيافة يليـق به، ثم تسفيره إلى مصر ليعود إلى قريته وفى جيبـه مبلغ كبير من المال يكفى لشراء قطعـة أرض واقتنـاء قطيع من المواشى يعينه على بـدء حياة جديـدة له ولأسرته. يـا حظك يا ابن هدية، باضت لك فى القفص، وكان يوم سعد يوم خروجك من المعسكر ووقوعك فى أسر الغادر. والغريب أنهم يعـرضون هذا الخير كله مقابل خدمة هايفه، انه لا يصدق ما قيل له، مطلوب من ابن هدية أن يتكلم فى

إذاعة عدن، ويعلن أنه جاء إلى اليمن رغـم أنفه، وأنه سلم نفسه للأسر لأنـه رفض أن يطلق النـار على عـربى مثلـه!! ثم يـدعـو زمـلاءه من العسـاكر إلى تسليم أنفسهم إلى أنصـار الإمام لينعمـوا بالخير الـذى ينعم به !

والله .. ودارت الأيـام يا ابن هدية وأصبحت شخصيـة تتحدث فى الإذاعة مثـل الكبراء.. الغريب أنهم يطلبـون منه الكلام كـل مساء لمدة نصف ساعة، نصف ساعـة بس!؟ لماذا لايتكلم طوال النهار، وهو على استعـداد للكلام طـول النهار وطـول الليل أيضـا.. والحسـاب يجمع. وبدلا من بناء دار فى (المعديـة) يبنى دوارا على الترعة. وآه لو تمكن من الاتصال بشقيقه حافظ الغفير، لينبه على المعدية كلها لكى تستمع إليه من إذاعـة عدن. يا مين يقـول للجميع على الأمله التى يعيش فيهـا ابن هديـة وشحط طويل عريض يقـدم له صينية الإفطار وهـو كاوع على السرير، سرير ولا سرير مفتش الرى الذى كان يقيم فى الاستراحة على شاطىء النيل بـالقرب من المعدية وحـان الموعد ليبدأ ابن هديـة عمله الجديـد، جـاءت سيـارة فخيمـة أفخم من التـاكسى الـذى يجرى فى شوارع مصر، ووصل إلى الإذاعـة واستقبلوه بالترحـاب وكأنه مـدير كبير، وحشروه فى حجـرة مغلقة وأمـامـه ميكـروفون وبـدأ يتحـدث. وأخذتـه الجلالة فتحدث ولاخـوجة فى المدارس. وبعـد فترة من الوقت أضاءوا النور الأحمر ومنعوه من الكـلام. ثم صافحه الجميع بحرارة وهنأوه بشدة، ووصفـوا صوته بأنـه صوت إذاعى جميل. وسرح ابن هديـة وهو يتمطع على السريـر.. يا سـلام لو يعينـوه مذيعـا فى إذاعة عدن. وبعـد أن يتسلم قرار التعيين ويقبض أول مـرتب يركب المركب ويسافر إلى مصر ويزور المعدية، ويشترى للـوالدة راديو يابانى يتيح لها الاستماع إليه فى إذاعـة عدن! وشهـر بحالـه وابن هديـة يعيش فى بلهنيـة العيش، يقيم فى بيت الضيافـة،ويتحـدث كل مساء من خـلال

الإذاعة . وسرح خياله فـاختلق أكاذيب كثيرة عن الوضع داخل اليمن، وكلما اختلق أكذوبـة وجد تشجيعا أكثـر ومعاملة أفضل. وبعـد شهر كامل جاءه الخواجا والمترجـم، واصطحبوه معهم إلى المطار، وصعدوا بـه على طائرة حـربية وبعـد سـاعتين هبطوا بـه فى أرض غريبـة، ثم أفهموه أنه فى قبرص وذهبـوا به إلى فندق وسلموه جـواز سفر ومبلغا من المال، وطلبوا منه تـدبير سفره إلى مصر فالمسافة قـريبة ومعه من الثمن ما يكفيه للسفر ولتدبير حياته الجديدة، وقع ابن هدية فى حيص بيص، لم يدرك الحكمة من استخدامـه ولم يدرك الحكمة فى الاستغناء عن خدماته. وجواز السفر الذى معه يمنى من حكومة الإمام وبتاريخ قديم، واسمــه الجديد حميـد صبرا. ولكنه خـرج من حيرته بعـد أيام عنـدما التقى ببعض المصريين يبحثـون عن عمل فى قبرص. وأفهمـوه أنهم فى طريقهم إلى لبنان فشواطئها مفتـوحة وكل الناس يدخلونها فى أمان الله. وذهب معهم فى مركب وأنـزلوه فى الماء، وراح يعوم بملابسه حتى وصل إلى الشـاطىء وارتمى هنـاك على الـرمـال وذهب فى نـوم عميق، عندمـا استيقظ من نومــه كانت الشمس عـالية وسـاخنة، ولم يجد شيئا فى جيوبه، لا فلوس ولا جـواز سفر، وتوكل على الله وزحف مبلولا نحـو المدينة، وتسول عدة أيـام ثم وجد لنفسه مكانـا فى غرزة لتدخين الحشيش، ومـرت أسابيع حتى هجمت قـوة من البوليس على الغـرزة وألقت القبض على ابن هـديـة. ولم يستطع تفسير وجـوده فى بيروت، وبعـد عــدة أيـام من التحقيق والتحـرى سلمــوه للسفـارة المصرية. وفى السفـارة قال لهم الحقيقـة، كيف أسروه؟ وكيف أجبروه على الحديث فى الإذاعة؟ وبعـد أيام وجد نفســه فى مطار القـاهرة ومن المطار إلى السجن الحربى .

نهارك أزرق يا ابن هـدية، وكل مـا أكلته بط بط، ستتبرزه وز وز. ومحكمة عسكرية وحكم بطـرده من الجيش و٧ سنوات سجن. لحظة

وقع بصرى عليه فى سجن القناطر كان يعمل فى ورشة الأحذية. وكنت هناك لاصلاح شبشب أصابه العطب. وكان يبدو دون المساجين جميعا صامتا ومكسورا ومذعورا من شىء ما. وعندما سألته عن تهمته أجاب فى همس :

ـ سياسى زيك !!

سياسى . إخوان . شيوعى ، مراكز قوى؟ جماعات إرهابية؟ كان يهز رأسه بالنفى عقب كل سؤال. ثم راح يحكى لى قصته منذ لحظة تجنيده وحتى لحظة دخوله السجن. وكان قد مضى عليه خمس سنوات كاملة ولم يبق أمامه إلا سنتان وسأل العبد لله :

ـ انت كمان بعد ما تطلع من السجن هتقعد عاطل؟

ـ عاطل ليه ؟ هاشتغل طبعا ..

ـ أصلهم قالوا لى إن جريمتى ماسة بالشرف .

ـ تبقى مش سياسى بقى .

ـ مش سياسى ازاى، أنا سياسى ونص. كنت باقول فى الإذاعة، دنا كنت مشهور فى عدن، والناس كانت تعرفنى هناك، بس الراجل الخواجا كان خايف على ليضربونى بالنار، بس ماكنتش عارف ليه؟ مع ان الناس هنا بتحب جلال معوض وبتتشرف بمعرفته .

ـ ما هو انت مش زى جلال . جلال كان مذيع بس انت خائن.

أفزعته كلمة خائن بشدة. ترك فردة الشبشب تسقط من يده وقال :

ـ خائن ازاى يا أستاذ، أنا عملت إيه؟ أنا كنت بتكلم فى الإذاعة. ثم هوه أنا اتكلمت فى الإذاعة بمزاجى؟ دا كان غصب عنى ثم دول عبط وأنا ضحكت عليهم، وكل الكلام اللى قلته كذب. دنا عملت خدمة للبلد وكان لازم يكافئونى!

وصمت بعض الوقت قبل أن تنحدر الدموع على خديه، ثم هب واقفا تاركا فردة الشبشب على الأرض وانصرف خارجا من الورشة.

أيـام طـويلة مضت كنت ألقـاه أحيـانـا فى فناء السجن ولكنـه كـان يتحاشى النظر نحوى أو الحديث معى. ولكن سنحت للعبد لله فرصة الحديث معـه ساعـات طـويلة. كـان ذلك قبل الإفـراج عن العبد للـه بأسبـوع واحد. وكـانت ورش السجن تواصل العمل ليـلا ونهارا من أجل الانتهـاء من إعداد عـدة مئات من الشنط لبعثـة وزارة الداخليـة المسافرة إلى الحج. واندمجت ورشة الشنط مع ورشة الأحذية، وسهر مساجين الـورشتين فى فناء السجن كل مساء حتى الصباح لـلانتهاء منهـا فى أسرع وقت. فى ليلة من هـذه الليالى شعـر العبد للـه بضيق فى التنفس. وكانت هـذه النوبـة هى السبب المباشر الـذى جعل الضابط النوبتشى يسمح للعبـد لله بالجلـوس فترة من الوقت فى الهواء الطلق، وهكذا خرجت من العنبر إلى الحوش، وجلست على مقعد بجوار العمال الذين انهمكـوا فى العمل. ويبدو أن حالـة العبد للـه كانت تصعب على الكـافر، فـأسرع أحد العمال بإعـداد كـوب شـاى على وجه السرعـة. وعنـدما امتـدت يد العـامل بالكـوب نحوى، اكتشفت أنـه هو نفسـه السياسى مذيع عدن! قال لى وهو يمد يده بكوب الشاى :

ـ شد حيلك، دنا سامع إنك خارج قريب.

هززت رأسى بالموافقة فواصل حديثه قائلا :

ـ لما يكرمك ربنا وترجع تكتب تانى، ابقى اكتب عن حكايتى.

ـ أكتب أقول إيه !؟

ـ أنا يا بيه خرجت من مصر مـا عرفش حاجة،، ورجعت مصر وأنا مش عارف حاجة، إذا كنت اتعلمت حاجة أبقى اتعلمتها فى السجن .

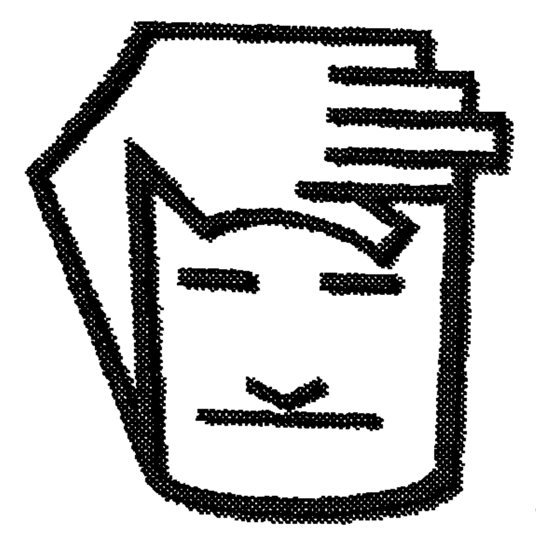
ـ يعنى لما اتكلمت فى الإذاعة ماكنتش عارف بتعمل إيه ؟

ـ والى جمعنـا من غير ميعاد ماكنـت عارف حاجـة ولما مسكونى بندقية فى اليمن وقالوا لى حارب مـا كنت عارف أى حاجة لو فهمونى المسـألة م الأول ما كانش جـرى اللى جرى. فى الحرب كنت بانفذ أوامر

وعاوز أرضى الضـابط وكان نفسى الحكايـة تنتهى بسرعة مش مهم مين يغلب ومين يتغلب.. المهم تخلص والسلام ولما خـدونى ع الاذاعة أتكلم ماكنتش عارف إيـه الحكاية. أنا افتكرتها شغلانـة وربنا فتحها فى وشى. عارف لـو فهمونى إيه الحكـاية كنت مـا فتحتش بقى بكلمة حتى لوقطعوا جسمى بالحتة. أنـا معقول أبقى خاين؟ أخون مصر أنا يا بيه؟ أخون المعدية؟ أخون العيش والملح؟ دنا قلبى هيتقطع من جوه عشان ماحدش من أهلى زارنى فى سجنى.

مكسوفين منى ومن عملتى السودة هوه أنا عملت حاجة ؟

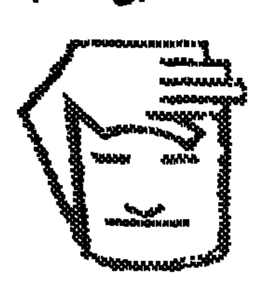
وانخـرط ابن هـدية فى بكـاء شـديـد وبدرجـة لفتت انتبـاه جميع المساجين الذين يعملون بالقرب من المكان الذى أجلس فيه وغادر ابن هديـة مكانه واتجه نـاحية حنفية الحريق وفتحهـا على الآخر، ووضع رأسه تحت شلال الماء المتدفق من فوهتهـا الواسعة، ولم أر ابن هدية بعـد ذلك إلا بعد مضى عشر سنـوات كان ذلك فى عـام١٩٨٣. عندمـا فوجئت به يـدخل مكتبى فى روزاليوسف لم أعرفه فى بدايـة الأمر كان قـد شاخ وشـاب شعر رأسـه لقـد فشل فى العثور على عمل فـاحترف التسـول فترة ثم عادة إلى القـرية بعـد مـوت والده ولكنـه لم يستطع البقاء طـويلا، فالجيل الجديـد الذى لايعرف حكـايته كان ينظـر إليه بازدراء شديـد وهو يعمل حاليا عاملا فى قهـوة على الرصيف المجاور لمقـام سيدى أحمد البـدوى. مسكين ابن هـدية. قضـى أغلب سنـوات حياتـه لايفهم شيئا مما يدور حـوله، وعندما فهم.. كـان قد خسر كل شىء. ثم .. كم يبلغ عدد أبناء هديـة من أبناء المحروسـة.. مع اختلاف الظروف والنهايات !



تمام يا أفندم

٦ الزعيم

●● كان اسمه بنوى كالطبل فى أنحاء السجن . ولم يكن السبب فى شهرته أنه سجين سياسى كان ينطلع للوثوب على السلطة وليس لأنه نزيل السجن منذ عشر سنوات ، وليس لأنه كمنجى يجيد الحديث بصوت كصوت ميكروفونات الأفراح ولكن شهرته كانت بسبب سلوكه الغبى داخل السجن ، كان مرتضى لنا كاتبا لمحام ذائع الصيت ، وكان يحفظ قانون العقوبات عن ظهر قلب ، ولديه فكرة واسعة عن طبيعة جميع القضاة الكبار فى محاكم الجنايات وبإمكانه تصنيفهم من خلال فهمهم للقانون وتطبيقهم له ، فهذا ذئنجى .. أى أنه يميل للإدانة ، وهو لا يؤمن كثيرا بالمبدأ القانونى الذى يفسر الشك لمصلحة المتهم ، ثم هو لا يحكم إلا بالحد الأقصى للعقوبة ، وهو فى النهاية فخور لأنه لف عشرات الرقاب فى حبال المشانق ! وهذا القاضى الآخر طيب ، يميل إلى التماس العذر للمتهم ، ويبحث فى عوامل الضغط التى أدت بالمتهم إلى الانفجار . أما القاضى الثالث فهو من النوع السبهللى ، لا يحيط بالقضية المعروضة أمامه ، ولا يقرأ الأوراق ولا يستمع إلى دفاع المحامين وأحكامه عشوائية ، أغلبها ترفضها دوائر محكمة النقض وتعيدها للنظر من جديد ، وكذلك كان كاتب المحامى قد يستطيع أن يحدد مصير القضية ، ليس من خلال الأوراق ولكن بمعرفة اسم القاضى الذى سينظر القضية ●●



ولهذا السبب ذاع صيتـه فى مكاتـب المحامين ، وعنـد المجرمين لـدرجة أن بعضـهم كان يـؤمن بأنه هـو الذى يملى على المحامى دفـاعه فى القضية ، كـان ندا يسكن فى حى القلعة ، وكان من عـادته التردد كل مساء على قهوة فى نهاية شارع محمد على ، وفى مـواجهة جامع السلطان حسن ، وكان ينهمـك بعض الوقت فى لعب الطـاولة ، ثم يتفرغ بقية السهرة ليحكى للجـالسين عن أهم القضايا المعـروضة أمـام المحـاكم ، ويتنبأ بنهـاية كل قضيـة ، وكانت تنبؤاته غالبا تتحقـق ! وكان يتردد على القهوة نفسها مجموعة من الشباب من طلبـة الجامعات يشكلون تنظيما سريا يساريـا باسم «الحصن» وقد لفت نـدا نظرهم بنشاطه وثقـافته القانونيـة وصفات القيـادة التى يتميز بها وقـدرته على السيطـرة على الآخرين ، وتعمـد أفراد التنظيم الدخول مع ندا فى نقاش ، انتهى إلى خناقة حامية ، أعقبه صلح بين الطـرفين ، وتطـور الصلح إلى صداقـة ، وأخيرا أصبح نـدا عضـوا فى تنظيم الحصن ! وأقنعـه أعضـاء التنظيم بـالحصـول على البكالـوريا من منـازلهم ، ثم الانتساب إلى كليـة الحقوق ، وأكـدوا له جميعـا أنه لـو أقدم على هـذه الخطوة فسيكـون أعظم محام فى مصر وأوسعهم شهـرة ، ودخلت الفكرة رأس نـدا أفندى فانهمـك فى دراسة البكالـوريا ، واستطاع أن يتخطى هـذه العقبة بنجاح ، وأصبح طـالبا منتسبا بكلية الحقوق ، ولكن المحامى الذى يعمل عنده لاحظ أن ندا لم يعـد فى نشاطـه المعهـود ، أصبح كثير الغيـاب قليل الجهـد ، وعندمـا

اكتشف أنه انتسب إلى كلية الحقوق فصلـه من العمل ، وحاول ندا أن يحل مشكلتـه بالعمل فى مكتب محام آخـر ، ولكن تنظيم الحصن حل المشكلة بطريقته ، عـرض على الزميل ندا أن يحترف العمل السياسى ، وأن يتولى قيادة التنظيم نظير أجر ، ويتفرغ فى الوقت نفسه لدراسته ، خصـوصا أنـه أصبح فى السنة الثـالثـة ، ولم يبق أمامـه سوى عـام وبعض عام ليصبح محاميا يشار إليـه بالبنان . ووافق ندا على عرض الزملاء بالرغم من ضعف المرتب ، وهكذا أصبح قائدا لتنظيم الحصن وطالب علم على مـرمى حجر من الليسانس ، أغرب شىء أنـه استطاع فى الموعد المحـدد أن يحصل على الليسانس بدرجة جيـد ، واستطاع فى الوقت نفسه أن يخرج بالتنظيم مـن الحلقة الضيقة إلى رحاب أوسـع ، وأصبح شـهيرا فى الحركـــة الشيـــوعيـــة ، وتمكن فى فترة قصيرة من الـدخـول فى معارك رهيبـة ضـد تنظيمات أخـرى صغيرة ، ونجح فى تصفيتهـا وضم قـواعدهـا إلى تنظيم الحصن ، ومـرت فترة التمـرين كمحام سريعة وعـاصفة، وأصبح ندا بعدهـا محاميا فى مكتب مستقل وله تليفون وكاتب ، واختص نـدا بقضايا أعضاء التنظيمات السرية فى مصر ، وصارت له مكانـة خاصة بين أعضائها ، وبالـرغم من حرصه وحذره ، فقـد دخل السجن معتقلا وغـاب فيه ثـلاثة أعـوام ، ثم عاود العمل السيـاسى بعـد أن قـام بتطهير حـزبـه ، واستبعـد المهـادنين والمترددين، وحمل حملـة شعـــواء على الاتحاد الســوفيتى ، وأعلن أن الاشـتراكية الحقيقيـة فى آسيا وليست فى أوروبـا ، ورفع شعار الصين وطـريق الاشـتراكيـة ، وأسس تنظيمه الجديـد على أسس متينـة ومن أفراد عرفـوا بصلابتهم وقوة شكيمتهم ، ودخل فى معـارك عنيفة ضد جميع التنظيمات المعـادية واتهمها بـالعمالة والتبعيـة ، وبأنها دوائر ديدانية لا تعبر عن أحلام وآمال شعب مصر !

واشتدت حملتـه ضد حكـومة مصر فـاتهمها بـالعمالة للحكـومة

الروسية التـى هى حليف قوى للامبرياليـة الأمريكية ، واتهم السفير الروسى بأنــه المندوب السامى فى القاهـرة ، وأنه يحكم مصر من وراء ستار ! وكـان يمكن للزعيـم ندا أن يمضـى فى طـريقه إلى مـا لا نهاية ، ولكنــه لم يفطن إلى حقيقة مـرعبة ، وهى أن الـرجال أصحـاب الإرادة الحديـدية الـذين اختارهــم لقيادة مصر على طـريق الاشتراكية كـان بعضهم يعمل لحساب جهـاز المباحث فى لحظة ما فى التـاريخ .. كانت مصر تمر بظـروف سيـاسيـة معينة ، وحكمت السيـاســة أن تتخـذ الحكومة موقفا متشددا من اتجاه سياسى معين لكى تنفى عن نفسها صفة الانحياز ، وكانت الطبخة قد استوت بالنسبة لتنظيم الرفيق ندا ، فوجـد نفسه فجأة متهما فى قضية سيـاسية كبرى ، وصفتها النيـابة العـامة بأنها قضيــة الجيل ! كانت الحكـومة تهدف من وراء الحملـة الإعلامية الواسعة بإبلاغ رسالة إلى العالم كله ، ولكن الرفيق ندا دخل فى ملابـس الدور وارتاح فيـه ، ووقف أمـام عدسات المصــورين على أســاس أنــه الـوريث الشرعى للسلطـة وهـو الـزعيم القـادم المؤهل للجلوس على دكـة الحكم فى مصر ، وانتهت الضجة الإعـلامية وانتهت القضية وأرسلوا الزعيم ندا إلى السجن ليقضى خمسة عشر عاما وراء الأسوار !

ولا يعرف محنــة السجن إلا من عانى التجـربة ، وعـاما بعـد عام انكمش الــزعيم وتقلص وتحولت حياتــه إلى جحيم ، بسبب الكراهيـة الشــديدة التى يشعـر بها النـزلاء نحوه ، ليـس النزلاء وحـدهم ولكن الحراس أيضـا ، حتى المأمور الطيب رمزى صاحب الخبرة الواسعة فى إدارة السجون كـان لا يطيق رؤيته ، وعنـدما وقـع بصرى عليه لأول مرة كـان قد مضى عليه سبعة أعـوام كاملة ، وفى عـالم السجون أنت تفقـد احترامك إلى الأبد، إذا فقـدت احترامك مـرة واحـدة ، وبالنسبـة للحراس جميع النزلاء ســواء الذين سجنوا فى قضية سيـاسية والذين

سجنوا فى حادث سرقة عشة فراخ ، وقدرك عند الحراس يتوقف على قدرتك المادية ، وعلى المدى الذى تستطيع أن تذهب إليه فى رشوتهم ، وبالنسبة للضباط الأمر يختلف ، كان فى السجن ضابطان من تحت السلاح ، وكانا أكثرنهما للرشوة من الحراس الصغار ، وعلى الجانب الآخر كان هناك ضابط اسمه محسن السرساوى كان يعامل المساجين بضمير قاض فى محكمة العدل الدولية ، وكان ينفق أحيانا من جيبه على بعض النزلاء الذين سجنوا فى قضايا تسول ، وكان هناك رمزى المأمور ولو قدر للعدل أن يسود لتولى أمر مصلحة السجون إلى نهاية العمر ، وبالنسبة للزعيم ندا .. فلم يكن معه ما يرشو به الحراس ، ولذلك كانوا حريصين على تطبيق لائحة السجن عليه ، فلا خروج من العنبر إلا لمدة نصف ساعة ولا ممارسة للرياضة إلا فى حدود الوقت المسموح به .

وبالنسبة للضباط كانت العلاقة متوترة دائما بينهم وبينه ، كان يخاطب الجميع من طراطيف أنفه ، وكان يتوعدهم بأسوأ مصير عندما يجلس على دكة الحكم ، وكان يعد بعضهم أحيانا بوظائف عليا فى جهاز الأمن ، ولكن بمرور الوقت اعتبروا الوعد نكتة ، واعتقد بعضهم أن الزعيم ندا مخبول على نحو ما !

أما بالنسبة للزملاء .. فقد عاملوه فى البداية على أنه سياسى ، وللسياسيين وضع خاص فى السجون ، فهم إما أصحاب قضية وإما أصحاب مناصب رفيعة ، وهم فى كل الحالات يتصرفون بحكمة ويعرفون كيف يروضون أعتى المجرمين ! أما الزعيم ندا فقد كان يعتبر نفسه من معدن آخر ، وصنف ممتاز وسط هذه الحثالة من المذنبين ! وقد يغفر المذنبون لصاحب هذا السلوك إذا كان قرشه حاضرا وإيده فرطة ، أما إذا كان مثل الزعيم ندا .. لا فلوس ولا كلمة حلوة فنهاره أزرق وأيامه فى لون الغراب ، كان يكوى ملابسه

ولا يدفع وكان يعد الميسرة جـزءاً من الأساطير والخرافات مثل الغول والعنقـاء والخل الـوفى ، وكـان يكتـب الشكـاوى ضـد إدارة السجن بأسلـوب متمرس خبير ككـاتب محام ، وكانت شكـواه تحرك مفتشى الـداخلية للتحقيق فى الأمـر ، وكانت هـذه التحقيقات تسبب الصـداع لإدارة السجن ، واستهدفت شكواه بعـض زملائه من النزلاء وتسببت فى تغريب بعضـهم إلى سجـون أخرى ، وفى تـوقيع العقاب على البعض الآخر ، وكاد الزعيم ندا أن يفقد حياتـه عندما حاول «اللوا» الكرداسى طعنه بنصلة حادة ، فهو معتـاد إجرام وسوابق ويتمتع بوضع خاص فى السجن ، وعنده داخل زنـزانته كل أنـواع الممنوعات ، وبـالرغم من ذلك لم تخضع زنـــزانتـــه للتفتيش فى أى وقت ، وذلك اتقـــاء لشره ، وأيضا لأنــه كان يســاهم فى حفظ النظام داخل السجن ، وكـان يؤدى خدمـات جليلة للإدارة ولكـن «سكيتى ومن تحت لتحت !!» وحدث أن اللـوا الكرداسى فـوجىء بتفتيش مفـاجىء على زنـزانته ، وأقسم لـه حضرة الصـول أن أمـــر التفتيش صـدر من جهـــة خـارج السجن ، فتصور الكرداسى أن ندا كان وراء الشكـوى للجهة إياها ، خصوصا وأنه ألـح منذ أسبوع على نـدا أن يدفع ديـونه التى تضـاعفت فى المدة الأخيرة ، ومن حسن الحظ أن النصلة لم تنفذ فى بطنـه ولكنها خدشت الجلد فقط لكثـرة الملابس التى كان يـرتديها ندا اتقـاء للبرد ، إلى هذا الحد اشتهـر الــزعيم نـدا فى السجن ، حتى أصبح أصغـــر وأحقـر مسجون ، يتصور أن نـدا وراء العقوبة التى نزلت بـه ! الزعيم تحول إلى جهـــاز أمن خـــاص خلف الأســـوار ، الكل يخشـــاه ويتقى شره ويتحـاشاه وينظـر إليه بـاحتقار، ولكن حـدث فجأة ما جعل الأمـور تنقلب رأسا على عقب ، جاء إلى السجن أفراد تنظيم يسارى آخر ، كان من رأيـه أن الحكـومة تحقق الاشتراكيـة وتمضى على طـريق لينين ، وعندمـا دخل ندا السجن كانت أشـد حملة ضده هى التى تولاهـا هذا

التنظيم القادم إلى السجن ، ولـذلك كانت سعادة ندا بـوصول أعضاء التنظيم إلى السجن بلا حـدود ، وتصور نـدا أنه ما دام أصحـاب هذا الاتجاه دخلوا السجن فـلابد أن الإفراج عنـه بات أقرب إليـه من باب الزنزانة ، وأخـذ يتصرف على أساس أنه فى الطريق إلى الخارج ، ثم إلى السلطة بعد ذلك ، وتمادى فى هذا الاتجاه إلى درجـة أنه كان يحتفظ فى زنزانتـه بمرتبـة قطن حرص على إعـادتها لأصحابها فى الخارج ، فما حاجتـه إليها الآن وقـد أصبح على أبواب الحريـة ؟ وانشغل ندا أغلب الـوقت فى تأكيد أن أعضـاء التنظيمات المعـادية لخطتـه ، هم فى واقع الأمر خونـة وعملاء لحكومة موسكو التى تـدفع أجورا منتظمة لهم !! وتصـور ندا أنـه بهذا العـداء السافـر للتنظيمات التى انقلبت عليهـا الحكومـة ، يؤدى خدمة للحكـومة ويساعد فى فتح الأبـواب لنفسه إلى الحرية ! وتأكد ندا أنه يسلك الطريق الصحيح لدرجة أن بعض النزلاء الذين كـانوا يمضون فترة عقـوبة فى قضـايا رشوة واختـلاس أخذوا يتقـربـون مـن نـدا ، وبعضـهم راح يمـده بعلب السجـايـر وبعض الأصنـاف الفاخـرة من الطعام ، وكـان أحـد هؤلاء يعمل قبل سجنـه مديرا لبنك وجاء إلى السجن ليقضى عقـوبة مدتها سبع سنوات نظير اختـلاسه مئـات الألوف من الجنيهـات ! وراح نـدا يقضى معه وقتـا طويـلا يناقشـه فى الأحوال الاقتصاديـة فى مصر وكيفية إصـلاحها ، حتى اقتنع مديـر البنك السابق أن أسئلة نـدا تحمل فى ثناياها عـرضا أكثر أهمية ، ربما كان ندا يختبره للاستعـانة به فى منصب كبير عندما يخرج ندا مـن سجنه ويتولى الـوزارة ، ومديـر البنك السابـق يعرف الطريق الصحيح لانعاش مصر وإخراجها بسـلام من عنق الزجاجة ، صحيح أن فكـرتـه عن الحل كانت تختلف تمام الاختـلاف عن فكـرة الزعيم ندا ، وبـالرغم من ذلك كان ندا يستمـع باهتمام ويدون بعض النقـاط فى أجندة صغيرة ! وتـوطدت العـلاقة بين الـزعيم والمختلس ،

لـــدرجـــة أن المسائل تطورت من مناقشة المسائل العامة إلى المسائل الخاصـــة ، واندهش المختلس عنـدمـا علم أن الزعيم لم يكن لـه فى أى وقت حياة خاصة ، لقد شغله العمل العام عن كل ما عداه ، فلم يكن له زوجـة أو بيت أو أسرة ، حتى شقيقه الأكبر حـرص على الابتعاد عنـه فانتقل للعمل فى كفر الشيخ حتى ينجو بنفســه ، وهو خلال السنوات الطويلة التى قضـاها بين الأسوار لم يحضر أحد من أقاربه لـزيارته ، ولم يستطع خـلال فترة سجنـه أن يحقق الراحـة لنفســه لضيق ذات اليد ، لأن صندوق أماناته لا يحتـوى على قرش واحد ، وهو يفكر بعد خروجـه من السجن فى الزواج قبل أن ينشغل بـالسلطة ، لم يكـد يمر أسبـوع واحـد على هذا الحوار حتـى فوجىء الـزعيم نـدا بشـاويش الأمـانـات يستدعيـه لكى يـوقع على المبلغ الـذى تلقتـه إدارة السجن بالبريد وقدره مائة جنيه!! وبعد أيام قلائل من وصول المبلغ استدعت إدارة السجن الزعيم نـدا لزيارة خـاصة ، زيارة خـاصة !؟ يا لنـذالة البشر ، أخيرا وبعد أن عرفـوا أنه فى طريقه إلى الافراج همّوا لـزيارته !! خرج ندا من زنـزانته يتحرق شوقـا لمعرفة هذا الزائر الـذى جاء بعد فوات الأوان ، وكـاد يغمى على الزعيـم ندا عندمـا اكتشف أنها زائرة ، سيدة فى الأربعينات مـن عمرها ، جمالها صارخ ، شعر أصفـر طويل وعينـان ملونتـان وشفتـان مكتنزتـان ، وبشرة نـاعمة ليس بها أثـر لخدشة أو هبشة ، عنـدما وضع يده فى يدها كـاد يقع مغشيا عليه من شدة الهول ، الـرائحة التى تنبعث مـن جسدها البض التـى نفذت إلى خياشيمه ، كادت تطرحـه أرضا ، وقف مبهورا فترة أمام السيدة التى لا يعرفها وإن كانت هى تعرفه .. وعندما نطقت باسمه اهتز بدنه كله ، فقـد كان صـوتها أشبه بعـود يعزف عليـه محمـد عبد الـوهاب ، يـا سلام.. أخيرا عرف ندا المعنى الحقيقى للسجن ، السجن هو مكان بلا نساء ، أى مكـان بلا نســاء هو سجن فى حقيقـة الأمر ، حتى ولو كان هذا المكان فى الجنة !!

يا لها من مفاجأة مذهلة ، هذه السيـدة هى شقيقة جلال بك مدير البنك والمسجون حاليا بتهمة الاختـلاس ، وهى جاءت لزيارة شقيقها ولكن شقيقها استنفـد كل زياراتـه ، فلجأت إلى هذا الأسلـوب بعد أن عرفت أن ندا هـو أقرب النزلاء إلى شقيقها جلال ، ومـرت الساعة التى هى مـدة الـزيـارة كأنها دقيقـة واحدة ، ولكنهـا كـانت كـافيـة لكى يتفحصهـا ندا بـدقـة ، الصـدر البارز ، الخصر المخنـوق ، السيقـان المخروطة كـأنها إنتاج ماكينة لا تخطىء الحساب ، يـا لها من صورة مثالية للمرأة الجميلة وكما ينبغى أن تكون ؟! ، وعنـدما مد يده نحوها لوداعها جـذبت يده ولولا الملامة لارتمى فى أحضـانها وبكى من شدة الغيظ ، صرفـه الكفـاح فى سبيل الجنـــة الموعـودة عن رؤيـة الجنـة الموجودة ، يا لها من سذاجة ضيعت العمر فى الأوهام .

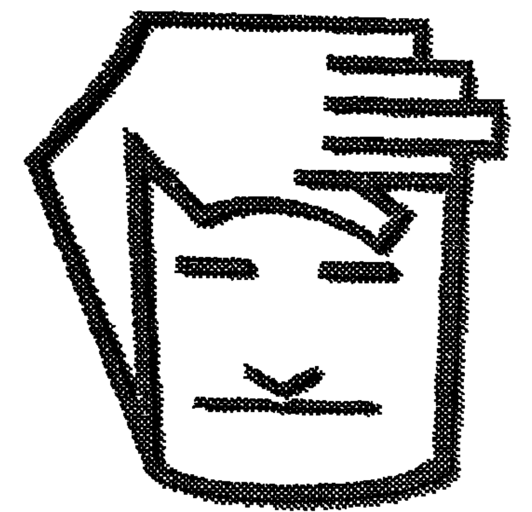
ليس اسعـــد من جـلال بك المختلس على ظهـــر الأرض ، استمتع بالمنصب وبالفلوس وبالنساء ، عاش حياته بالطول وبالعرض ، بينما دفن ندا نفسه بالحياة !!

عندما عـاد ندا إلى زنزانته كان محملا بما لـذ وطاب ، لحوم وفراخ وفواكه وحلويات ، كمية تكفيـه عدة أيام ، وعندما هم بتسليمها لجلال رفض بشدة قائلا له :

دى حاجتك أنت ، أنا بس هاكل معاك !!

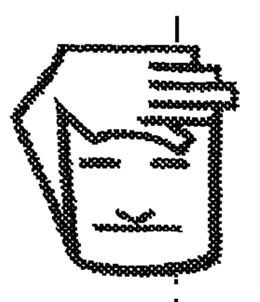
كانـت شقيقة جلال هى محور حـديث الزعيم والمختلـس فى الأيام التى أعقبت الزيارة ، كان السؤال الذى اهتم ندا بمعرفة جوابه هو :

هيه اختك متجوزة ؟



٧ المرتبة

●●كان لقب الزعيم هو اللقب الأثير إلى نفس "ندا" ويجب أن يناديه نزلاء السجن به، وعلى هذا الأساس كان أسلوب تعامله معهم. بدأ الزعيم المنتظر حياته كاتبا لمحام مشهور، ومن فرط ثقافته القانونية صار مرجعا للمحامين والقاضين معا. جمع "ندا" بين الانتساب لكلية الحقوق والانتساب لتنظيم "الحصن" اليسارى، والذى صار قائدا له بعد فترة وجيزة. نجح الزعيم المنتظر في الليسانس، وفي قيادة التنظيم في آن واحد. وصار له مكتب مستقل. وتخصص في قضايا أعضاء التنظيمات السرية إلى أن اعتقل لمدة ثلاثة أعوام، ثم خرج بعدها ليمارس العمل السياسى، ويعيد تنظيمه في ثوب جديد، فعادى التنظيمات الأخرى والحكومه ـ معا ـ إلى أن دخل السجن مرة ثانية لقضى فيه خمسة عشر عاما! وفي السجن كانت العلاقة متوترة بينه وبين ضباط السجن، فهو لا يحدثهم إلا من منطلق أنه الزعيم المنتظر: وبالنسبة للنزلاء فهم يعتقدون أنه وراء العقاب التى تنزل بهم من جراء كتابته للشكاوى الكيديه ضدهم، فلم يسلم منهم، ولم يسلموا منه، وتحاشاه النزلاء باعتباره جهاز أمن خاص خلف الأسوار! ولكن سرعان ما تقرب إليه النزلاء بشتى أنواع الهدايا بعد أن ظنوا أنه في طريقه إلى الافراج عنه ثم إلى السلطة. وتوطدت علاقته ـ بصفة خاصه ـ بـ "جلال" مدير بنك مختلس، تجاذب مع "ندا" أطراف الحديث في القضايا العامة والخاصة، وزاد هذه العلاقة زيارة أخت جلال لـ "ندا"، والذى لم يزره أحد من قبل!، ويعجب "ندا" بجمالها الصارخ، ويدور الحوار مع "جلال" ـ بعد زيارة أخته لـ "ندا" ـ في قضية واحدة هى: هل اختك متزوجة؟! ●●



يـاله من خبر نـزل على قلب ندا نـزول الماء المثلج فى معـدة رجل قطع عـدة أميـال على قـدميـه فى صحـراء محرقة. السيـدة ليست متـزوجة وسيكـون زواجه بها خير تعـويض له عما لقيـه فى الحياة. ولكن هل تـرضى صفية بـه زوجا؟ ولم لا ؟ وهو لم يـزل شابا فى الثـانية والخمسـين من عمره، ثم إنـه على أبواب مستقبل عظيم. أخذ يطرح أسئلة متفرقـة على البيه المختلس، وكان البيه المختلس ذكيـا إلى الحد الذى فهم من خـلالها ما يـرمى إليه ندا .

وجاءت كـل الإجابـات على مزاج ندا وعلى هـواه. فهى مطلقـة بعد زواج فاشــل مـع رجـل ســكير وعديم الشرف. ورط البيـه شـقيقها فى سلفيـات من البنك، ربما كـانت هى الخطوة الأولى التـى قادتـه إلى السجن .

تصــور.. كان يضربها بشـدة وذات مـرة عضـهـا بطريقـة بشعـة تركت أثـرا أبشع من الأثر الذى تتركه عضـة كلب. وأخيرا تم الطلاق، ولأن اللـه عالم بأحـوال الولايـا، فقد شـاءت إرادة الله ألا تنجب منـه نسلا، فخرجت بهدومها من بيت زوجها إلى حيث لا تعود !

وابتسم ندا ابتسامة رضا وأمل، وعكف فى الأيام التالية على تحرير برنامج حكـومته. عمل لكل عاطل وأمل لكل يائس ومـدرسة لكل طفل ومكان فى الجامعة لكل شاب وسريـر فى المستشفى لكل مريض. وقرأ ندا البرنـامج على صهره المنتظـر فهتف له وهلـل. ولكن ندا بـدا عليه

القلق، وعندما سأله المختلس إبراهـيم عن سر قلقه ، أجاب :

ـ كل البرامج تبقى مع وقف التنفيذ إلا إذا تـوفر المال الذى يجعلها حقيقة واقعة.

وبعد فترة صمت قال لابراهيم :

ــ سأترك هـذه المهمـة لك لأننى سأتفـرغ للسيـاسة الخارجيـة وللأمن الداخلى، أما مسألة تدبير الميـزانية فسأتركها لأهل مكة لأنهم أعلم بشعـابها ! مضت الأيـام بطيئـة ومملـة، ونـدا أصبح ينـام على الأسفلت بعـد أن أرسل المرتبـة لأصحـابها خـارج الأسـوار. والـذى أصابه بالاحبـاط أنه لم يسمع أى صدى لآرائه فيما ينبغى على النظام أن يفعله بعد ضربته الموجعة ضد حلفاء موسكو فى مصر. إنه لم يكتف بـالتأييـد الشـــفهى ، ولـــكن أرســـل عشرات الخطـابـات إلى رئيس الجمهوريـة ضمنها خبرتـه وتجربته الطـويلة. ليس أمـام النظام إلا سلوك الطريق الآخر والاتجاه بأقصى سرعـة نحو الصين.. الشيوعية الـروسيـة رأسماليـة مبطنـة، والمواطـن الـروسى يعيش تحت قهـر يتضاءل إلى جانبـه القهر الذى يعيش تحته مواطن فى دولـة نامية. ولا أحد فى مصر كلها يفهم فى اشتراكية الصين إلا الرفيق ندا، وهو على أتم الاستعداد لقيـادة البلد لتحقيق الكفايـة والعدل ودخل قـومى مرتفع وتوزيع عادل على الجميع .

عدة أسابيع مرت طويلة ومملـة على الزعيم ندا، ولكن ابراهيم كان منشغلا بـالبحث عن طريقـة سريعة لـدفع الدم فى عـروق الاقتصاد المصرى. المشكلـــة أن كل الطـــرق التى تـــؤدى إلى ذلك هى طـــرق رأسمالية، والـزعيم ندا يـريد طـرقا ووسـائل اشتراكية. ولكن لماذا لا تكون هذه نظـرية جديدة ولا بأس من أن تنسب النظـرية الجديدة إلى الزعيم ندا، النظـرية الجديدة هى وضع الوسائل الرأسماليـة فى خدمة الأهداف الاشتراكية .

هتف الزعيم ندا وهـو يستمع إلى بنود النظرية الجديـدة.. التجربة

البريطانية !! بريطانيـا دولة رأسمالية ولكنها تطبق النظام الاشتراكى. وأنكر ابراهيم أنـه اقتبس نظريته من بريطانيا. وهـو لم يسهر الليالى الطويلة الكئيبة داخل زنزانتـه إلا لكى يحقق للزعيم ندا ما يحلم به من مجتمع الكفاية والعدل عندما يقـود سفينة البلاد إلى شاطىء الأحلام. وطمأنه الزعيم نـدا إلى أنه لم يقصد أن يوجه إليـه اتهاما من أى نوع. فالنظـرية التى تـوصل إليها ابراهيـم نظرية جـديدة، وإن كـانت قد وجدت طريقها إلى التطبيق من قبل والجديـد الآن هو أن النظرية ذاتها التى تطبقهـا بريطـانيـا سيجرى تطبيقهـا لأول مرة تحت شعـارات اشتراكية وفى دولة تحقق الاشتراكية .

إن الصين لم تخترع صناعـات جديدة، ولكنهـا قلدت الصنـاعات الموجودة فى الغرب، وضربت السوق عندمـا عرضتها بأسعار رخيصة وحتى اليـابان نفسهـا صنعت نفس الشىء إنها لم تخترع السيـارات ولكنها قلدتها، وبعد أربعين عاما ضربت اليابان السوق كلها وتسببت فى قتل صناعة السيارات فى أمريكا .

ـ أبشر يا إبراهيم ، فنظريتك جديدة تماما .

وأقسم ابراهيم للزعيم ندا، أنها ليست نظريته على الإطلاق، ولكنها جاءته نتيجة مناقشاتـه مع الزعيم ندا الذى هو صاحب الفضل الأول فى الوصول إلى النظرية الجديدة !

وسكت ابراهيم لحظة عن الكلام قبل أن يستطرد قائلا :

إحنـا طبعـا هنـا مسـاجين مع بعض، ولكن العين مـا تعـلاش ع الحاجب وعـاوزك تعتبرنى خـدامك. وتأكد يـا نـدا بك.. أنـه لوحـدث وغلطت مرة يبقى بحسن نية، وإن صـدر منى شىء ما عاجبكش لازم تلفت نظرى وتعاقبنى لو حبيت. اعتبرنـى ابنك أو واحدا من تلاميذك، مش قصـــدى ابنك فى السن. لكن ابنك فى التجـربـة وابنك فى الخبرة وابنك فى العلم !

تكـررت زيارات صفيـة لسجن القناطـر، وكلها كـانت من نصيب

الزعيم ندا وفى الأيام التى كانت تأتى فيها صفية إلى السجن، كان الزعيم ندا يبدو هادئ الأعصاب سعيدا على نحو ما. وكان قد انتهى من تأليف حكومته المنتظرة، ولم يرد ذكر ابراهيم فى كشف الوزارة. وعندما بدا القلق على وجه ابراهيم، قال له الزعيم ندا :

ـ دى سياسة عليا ما تعرفهاش انت، انت تهمتك الاختلاس، ولو حطيتك فى الوزارة الناس كلامها كتير. لكن انت هتكون مستشارى الاقتصادى.

وصاح ابراهيم فى قلق :

ـ طيب وافرض الوزير مارضيش يعمل با لمشورة. وابتسم الزعيم ندا ابتسامة ذات معنى وقال :

ـ أنت أصلك لسه غشيم فى السياسة. الوزراء دول مجرد واجهة ماحدش منهم له قيمة. العملية كلها هتبقى فى إيدينا إحنا، واللى هنشور بيه هو اللى هيمشى. سيب الحاجات دى ليه أنا. انت مالكش دعوه.

وسكت ابراهيم امتثالا لتعليمات الزعيم، ولكنه ومهما كان الأمر كان يود أن يكون وزيرا يظهر فى الصحف ويصرح على صفحات الجرائد، ويضع أصابعه فى عيون هؤلاء الذين وشوا به وشهدوا عليه وزجوا به فى السجن، ولكن السياسة لها أحكام وعليه بالصمت والصبر حتى تسنح الفرصة ليمارس على أرض الواقع ماكان يراه فى الأحلام.

صحيح «فعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم»، لولا وقوعه فى الفخ ومحاكمته وسجنه، ماسنحت الفرصة على الإطلاق لرؤية الزعيم ندا.

وأين كان باستطاعته أن يراه، لقد عاش ابراهيم حياته كلها فى دائرة مغلقة، البنك وشلة الأصدقاء الذين يعملون فى سوق المال. كان

يسمع أحيانا عن الشيوعيين ولكـن من خلال ماتنشره الصحف. وكان يتصور أحيانا أن لهم أنيابا ومخالـب وذقونا طويلة. وأنهم مجرمون بالسليقة يكرهون المال ويخططون لنسف البنوك وشنق المتعاملين فى البورصة. ولكن ها هى الصدفة وحدهـا تسوقه لمعرفة الزعيم ندا. إنه يؤمن أيضا بأن المال عصب الحيـاة وهو أساس كل تنمية، وهـو يوما مـا سيصبح مستشـارا للـزعيم ندا فى شئـون الميـزانيـة والتخطيط. وسيحقق ابـراهيم مـالم يكن يحلـم بـه على الإطـلاق. والغـريب أنـه سيحقق كل شىء من خلال من تصور أنهم أعدى أعدائه !

مرت شهـور طويلـة دون أن تصل إلى أسماع نـدا أخبار جـديدة. مايخشاه الزعيم ندا أن تكون المخابـرات المركزية الأمريكية قد شمت اتجاه الريح فتدخلت لإجهاض المسيرة. ولكـن حتى لو حدث هذا فلن يكـون لهذا التـدخل أى تأثير لأن الاتجاه الصحيح سيفـرض نفســه حتما لأنــه الطـريق الـوحيـد لحل كل المشـاكل. ولكن وبـالـرغم من اطمئنان الـزعيم ندا إلى النتائج، إلا أنـه بدأ يشعـر بالقلق ولكن القلق تحول إلى إحساس رهيب أخذ ينهش فى عقله وكان السبب الرئيسى فى هذا الهاجس هو انقطاع صفية عن زيـارة الزعيم. عندما سأل ابراهيم عن السبب قال إنها مـريضـة وهنـاك إشارات بأنها تعـانى من مرض خبيث. ولكن حـدث مـالخبط كيـان نـدا وجعلـه لا ينـام الليل. لقـد استـدعت إدارة السجن ابـراهيم ذات صبـاح، ثم علم نـدا من بعض الحراس أن إحدى السيدات كانت فى زيارة خـاصـة له بإذن من النائب العام. وعنـدما عاد ابـراهيم أبلغ ندا أن صفية جـاءت لزيارتـه لتبلغه بأنها ستجـرى عمليـة خطيرة لايعلـم نتيجتهـا إلا اللـه. صحيح أنها جاءت معها ببعض المأكولات والفواكه عـرضها ابراهيم على ندا ولكنه رفض أن يتذوقها. ولم يبد على إبراهيم أنها تـركت رسالة من أى نوع للزعيم نداء، واضطر ندا أن يسأله فأجاب بالنفى .

- أصلها فى حالة وحشة قوى، أنا نفسى ما عرفتهاش .

بعد أيام قليلة من زيارة صفية للسجن، نقل ابراهيم من العنبر إلى مستشفى السجن. وعندما ذهب ندا لزيارته لمس منه تغيرا فى المعاملة فالكلام بحساب، والعواطف القديمة تجمدت، وانتهت الزيارة عندما أبدى ابراهيم رغبة فى النوم. بعد أيام أخرى غادر ابراهيم مستشفى السجن إلى مستشفى قصر العينى وبعدها بأيام نشرت الصحف أن قرارا جمهوريا صدر بإعادة محاكمة كل المختلسين والمهربين ولصوص المال العام الذين سبقت محاكمتهم أمام محاكم عسكرية لقد أفرجوا عن ابراهيم وهو الآن فى عمله القديم انتظارا للمحاكمة أمام المحاكم المدنية وانتظر ندا أن تصله رسالة من ابراهيم، ربما يأتى لزيارة، على الأقل ليطمئنه على صفية، ولكن الأيام مرت دون أن يتحقق ماتوقعه ندا. أخذت الأحوال تسوء بالنسبة للزعيم ندا. عادت التكديرة إلى السجن. تفتيش الزنازين بين الحين والآخر. إغلاق الزنازين أغلب الوقت، اختصار أوقات الفسحة، الغاء فترة الرياضة، ولم يقع هذا التغيير إلا على المسجونين السياسيين، كان الاحتفال بعيد ثورة مايو قد اقترب، وقبل الاحتفال بأيام كانت جميع قضايا لصوص البنوك قد صدر فيها حكم بالبراءة. وحملت إحدى الصحف صورة ابراهيم وهو يشيد بالعدالة ويهاجم هؤلاء الحاقدين الذين كانوا السبب المباشر فى اتهام الشرفاء من الوطنيين. وحدد الحاقدين بالشيوعيين عملاء موسكو الذين أرادوا إزاحة كل الشرفاء ليخلو لهم الجو وتسقط مصر فى أيديهم .

وجاء احتفال العيد بثورة مايو، واختار زعيم الثورة مكانا بعيدا فى الصحراء واحتفل بالعيد مع عمال البترول واستمع الزعيم ندا للخطاب. بدأ الزعيم الخطاب وكان أول القصيدة كفر. أعلن الزعيم فى وضوح أن الشيوعية هى أساس شقاء العالم، ووصف روسيا بأنها

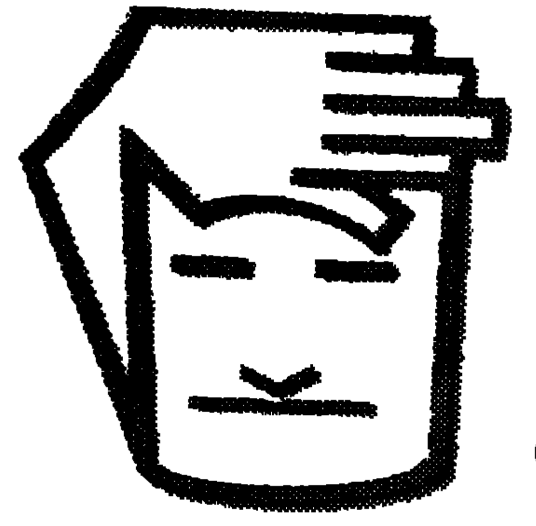
الشيطان الأكبر. أما الصين فهي الشيطـان الأعظم وختم الخطاب بأنه لا سلام ولا رخاء إلا بالقضاء على امبراطورية الشر .

يـالها من أيـام سوداء مـرت على الـزعيم ندا فى السجـن بعد هـذا الخطاب حتى المختلس ابراهيم صـورته منشورة على الصفحة الأولى. وحديث له مع المحرر يحمد فيه اللـه الذى وفق الأمة إلى طريق الهداية والإيمان. لايحفظ الاقتصـاد أو يصونـه إلا العـودة إلى طريق الـدين والتمسك بشريعتـه وحكى عن تجربتـــه فى السجن حين فـرض زعيم الشيوعيين نفســه عليه، وبالرغم مـن ضيقه الشديد بـالزعيم إلا أنها كـانت فرصـة طيبة لاكتشـاف أخـلاق الاشتراكيين وما هم عليـه من وصولية وحقارة وعدم احترام للـذات. وحكى ابراهيم كيف كان الزعيم الاشتراكى نـدا يسطو على طعامـه ويتطفل على علبة سجـائره. وكيف حاول المستحيل لتجنيده فى تنظيم «الحصن» ولكن هيهات، فهو رجل مسلم ومؤمن بالله ويخاف من يوم لا ينفع فيه مال ولابنون !

تحت موجـة من الانفعال الشديـد أمسك الزعيم ندا بـورقة وكتب خطابا لابراهيم عنفه فيه بشدة وتوعده بالانتقام الشديد عندما تنجح الجماهير فى القيـام بثـورتها التى ستطيح بـالنظام العميل الفـاسـد. وحـذره من العودة إلى مثل هـذا العمل مرة أخـرى، لأنه يحتفظ معـه ببرنامج حكـومة الشعب بقيـادة الزعيم نـدا وبخط يد ابـراهيم نفسه وتصـور الزعيم نـدا أن ابراهيم سيركع وسيأتى لـزيارتـه فى السجن متـوسلا وحـدث ما تـوقعـه الزعيم نـدا، فقـد حضر بعد أيـام بعض الحراس واقتادوا الزعيم ندا إلى نيابة أمن الدولة. وجرى التحقيق معه حول الخطاب الذى أرسله لإبراهيم. وعنـدما عاد فى المساء إلى زنزانته شعر بأن رأســه سينفجر. مـا الذى جرى فى الكـون وما الـذى حدث للناس. هل كان تحليل الـزعيم ندا مجرد خطأ فى التحليل؟ أم كان من بـاب العبث ولعب العيـال. هل يجب إعـادة النظـر فى كل شىء وفى أى

شيء؟ لا مفر من العودة إلى حضن الجماهير والالتحام بجموع الشغيلة والعرقانين. وعكف ندا على تحرير خطاب للرجل الذى يقود تنظيم الحصن خارج الأسوار. لقد طلب ندا حل التنظيم وإعادة تنظيمه من جديد وبعناصر مقاتلة وشديدة الصلابة ومستعدة لمواصلة المشوار حتى آخر الدهر. لابد من قيادات جديدة ودم جديد ونظرية جديدة قادرة على اكتشاف الطريق إلى الجنة الموعودة.

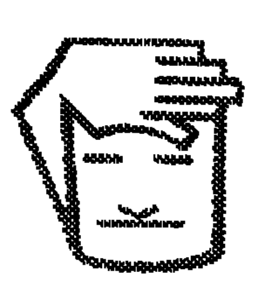
ولكن .. الزعيم ندا لم يتلق ردا على خطابه، فقد تولى نائبه حل الحزب منذ فترة، وبعض زعماء الحصن آثروا العمل مع الثورة الجديدة، وبعضهم فر خارج الحدود، أما الرجل الذى تولى القيادة بعد الزعيم ندا فقد وجد لنفسه عملا مجزيا فى شركة لتوظيف الأموال. وأمسك الزعيم ندا بورقة وحرر خطابا أخيرا لأحد أقربائه خارج الأسوار خطابا قصيرا للغاية يطلب فيه إعادة المرتبة إلى السجن فقد بدأ يشعر بالروماتيزم يسرى ويفرى فى عظامه !



تخشيا الخشاب

٨ الخواجا من أجل الشعب

●● خواجا في السجن ..!؟ ياله من حظ عاثر الذى جاء بهذا الخواجا إلى هذا المستنقع الحقير. ورحت أراقبه وهو يقطع الممر الضيق في دور ٣ بسجن القناطر، وأحيانا يزوم في صوت متحشرج وعلى النبرة كأنه ذئب محبوس. وتصورت أنه حزين أو على الأقل غير سعيد على هذا المصير الذى انتهى إليه. ولكن اكتشفت بعد لقائي معه في حوش السجن أنه مجرم بالفطرة ، وأنها المرة الرابعة التى يدخل فيها السجن، وعقوبته هذه المرة خمس سنوات. كان يدعى روبير وهو خبير في فتح الخزائن مهما كان حجمها أو وزنها. ولكن أدهشنى أنه ليس حزينا ولا نادما، بل يشعر بنوع من الراحة لأنه مسجون في مصر. وتصورت أنه يكذب أو يسخر منى. ولكنى اكتشفت أنه صادق بالفعل و يرى أن السجن المصرى نعمة من نعم الله . ف السجن فسحة، السجان يفتح الساعة ٧ ويقفل الساعة ٥، ومن ٧ إلى ٥ مالوش دعوة بالمسجون... المسجون بره ما عندكش فكرة أنت مقفول عليك الـ٢٤ ساعة. مالكش غير نصف ساعة الصبح ونصف بعد الظهر صحيح الفرشة أحسن والأكل أحسن، لكن دى حاجات تقدر توفرها لنفسك في السجن المصرى المهم إنك هنا ما تحسش بأنك مسجون ●●



ـ وجربت السجن بره يا روبير ؟

ــ اتسجنت فى باريس وفى لبنان، وفى تركيا الموت أحسن م السجن.

كان يتكلم بطريقة تؤكد أنه حصل على قسط من التعليم، ويتعمد نطق بعض الكلمات الفرنسية أثناء الحديث. ولكن لماذا ذهب إلى باريس؟ ولماذا دخل السجن هناك ؟

ـ الفاميليا كلها هاجرت من مصر بعد حرب ٥٦، بس مارضيتش أسافر معاها. أنا عشت هنا وحياتى كلها هنا. ولما سافرت باريش علشان أزور الفاميليا، واحد من أصدقاء الفاميليا قصدنى. رحت أفتح له خزنة .مسكونى حكموا على بسنتين أفرجوا عنى بعد سنة لحسن السير والسلوك ورحلونى على مصر .

ـ تقول لحسن السير والسلوك !

ربما شعر روبير أن عبارتى تحمل رنة سخرية فقال فى حدة :

بسلوكك فى السجن. وبعدين عاوز أقول حاجة ..

وتوقف روبير عن الكلام، ثم أخرج علبة سجائر فرنسية التقط منها سيجارة وأشعلها وجذب منها نفسا عميقا.. ثم قال :

الحياة بره اتغيرت، والسجن بره مش للانتقام. السجن علاج والمسجون مريض. ويوم الإفراج يفتحوا باب السجن ويقولوا له اتفضل. هنا نهار الإفراج يبقى أسود يوم فى حياة المسجون، يسلمونك للمباحث وهيه وكيفها. يمكن تخرج وغالبا ما تخرجش.

واستأذن روبير وانطلق فى السير بخطى واسعة .

كان منظره وهو يسرع الخطى لافتا للنظر. كان به عرج فى ساقه اليسرى وكان يسحب ساقه المعطوبة وكأنه كلب داست عليه عربية نقل فى طريق الصعيد وبالرغم من أنه حرامى ومسجل خطر، كان كل المسئولين فى السجن يهابونه ويتقون شره والسبب أنه يحفظ لائحة السجن صم، وكان خبيرا فى كتابة الشكاوى ضد الإدارة وخصوصا المدير والمأمور والدكتور. ولذلك عندما ادعى أنه مريض بالروماتيزم أمر له الدكتور ميشيل بمرتبة بدون أن يكشف عليه. وكان يتغطى ببطاطين من صنع فرنسا أرسلتها له أسرته وكان لا يأكل من طعام السجن. ولكنه يحصل على طعامه من الكانتين، ومن الزيارات التى يأتى بها بعض أصدقاؤه من السجن، وأحيانا كان يستخدم الحراس فى جلب بعض المأكولات من الخارج. وكان مصدر أذى للمساجين إذا اختلف معه مسجون كتب ضده شكاوى من مجهول وأحيانا من فاعل خير. وكانت الشكاوى التى يرسلها الخواجا تثير قلق السلطات، لأنه يتهم أعداءه بجرائم خطيرة ضد أمن الدولة، وكان ساعده الأيمن فى كتابة الشكاوى مجرما عريقا فى الإجرام يطلقون عليه فى السجن اسم مطوة. وسر التسمية أن الأخ مطوة كان باستطاعته أن يقلد ختم النسر أو أى ختم آخر إذا توفرت له مطوة جديدة لم تستعمل من قبل. طبعا لا يعرف أحد سر المطوة إلا الأخ مطوة نفسه. وكان مطوة حاذقا إلى درجة تثير الدهشة. حتى أنه استطاع الإفراج عن مسجون بخطاب صادر من رئاسة الجمهورية عليه ختم النسر وإمضاء جمال عبدالناصر! وكان ضابط العنبر الدسوقى يجامله بشدة، لأن الخواجا روبير كان بين الحين والحين يقدم له جزءا من الهدايا التى تصله من أقاربه من فرنسا ولأنه كان ضابط مخلة كما يقولون فقد كان يتقبل الهدايا شاكرا كرم الخواجا وعطفه. ومع أن روبير كان من صنف

الخواجات وأقاربه يقيمون فى فرنسا، إلا أنه بالتأكيد لم يكن من أهل أوروبا. ولكنه فى الأصل كان مالطيا، جاء جده مع حملة نابليون من أهل مالطا استخدمهم نابليون فى التمهيد لغزوته لمصر، لينشروا بين الشعب المصرى أكاذيب من نوع أن نابليون مسلم وأنه جاء لرفع شأن الدين وحماية المسلمين من ظلم المماليك! وقبل أن تتفجر ثورة يوليو قضى روبير عدة سنوات فى مدرسة الفيرير. ولكنه استطاع أن يقنع عددا من التلاميذ على العمل بعد المدرسة فى إرشاد السائحين الفرنسيين فى زيارة الآثار والتردد على السوق. وبعد فترة من ممارسة هذا العمل استطاع روبير إقناع هؤلاء التلاميذ بالعمل طوال الوقت لأن المدرسة لن تفيدهم فى شىء. وبعد الثورة انقطع السواح عن زيارة مصر، وتصاعدت الأحداث فى مصر وتطورت إلى حرب دامية بين الثورة الوليدة وجيوش ثلاث دول على رأسها بريطانيا وفرنسا واسرائيل أيضا. ونشطت بعد الحرب عمليات هجرة الأجانب إلى الخارج. وسرعان ما فتح روبير مكتبا صغيرا فى حى السكاكينى لمساعدة الراغبين فى الهجرة وتهريب أموالهم، وبالرغم من قيامه بعدد كبير من العمليات إلا أن الأجانب الذين اتفقوا معه لم يتسلموا قرشا واحدا من أموالهم، لأن روبير وضع المبالغ التى تلقاها كلها فى جيبه! وبعد أن استقرت الأمور فى مصر استخدم المكتب فى تأجير سيارات للسائحين الأجانب، وفى نفس الوقت قام بتأليف تشكيل عصابى لسرقة الأجانب الذين يستأجرون سيارات مكتبه. وكان يستخدم السائقين الذين يعملون فى مكتبه، وأول مرة ينكشف فيها أمر روبير كان فى عام ١٩٥٩ عندما اتفق هو وعصابته على سرقة زبون استأجر سيارة بسائق من المكتب، ومن سوء حظ روبير أن الزبون لم يكن عاديا، ولكنه كان رجل أمن انجليزى فى مهمة سرية تحت ستار السياحة لكى يبحث مصير بعض الجنود الانجليز الذين اختفوا أثناء الغزو الثلاثى .

وبالطبع نشطت كل الجهات الأمنية للقبض على الجناة. ولأنها كانت أول سابقة للخواجا فقد دخل السجن لمدة عام، واختار سجن الاسكندرية لقضاء العقوبة فيه بدعوى أن عمته الوحيدة تقيم فى المدينة. وخرج من السجن وسافر إلى باريس ليدخل السجن هناك ثم عاد إلى مصر، ليعود إلى السجن مرة أخرى بتهمة الشروع فى سرقة فرع بنك القاهرة. وفى المرتين اللتين دخل فيهما السجن المصرى كانت السجون تضيق بنزلائها من الشيوعيين. وتوثقت الصلة بينه وبين مسجون من زعماء الشيوعيين كان والده باشا وثريا أمثل ومن وزراء عهد الملك فاروق. واستطاع روبير أن يحصل على ثقة الزعيم الشيوعى عندما نجح فى تهريب رسائل من السجن وإليه. وتمكن روبير بسبب طول الإقامة أن يلتقط بعض العبارات الماركسية وبعض المفاهيم، وعندما طلب روبير من الزعيم الشيوعى، بأن يخصص له زميلا من الشيوعيين لكى يلقنه المبادىء الشيوعية رد عليه الزعيم الشيوعى بأن ما يقدمه روبير للحركة الشيوعية يفوق أى خدمة يقدمها أكبر مثقف شيوعى عشر مرات. وقال له إن بعض زعماء العالم الشيوعى الذين يتولون السلطة فى بلادهم كانوا من الصياع، ولكنهم قاموا بأعمال بطولية للحزب خلال سنوات النضال. وراح روبير يحلم بثورة شيوعية يتولى فيها منصب مدير المباحث، فهو أعرف الناس بالمجرمين ونزلاء السجن، وعاهد نفسه إذا تحقق حلمه أن يقوم بفصل محيى بك مدير السجن والحكم عليه بالحبس فى زنزانة انفرادية ليعرف معنى الحبس بالنسبة للبنى آدمين! وعاهد روبير نفسه على تقديم أعلى مستوى من الخدمة للحركة الشيوعية حتى يكون نصيبه بعد الثورة يتناسب مع حلمه الكبير وخرج روبير من السجن وخرج الشيوعيون، أيضا ولكن صلته بالزعيم الشيوعى لم تنقطع ولشدة إخلاص روبير للحركة الشيوعية وعميق حبه

للشيوعيين، تقدم بـاقتراح لتوفير الدعم المالى للحركـة ومساعدتها على تغيير الثورة التى ستكون خيرا وبركـة للجميع. كان اقتراح روبير هو سرقة فـرع البنك الأهلى فى مصر الجديدة والذى يحرسه جنـدى واحد من هذا الصنف الـذى لا يدرك أبعاد مهمتـه على وجه التحديـد. وعبثا حاول الزعيم الشيوعى أن يشرح لروبير أن الحركة تعتمد على تبرعات أعضائها، وأنهم يرفضـون العنف بكل أشكـاله وبالطبع يرفضـون أن تكون السرقة هى مصدر تمويلهم .

وقف روبير أمـام شاطىء النيـل فى الزمـالك وقـد امتلأت نفســه بـالحقـد على هذا (المتعلم) الكـذاب مثل غيره من المتعلمين معقـول!؟ يرفض السرقة كـوسيلة للدعم المالى!؟ إنه هو بنفسه وبعضمـة لسانه قال لـه وهما فى السجن.. نحن الشيوعيين نحترم اللصوص الغـلابة؟ أمثالك لأنهم فى حقيقة الأمر ثوار رفضوا الواقع وثاروا عليه. ولو أتيح لهم أن يعيشوا فى ظل نظـام فاضل فلن يعود روبير وأمثالـه فى حاجة إلى السرقة حيث سيكـون لكل إنسان حسب حاجتـه. ومن كل إنسان حسب طاقته! هذا الكذاب الذى يدعو إلى مجتمع الكرامة للفقراء يعيش فى شقة أفخم من أى قصر، ويستخـدم عمالا لخدمته من أهل النـوبة، وفى شقته تحف تكفى لفتح متحف !

وفكر روبير الحرامى فى طـريقة لـلانتقام من الـرجل الذى خـدعه واستخدمه لصالح الحركة دون أجـر. لو اكتشفه فى السجن لتقاضى نظير خـدمتـه مبـالغ كبيرة.. مضـى روبير فى طـريقـه ووضـع خطـة شيطانيـة لسرقة فرع البنك الأهلى فى مصر الجديـدة. وأثناء التحضير للعمل حرص روبير على زيارة الباشا الشيوعى. فى المرة الأولى واعتذر عن اقتراحـه السيىء الذى لا يتفق مـع السلوك الماركسى، وأعلن أنـه كف عن السرقـة منذ تـوطدت الثقـة بينه وبين البـاشا، وقبل الطـرف الثانى اعتذاره وانتهى الأمر .

في الزيارة الثانية راح روبير يستعـرض المشاكل التي تحيط به بعد أن كف عن السرقة، مشاكل وأزمـات مالية تخنقه وتكـاد تقتله وهو لا يـدري ماذا يفعـل؟ ولذلك جـاء لـزيارة الأستـاذ الكبير لكي يجد لـه مخرجـا بتفكيره الثاقب وعقلـه المستنير. شجعه الأستـاذ على احتمال الشدة ومواجهـة الموقف بجسارة، فالأحـوال لا تدوم، وبعد محاضرة طـويلة دس في يـده عشرين جنيهـا وصفها بأنها معـونـة مؤقتـة من صديق لصـديق. تكررت الزيـارات والمحاورات بين الـزعيم الشيوعي واللص الذي يتظـاهر بـالتوبـة. ثم غاب روبير فترة حتى كـان مساء شـاتيا وعـاصفا، عنـدما فـوجيء الـزعيم بطرق شـديد على البـاب، وبطـريقة أعـادت إلى ذاكـرته أيـام زوار الفجـر، كانت تلك الفترة قـد انطـوت وجاء عصر العلم والإيمان، ولم يعـد الانســان المصري يسأل عن أفكاره ولكن عن أفعاله. والـزعيم لا يصنـع شيئا مزعجا للسلطات، ولكنه يفكر ويترقب بزوغ الفجر الجديد!

وعندمـا فتح الباب وجد نفس الـوجوه التي كان يعرفهـا أيام زوار الفجـر، ووجـد أيضا نفس الأسلـوب، أفـواه تبتسم وأيـاد تعبث بكل شيء في البيت حتى بـالمراتب والمخـدات، وحملوا معهم أوراقـا كثيرة وانصرفوا في صحبـة الزعيم إلى السـجن جلس الزعيم في زنزانتـه يفكر في هذه الهجمة المباغتة التي لم يحسب لها أحد أي حسـاب .

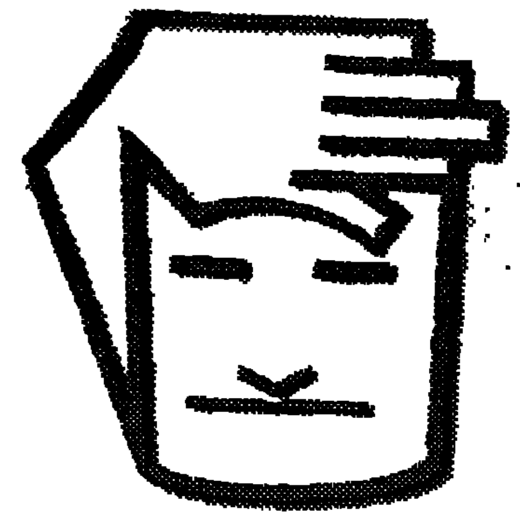
يتساءل أيـن سيادة القانـون ولا اتهام بدون دليـل، ان الاجراءات هي نفسـها التي كانت أيام مراكز القـوى، الزنزانة مغلقة طوال الوقت، والاتصـال بـالزعيم ممنوع، وتفتيش الـزنزانة يجرى كل عـدة دقائق. راح الزعيـم الشيوعي يستعـرض كل الزمن الـذي سبق اعتقالــه، انه بالتأكيـد لم يرتكب عمـلا على الاطلاق يزعج السلطـات إلى هذا الحد. ماذا جرى بالضبط؟ هل هي حملة ضد الاتحـاد السوفيتي؟ ولكن لماذا كل هذه العصبية في عملية القبض والتفتيش؟

أخيرا استدعوا الزعيم إلى النيابة، ولم يكن وكيل نيابة أو حتى رئيس نيابة عادى ولكنه كان رئيس نيابة أمن الدولة. وعندما استمع الزعيم إلى التهمة كاد يغمى عليه. تمويل الحزب الشيوعى عن طريق سرقة البنوك!! هل جنت السلطة إنها تمارس عملية مطاردة الشيوعيين منذ زمن طويل وهى تعرف خفاياهم ونواياهم أيضا. والعنف ليس من طبيعتهم، يطبعون منشورات نعم، ينظمون مظاهرات نعم، يلعبون فى الانتخابات نعم ، ولكن سرقة بنوك.. هذا هو الشىء الجديد.. واكتشف فى مكتب رئيس النيابة أن الصحف الصادرة منذ أيام لا حديث لها إلا الحزب الشيوعى الحرامى، وصور الخواجا روبير تتصدر الصفحات. وهو يصرح بينما حنكه مفتوح على الآخر فى زهو شديد. أنا لست حرامى وسخ، وإنما أنا حرامى من أجل الشعب! وأنا لست مخططا أو مدبرا هذه المرة. ولكننى مجرد منفذ أما الذى وضع الخطة فهو الزعيم الشيوعى الكبير ابن الباشا الكبير؟ وأثبت روبير أنه كان على علاقة بالزعيم أثناء فترة سجنه، وأنه جنده فى صفوف الحركة، وكان يتردد عليه فى منزله، ووصف منزل الزعيم بالتفصيل. ولكن مؤامرة روبير لم يكتب لها النجاح، كان الزعيم الشيوعى الذى يؤمن بنظرية سوء الظن من حسن الفطن، فحمل فى نفسه شكوكا قوية نحو روبير. ولذلك كان يسجل لقاءاته معه فى منزله، واحتاج الأمر إلى فترة طويلة لكشف الحقيقة. خبير فى الصوت وخبير فى التسجيل، وإجراءات طويلة عريضة، بعدها تم الإفراج عن الزعيم الماركسى وجرت محاكمة روبير حيث قضى فى السجن خمس سنوات. وبعد خروجه طار إلى تركيا، وعندما حاول الخروج عن طريق البر إلى حلب عثرت معه الشرطة على قطعة مخدرات فعاد من جديد إلى اسطنبول، وهناك قضى فى السجن ثمانية عشر شهرا عاد بعدها مقصوم الظهر إلى القاهرة عندما التقيت بروبير

فى السجن كان يقضى عقوبة مدتها ٧ سنوات، بتهمة تخدير بعض السواح الفرنسيين وسرقة متعلقاتهم. وكان قد تعرف عليهم فى الشارع. كانوا يسألون عن مكان معين ولم يكن فى الشارع من يجيد الفرنسية ليدلهم على المكان الذى يقصدونه وساقتهم الأقدار فى طريق روبير ، فخاطبهم بلغة فرنسية سليمة ثم تطوع لإرشادهم إلى المكان المطلوب وزعم لهم أنه فرنسى يقيم فى مصر، وأنه مضطهد لأنه ماركسى ويقود تنظيما شيوعيا من بعض الأجانب والمصريين ونال روبير إعجاب الفرنسيين وثقتهم وأعطاهم رقم تليفونه وطلب منهم زيارته فى المنزل وقاموا بزيارته وقام هو برد الزيارة لهم وأصبح روبير يظهر معهم فى الملاهى وفى حى الحسين. وليلة سفرهم إلى الخارج دعاهم إلى منزله حيث أنه قريب من المطار، وذهب معهم إلى اللوكاندة وحمل أمتعتهم فى سيارة زعم لهم أنها مخصصة له من الحزب الشيوعى، وكان الفرنسيون حريصين على زيارة المنزل وقضاء الليل فيه، عندما وعدهم روبير بأن يجمعهم ببعض الشيوعيين من أعضاء تنظيمه واختار اثنين من زملاء المهنة والسجن: شلاضم وقشاط وكان روبير يوجه أسئلة ليس لها معنى لمساعديه فيجيبون أى إجابات، ويقوم روبير بترجمتها للفرنسيين وكان وجه قشاط يحمل مائة ندبة من أثر ضرب من زملائه بالأمواس والمطاوى قرن الغزال. ولكن روبير وصف هذه الندب بأنها أثر من أثار تعذيب البوليس لزملائه المناضلين فى السجون!! وبعد أن سهروا وسكروا ونام الفرنسيون ليكتشفوا فى الصباح أنهم كانوا ضحية حرامى ذكى فقد اختفى روبير ورفاقه بعد أن حملوا معهم كل شىء حرص روبير على التقرب من العبد لله ولكنى كنت حريصا على أن تكون المسافة بينى وبينه بعيدة وكان أحيانا يطلب بعض السجائر لأن الحوالة لم تصله. وكنت أمنحه علبة السجائر بين الحين والآخر

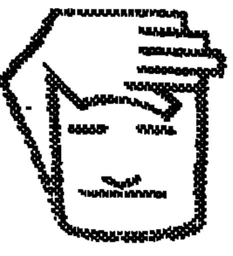
ولكن عندما تحول الأمر إلى فردة رفضت إمداده بأى شىء على الإطلاق. لم يجد روبير للانتقام من العبد لله إلا زميله مطوة رفعوا شكوى ضد العبد لله للمباحث العامة يؤكدون فيها أننى عقدت اتفاقا مع بعض الطلبة لاغتيال بعض الشخصيات الهامة بعد الخروج من السجن. ولحسن الحظ.. الشكوى ضمت إلى صفوف المتآمرين.. العميد يحيى مدير السجن، وكان مشهودا له فى مصلحة السجون بالأمانة والاستقامة والسلوك الميرى المتشدد ولكنه.. وبالرغم من ذلك اهتز جهاز الأمن واستدعى المناضل مطوة للاستماع إلى شهادته، ثم رفعوا الأمر إلى المدعى الاشتراكى، ثم رفعوا القضية برمتها إلى الرئاسة، وعندما جاء أمر الإفراج عن العبد لله كان قد مر على انتهاء فترة سجنى يومان بالتمام والكمال. تذكرت الخواجا روبير وحواراته الغريبة، عندما قرأت فى الصحف نبأ اعتقال مصرى فى اسرائيل، يحاول سرقة بنك فى حيفا مع تشكيل عصابى من الاسرائيليين.

أخيرا.. تم التطبيع بين حرامية مصر وحرامية اسرائيل ؟!



٩ حزب ست الحبايب

●●أبواب السماء كانت مفتوحة عندما دعت له الست الوالدة بأن يفتحها الله في وشه ويعلي مراتبه، فبعدها بأيام تم انتدابه من وظيفة صغيرة بوزارة الصحة إلى وظيفة أعلى في مديرية التحرير ارتفعت درجته وتضاعف دخله وأصبح يشتري علب السجاير العشرين، ولم يعد يتردد على سوق الكانتو لشراء قمصانه، وعرفت أقدامه الطريق إلى عمر أفندي وبنزايون ، وفي المكتب الجديد تعرف على زميل صاحب سلوك مميز وثقافة عالية، بالإضافة إلى أنه صاحب مزاج. ولا يدخن إلا أفخر أصناف الحشيش. وتوطدت الصلات بينهما إلى درجة أنهما كانا يقضيان النهار في المكتب والليل على القهوة الوحيدة في قرية بدر . كانت فرصة ذهبية لشوقي أفندي أنه تعرف على الزميل المثقف صاحب المزاج. فقد فتح أمامه الطريق إلى عوالم جديدة، إلى الفن والموسيقى والسياسة●●



بعد أسابيع قليلة من أول لقــاء دعا شوقى زميله إلى سهرة فى منــزله. وعندمــا جاء عبـاس الدرمكى إلى بيت شوقى جاء محملا بأصنــاف كثيرة من الفاكهة. وقرش حشيش محترم وأوراق معسل كثيرة، وجـاء معه أيضــا بصديقين أحدهما طالب فى الجامعة وآخر صحفى يكتب فى جـريدة قليلـة الانتشار. وقضى الجميع السهـرة فى سرور عظيم، وكان شوقــى يود لو قضى السهرة معهم حتى الصباح ، ولكـن حالت دون ذلك الظروف الصعبة التى يعانى منهــا شــوقى بالرغم من بلوغــه الخامسة والعشرين. فهو يعيش فى بيت أبيــه ناظــر المدرسة الإلــزامية ، والبيت يقع فى أطـراف قريــة على مرمى حجــر من أهرامات الجيــزة . وبالــرغم من قربها من المدينة إلا أنها تظل قــرية صغيرة، السهر فيهــا ممنوع ووجود غــرباء فيها حتى ساعــة متأخرة أمر يلفت الأنظار. ولــذلك اضطر شوقى إلى انهاء السـهرة فى العاشرة والنصف مســاء وبعد أن انتهى الضيوف من العشاء.

يالــه من رجل كريم وصــاحب أخلاق رفيعــة هذا الصــديق عباس الدرمكى الذى ألقت بــه الصدفة فى طريق شوقى، بعــد انتهاء الســهرة وعند بــاب الدار مد عباس يــده ودس فى يد شوقى مــا تبقى من قرش الحشيش. لم يستمتع شوقى فى حياته بتعميرة مثل هذه التعميرة التى دسها عباس فى يده .

ذات مساء وشــوقى يجلس مع صديقــه عباس فى القاعــة الشرقية

راح عباس يحكى لشوقى عن العالم الجديد الذى يسعى عباس مع رفاقه لتحقيقه، عالم الورود والموسيقى، مجتمع الطفولة السعيدة والعمل المريح والحرية للجميع كان شوقى مسطولا بشدة عندما عرض عليه الصديق عباس الدرمكى الانضمام إلى حزب التيار الثورى، ووافق شوقى على الفور، ثم سأل عباس..

ـ الصنف ده اسمه إيه ؟

ورد عباس على الفور

ـ ست الحبايب .

يالها من فرصة ذهبية سنحت لشوقى، وبعد وقت طويل تصور فيه أن جميع الفرص هربت من طريقه المليء بالافخاخ.. حزب التيار الثورى.. ومن يدرى قد يفوز يوما فى الانتخابات ويصبح شوقى عضوا فى البرلمان أو مسئولا فى الإدارة المحلية .

ومن حسن الطالع أن عباس الدرمكى ليس رجل سياسة فقط، ولكنه أيضا صاحب مزاج، ومزاجه من النوع العالى جدا، فهو يعرف الأصناف الحلوة، وهذا الصنف الذى جاء به هذه الليلة، هو أرقى صنف تذوقه شوقى فى حياته .

شد شوقى نفسا طويلا وكتمه فى صدره ثم راح يخرجه على حلقات، بينما ارتسمت علامات السعادة البالغة على وجهه .

وقال مخاطبا عباس الدرمكى :

ـ أقدر أعمل دعاية من دلوقتى للحزب بتاعنا ؟

وسأله عباس :

ـ تقصد إيه بالدعاية ؟

ـ نعلق يفط، نعمل ندوات، نعمل قعدات على المصاطب، حاكم بلدنا تحب الزفة .

وقال عباس لشوقى :

ـ الحاجات دى مش أسلوبنا فى العمل، إحنا بنشتغل تحت الأرض.

وأصابت الدهشة شوقى لتعبير (تحت الأرض) هل يعمل الحزب فى بدرون؟ طيب لماذا لا يستأجرون شقة فى دور علوى ؟

وقطع الدرمكى على شوقى حواره مع نفسه، عندما مد يده نحوه وأصابعه تقبض على رزمة أوراق، وقال له :

ـ دى منشورات عاوزين نوزعها .

ألقى شوقى نظرة عابرة على الأوراق، كانت مطبوعة على ورق سيىء وبحروف أسوأ. وقال شوقى مستنكرا :

ـ دامين المطبعجى الحمار اللى طبعها؟ وتلاقيه خد منكم فلوس كثير، دا احنا عندنا فى بلدنا مطبعة تطبع منشورات زى الفل، وبفلوس أقل بكثير. إيه رأيك اديله المنشورات دى يطبعها لنا تانى ؟

أزاح الدرمكى الجوزة بعيدا عنه، وقال لشوقى :

ـ افهمنى يا شوقى، انت راجل كويس بس عيبك انك ما عندكش فكرة، احنا عاوزين نوزع دول بس من غير حد ما يعرف مين اللى وزعهم .

استوعب شوقى الأمر ونفذه بكفاءة أشاد بها الدرمكى نفسه. كان سوق القرية ينعقد يوم الثلاثاء من كل أسبوع. وفى الليلة السابقة على السوق حام شوقى حول سور السوق، ثم قذف بالمنشورات داخله. وفى صباح يوم السوق فرح الباعة فرحا عظيما بالأوراق الكثيرة المتناثرة فى كل مكان. تحولت المنشورات إلى قراطيس وأكياس لتعبئة الطعمية والملوحة والحلاوة الطحينية والعيش القمح. وغالبا لم يقرأها أحد. ولكن الأهم أن المنشورات تم توزيعها على نطاق واسع، وأن أحدا لم يعرف من الذى قام بتوزيعها وكان الأمر الثانى الذى تلقاه شوقى هو توزيع كمية أخرى يوم اجتماع رئيس مجلس القرية مع العمد والأعيان فى قرى مركز الجيزة. قبل الاجتماع بيوم واحد دعا

شوقى أحد الخفراء الذين يعملون داخل السلاحليك فى بيت العمدة، وشاركه فى سحب نفسين حلوين من تعميرة ست الحبايب. وبعد السهرة أعطاه رزمة الورق وطلب إليه توزيعها على الموائد المتناثرة فى القاعة الكبرى بدوار العمدة. وطلب منه كتمان الأمر لأن بعض ضيوف العمدة قد يستاءون، لأن الأوراق كلها تشيد بحضرة العمدة وبدوره فى تسيير أمور القرية. وعلق الخفير توفيق قائلا :

- إيش قولك يا عم شوقى. دا عمدة كرداسة بيكره عمدتنا موت .

وأثنى شوقى على فطنته ورجاحة عقله، ودس فى يده قطعة من حشيش ست الحبايب.

فى الاجتماع الحاشد الذى عقده رئيس المدينة لعمد وأعيان المركز، وحضره المأمور ورئيس المباحث، لفت نظر الموجودين هذه الكمية الهائلة من الأوراق المتناثرة فوق المقاعد وعلى المائدة وتناول رئيس المباحث ورقة وألقى عليها نظرة وركبه مائة عفريت، وانعقد الاجتماع فى جو متوتر، وانتهى قبل الموعد الذى كان محددا من قبل، وكان رئيس المباحث هو أول من غادر المكان، ولم يذهب وحده ولكنه اصطحب معه عددا كبيرا من الخفراء والخدم، واستأذن المأمور أن يستعمل سيارته البوكس فى نقلهم إلى المركز. وهناك.. فى مكتب رئيس المباحث لم يستغرق كشف السر وقتا طويلا، اعترف الخفير الذى كلفه شوقى بأداء المهمة، بأنه هو الذى قام بتوزيع الأوراق، وقال إنها أوراق فى مصلحة حضرة العمدة، وأن شوقى أفندى هو الذى أكد له هذه الحقيقة، بعد لحظات من هذا الاعتراف كان الخفير وضابط المباحث ورزمة المنشورات تنهب الطريق إلى الدقى حيث مبنى المباحث العامة. وأثناء وجبة السحور كانت سيارة بوكس تحمل ضابط مباحث من الدقى مع ضابط مباحث المركز مع الخفير تدخل القرية، وعندما طرقت القوة بيت شوقى، أسرع شوقى ليفتح الباب

بنفسه وعندما سأل عن الطارق جاءه الجواب.. بوليس! يا خبر اسود.. بوليس.. الله يخرب بيوتهم.. ترك شوقي البيت مغلقا وهرع إلى حيث قام بتعليق جاكتة البدلة على مسمار فى الحجرة، ودب يده فى جيب الجاكتة، وأخرج منها لفافة حشيش ماركة ست الحبايب، وطوحها فى الشارع. ثم عاد مسرعا ليفتح الباب مطمئنا بعد أن تخلص من جسم الجريمة . قبل فتح الباب للطارق المجهول. لم يكن شوقى يتصور أن الدولة فيها بوليس للسياسة، كان خوف شوقى الوحيد من بوليس المخدرات. لقد قبضوا عليه ذات مرة وهو يدخن التعميرة فى قهوة المعلم أمين. ولم ينقذه من هذه المصيبة إلا نتيجة تحليل المعمل التى أثبتت أن المادة المضبوطة ليست من المواد المخدرة !

هاهى مباحث المخدرات تعود مرة أخرى، بسبب عيون الناس الشريرة، ولكن الحمد لله، لقد طوح بالحشيش خارج البيت وستعود المباحث خائبة وسيموت الحاقدون بغيظهم! دخل ضباط المباحث الشقة وفتشوها بدقة، وأغرب شيء أنهم فتشوا فى الكتب وفى الأوراق، وتصور شوقى أنهم ضباط مستجدون وعديمو الخبرة. وهل معقول أن يخفى شوقى الحشيش فى الكتب، كان شوقى لسذاجته يحتفظ لنفسه ببعض المنشورات، وكان حريصا على إقتناء بعض الكتب بعضها قصص لجوركى وروايات لنجيب محفوظ وعبدالحليم عبدالله، وجمع ضباط المباحث كل الأوراق والكتب، واصطحبوا شوقى وشقيقه واتجه الجميع إلى الدقى عندما دخل شوقى حجرة ضابط مفتش المباحث كان العبد لله يجلس على مقعد والمفكر الكبير رشدى صالح يجلس على المقعد المقابل. وكان قد مضى علينا فى الحجرة عدة ساعات.. وكان شوقى أول ضيف يحل علينا.. ثم توالى وصول الضيوف، ولكن شوقى كان شديد القلق، وكان دائم السؤال عن أخيه الطالب. وعندما طلب منه رشدى صالح أن يهدأ ويصمت،

راح يحكى لنا بصراحة عن السبب فى القبض عليه .

مفيش غيره الغفير الكلب، اديته حتـة تعميره عمره مـاداق صنفها، لكن تقول إيه بقى لعديم الأصيل. وبعـدين أنا مش عارف جايبنى هنا ليه؟ دول مـالقوش حـاجة عنـدى. الله يخرب بيوتهم، خلـونى رميت حتة مـانزلش مصر زيها مـن زمان. وبعديـن فتشوا البيت مـالقوش حتى ولا سيجارة أنا مش عارف جايبنى هنا ليه ؟

وألقى رشدى صالح نظرة شاملة على شوقى وسـأله :

ـ انت عارف جابوك هنا ليه ؟

ـ الغفير الكلب بلغ المباحث ان معايا حشيش .

ـ يعنى انت مش شيوعى !

ـ شيوعى .. أستغفر الله العظيم، دنـا أبويا شيـخ وجدى شيخ، أنا عمرى ما كنت إخوانجى أو وفدى، مافيش غير اليومين اللى فاتوا دول دخلت التيار الثورى !

مد رشدى صالح يده ووضعها على فم شوقي وقال فى همس :

ـ أوعى تجيب السـيرة دى .. فاهم .

وتساءل شوقى فى عبط :

ـ ليه يا بيه ..؟

ـ دى فيها ٥ سنين سـجن

عندما سمع شوقى تحذير رشدى صـالح، انفجر باكيا كأن عقربا أصفر لسعـه فى وجهه. وراح يبكى بحرقة.. حتى انتفض جسـده كله. وعندئذ نهره رشدى صالح بشدة

ـ يا ابنى بطل عياط احنا دماغنا واجعانا

كف شوقى عن البكاء تلبية لإشـارة رشدى. ولكنه هب واقفا كأنه قرر الانصراف، وبعد أن مسح دموعه نظر إلى العبد لله وسـألنى :

ـ هنخرج امتى يا بيه ؟

وأضحكني السؤال جدا وقلت له :

ـ لما نخش الأول نبقى نسألهم جوه.

توالى وصول المعتقلين طوال النهار، وفى لحظة الافطار جمعونا فى سيارات شرطة ضخمة ونقلونا إلى سجن القلعة. وعندما أصبحنا داخل السجن كان المؤذن يرفع أذان العشاء من مسجد الامام الشافعى. وتم حشرنا فى زنازين وعنابر أغلقوها علينا. وثلاثة أيام طويلة مرت علينا والأبواب مغلقة. وعندما سمحوا لنا بمغادرة الزنازين وأصبحت فى الممر الضيق الذى يفصل بين العنابر، فوجئت بشوقى يرتدى فانلة مخططة مثل فانلات كباتن الكورة. ويتدلى من قبضة يده براد شاى أزرق اللون كبير الحجم. وفى يده الأخرى عدة أكواب زجاج صغيرة، بينما هو ينادى كالباعة السريحة فى الشوارع :

ـ مين عايز شاى يا زملا ؟ شاى مضبوط يا زملا ..

زملا .. الله يخرب بيتك يا شوقى، استطاع أن يخدعنا وأوهمنا بأنه مجرد حشاش ليس إلا. وفى الأيام التالية كان شوقى يبدو سعيدا ومرحا وجيبه عامر بالسجاير البلمونت، وبدا وكأنه اعتاد على المكان وتأقلم معه.

وذات يوم عثرت على شوقى وسط زحام السجن منزويا ومهموما على غير العادة. وعندما سألته عن سبب همومه راح يحكى لى بدون انقطاع عن المعاملة السيئة التى يلقاها من «الزملا».

ـ قبل ما خش السجن كنت خايف، كنت فاهم ان الضرب جوه ليل ونهار وهينيمونا فى زنازين تحت الأرض، ولكن الحمد لله لما شفت السجن على الطبيعة انبسطت وقلت مفيش مانع نجرب. تانى يوم الصبح واحد من الزملا جالى وقالى انت فى الحزب، وقبل ما أرد عكمنى ١٠ سجاير بلمونت، بعد ساعة جالى واحد م الزملا وقالى انت فى (حدتو) وقبل ما أرد راح معكمنى ١٠ سجاير. شويه وجالى

واحد مـن الزملا وقـالى انت فى (طش) وقبل ما أجـاوب راح معكمنى ٥ سجاير. وشوية وجانى واحـد تانى وقالى · إنت معانا فى (و. ش) وراح معكمنى ٥ سجايـر والدنيا احلوت فى السجن وبقت اخـر مزاج. ال إيه، جـانى الزمـلا امبارح الصبح وسمعـونى محاضرة فى السلوك الاشتراكى. وواحد منهم قاللى انت نصـاب وخدت السجاير من جميع التنظيمات وانت مش فى أى تنظيم .

قلت لهم : وذنبى أنـا إيـه ؟ كل واحـد منكم جـانى وقـاللى انت فى الحزب، انت فى طش، انت مش عـارف إيـه أنا مـاجـاوبتش عليكم ولا قلت أى كلمة .

وانتـو اللى عكمتونى السجـاير، أنـا طلبت منكم حـاجة ! وبـالليل سهروا فى العنبر ونصبوا النصبـة وعملوا محاضرة عنى وعن سلوكى، آل سلوكى آل.

طيب إيـه رأيك أنـا كنت هاطبق فى رقبـة واحـد منهم واللى يحصل يحصل.

وقلت لشوقى أهدىء خاطره :

ـ بس انت اللى غلطان يا شوقى ـ كان لازم تحدد موقفك .

ـ هو حد ادانى فرصة أحدد موقفى .

ـ ماكنتش خدت منهم السجاير .

ـ يـا عم قول يـا باسط دا معـاهم سجايـر تملا عشر دكاكين. ثم وفيها إيـه لما اخد منهم سجـاير، مش همه اللى ودونى فى داهيـة، مش كفاية رفدونى من الوظيفة .

ـ ما انت اللى غلطان يا شوقى، انت اللى وافقت تنضم لهم .

نظر نحوى نظرة غيظ وقال بصوت مجروح :

ـ تبقى انت مش مصدقنى. طيب احلفلك بإيـه ان اللى قلتهولك هوه اللى حصل، أنا افتكرت التيار الثورى حاجة زى الأحرار الدستوريين،

زى حزب العمال بتاع عباس حليم. وافتكرت انه هيستلم الحكم .

واحنا هنتنغنغ زى الجماعة بتوع الوفد زمان بذمتك مش كان واجب عليهم يقولوا لى إنهم شيوعيون .

وانخرط شوقى فى بكاء عنيف وبصوت كالعواء، ولفت بكاؤه الأنظار فاتجه البعض نحونا يسأل ويستفسر، وقطعت الطريق على الجميع وزعمت لهم أن عمته التى كانت أثيرة لديه توفاها الله منذ أسبوع. وبعد لحظات أقبل نحونا مندوب الحزب وطيب خاطر شوقى وقدم له علبة سجاير كاملة، ثم جاء مندوب (حدتو) ومعه عشر سجاير وكوب شاى، ثم جاء مندوب (طش) ومندوب (وش) وقدما التعازى لشوقى... ياله من تغيير مفاجىء .... منذ لحظات كان يبكى بحرقة، ثم جاء الشاى والسجاير وأصبح شوقى شخصية أخرى، ثم انه راح يلتمس العذر لـ (الزملا) الذين كان يهاجمهم منذ لحظات .

ـ طيب تعرف.. مش همه ودونى في داهية وخربوا بيتى، بس همه عيال جدعان. على فكرة أنا أما سمعت كلامهم اللى بيقولوه فى العنبر حسيت أن عقلى كبر. دا فيهم ناس ـ يا قوة الله ـــ عليهم مخ.. يوزن بلد .

يبدو أن شوقى بعد مرور أسبوع من بكائه فى ممر السجن الذى يفصل بين الزنازين قرر الانتماء، فاختار الانضمام إلى الحزب لأن مقطوعية السجاير تبعه كانت أكثر. وأصبح شوقى يحضر الاجتماعات والندوات ويؤدى واجبات محددة. ولكن لأن شوقى كان صاحب شخصية مرحة ومفلوتة العيار، فقد وجد نفسه فى معركة مستمرة مع أحد المسئولين فى الحزب. كان الرجل عكس شوقى تماماً، شديد الجد شديد التجهم عابس الوجه. عيناه لا توحيان بشىء كأنهما عينا سمكة ميتة. وعندما سألت شوقى عن سبب الخلاف قال وهو يزفر زفرات حارة .

ـ وهو معقول يبقى فيهم راجل بالشكل ده وعاوزين ينجحوا .

دا بيعتبر الضحك عيب والنكتة انحراف .

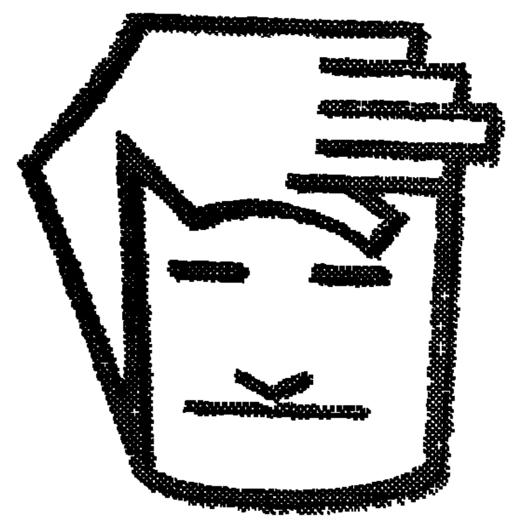
واكتشفت أن الخلاف بين شدة الانضباط وشدة البحبحة، وقلت لشوقى :

ـ استحمل يا شوقى، دول ناس فى سنة أولى ماركسية، وبعدين السرية والقمع هيه اللى موتراهم بالشكل ده.

ثم انت ناوى تمشى معاهم على طول ورد شوقى على الفور .

ـ أنا واللى خلقك معاهم لحد السجاير ما تخلص .

بعد ثلاثة شهور بالضبط فى سجن القلعة تم ترحيلنا إلى معتقل الفيوم. وهو فى الأصل كان معسكر للجيش الانجليزى يقع على مشارف الواحة وعلى حدود الصحراء. كان منظر المعتقل رهيب، وإدارته عصبية ومرتبكة بقيادة أحد الصولات الذى ترقى ودخل سلك الضباط، وكان برتبة صاغ بالرغم من أنه تجاوز الخمسين من العمر. وزاملنى شوقى فى عنبر٤، وكان العنبر تحت قيادة حدتو، وهكذا انتقل شوقي من الحزب إلى حدتو، وانخفضت مقطوعية السجاير إلى النصف. ولكن شوقى كان مرتاحا للتغيير، كانت حدتو عكس الحزب، كانت أقرب إلى تنظيم شيوعى مصرى، أغلب أفرادها من الفنانين. وحركتها فى المجتمع أشبه بحركة ثقافية.. بينما كان الحزب أقرب إلى تنظيم روسى فى بداية الثورة أو تنظيم ألمانى من العنصر الثورى.. ومع أن شوقى كان يشعر بالراحة مع حدتو، واستفاد كثيرا لقربه من التنظيم، إلا أنه فجأة قرر أن يخلع نفسه من كل التنظيمات وأن ينضم إلى تنظيم (زمش) وكانت الأسباب التى فرضت على شوقى اتخاذ هذه الخطوة.. أغرب من الخيال !



١٠ الشـــــهيد

●● كان عم شـوقي قد قرر الخروج من هذه المصيدة التى وجد نفسه فيها دون رغبة منه بأى ثمن إنه لم يخلق لمثل هــذه الحيـاة مهما كــانت الثمــرة التى سيحصل عليها فى نهاية الأمر. هب أنه أصبح وزيرا .. ملعون أبو الوزارة والوزير. إنه صايع بطبعه يحب الليل و يعشق البلبطة فى النيل وأشهر طعام لديه هو ما يصطــاده بيــده ، سمك بلطى من النــوع الــرخيص يصطـاده بسنـارة من صنع يــده ، أو يمامة يطـاردها بنبلة من أستك السروال . وهـو طفل صغير كانت كل سراو يلـه بـدون اسـتك ، وكـانت أمـــه تخلع غطـاء رأسـها ، وتطلب من السماء أن تأخـذه إلى نار جهنم، أو تصيبــه بعمــى فى عينيــه وهــو لم يتصـور فى لحظـة من اللحظـات أنـه سيدخل السجن . فهــو بالــرغم من تبجحــه وتمرده ، إلا أنــه لا يتعدى الخطوط الحمراء .ويتحاشى الصدام بــرجـال الشرطـة وخصـوصـا المخبرين لأن أكفهم غليظـــة وقلـــوبهم لا تـــرحم ! ●●



وجاءت الفـرصـة لعم شوقى للخـروج من هذا الجب الذى دفنوه فيـه بالحياة . كانت السياسة الأمـريكية قد تمادت فى غطرستهـا ، لدرجـة أن عمال الشحن فى ميناء نيـويـورك رفضـوا تفريـغ حمولة البـاخـرة المصريـة كليوبـاترة ، لا لسبب إلا لأن عبد النـاصر زعيم مشاغب لا يريـد الخضوع لـرغبات البيت الأبيـض . وثار عمال العالم العـربى غضبـا على هـذه الغطـرسة الأمـريكية ، ورفضوا شحن أو تفـريغ أى باخـرة أمريكية تـرسو فى الموانىء العـربيـة . ووجد تنظيم (حـدتـو) فى هـذه المناسبـة فرصة لإعلان تأييـدهم لعبد الناصر ضـد الغطرسة الأمريكيـة . وتصور عم شوقى أن تأييـد عبد الناصر فى هـذا الموقف كفيل بفتح أبواب السجن والإفراج عن جميع النزلاء . ولذلك ذهـب إلى مكتب المأمور وكتب بيانا ملأ خمس صفحـات فولوسكاب ، ولم ينـس أن يؤكد فى البيان تـوبته عن اتخاذ أى موقف يتناقض مع سياســة الحكومة ، ووعد بأن يكون جنـديـا مخلصـا فى كتائب الاتحاد القـومى . وحـرص على استنكـار النظـرية الشيـوعيـة ووصفها بأنها خطـة شيطـانية لإعـلان الحرب الأبدية بين الطبقات ، وتعهـد بمقاومة الشيوعية ولو كلفـه ذلك حياته نفسهـا . وكان عم شـوقى كـاذبـا بالتأكيـد ، فهـو لم يكن يهدف إلا للخروج من بوابـة السجن ، وهو لم يؤمن فى حياتـه بالاتحاد القومى أو هيئة التحريـر أو أى حزب أو تنظيم ، ولكنه كان يشـارك أحيانا فى العمل السياسى أيام الملك وأيضا أيام هيئة التحرير من باب المهيصة

والمشـــكحة والشـــقاوة ، التى ليس مـن ورائهـا أى هـدف إلا شفط أقداح القرفة وضرب حجرين على الماشى .. للمزاج !

الله يخرب بيت السياسة وبيوت أصحـابها . لو خيروا العم شوقى بين مكتب رئيس الوزراء وكـرسى على رصيف قهوة كتكـوت ، لاختار قهوة كتكوت .

شىء واحـد فقط كـان يغيظ عم شـوقى ، وهـو ضبـاط الشرطـة والمخبرون ، لا يبدون أى احترام لـرواد قهوة كتكـوت . وآه .. كم حلم العم شـوقى بالجمع بين منصب رئيس الـوزراء والجلوس على قهـوة كتكوت ، حتى يبتعد عنه المخبرون ، الله يخرب بيـوتهم .. لسوعوه مرة بالخرزانة وهو جالس على رصيـف القهوة وآخر انسجام . ليس هناك أى تفسير لموقف المخبرين من رواد القهاوى الغلابة ، مع أن المفروض أن الذى اختـار القهوة محلا مختارا له هـو مواطن صالح بـالتأكيد . لماذا يطارد المخبرون الجالسين على القهاوى ، فى الوقت الذى يرتع فيه ربع مليون حرامى ونشال وهجام وقاطع طريق دون أن يتعرض لهم أحـد ؟ يبدو أنـه لا كـرامـة للضعيف على أرض البشر فى اليوم التـالى استدعى مأمـور السجن العم شوقى إلى مكتبـه ، وتصور شـوقى أنه أخطأ فى كتـابة البيـان ، وستكـون ليلتـه أسود من قـرون الخروب . وذهب بصحبـة الشاويش إلى مكتب المأمور ، وفـوجىء شـوقى بأن المأمور استدعـاه ليشكره . فاللهجة التى كتب بها البيـان راقية جدا ، وتؤكد على أن كاتبها مواطن صالح بالفعل ولا يضمر عداء للنظام من أى نوع .

وقال له المأمور فى لهجة طيبة ..

- فيه خبر علشانك

وكاد شوقـى أن يطير فرحا ويحلق فى الفضاء العـالى ، فقد تصور أن بوابة السجن ستنفتح على مصراعيها خـلال أيام قليلة ليخرج منها

إلى الهـواء الطلق . وأراد شـوقى أن يؤكـد موقفـه ، فطلب من المأمور أن يعطيـه عدة أوراق فـولسكـاب ، لكى يقنع أعضاء الحزب الـذين ، يرفضـون تأييد الحكومـة . وابتهج المأمور بشدة ونـاول عم شوقى رزمة ورق ، وطلب منه أن يعيدها مكتوبة أو بيضاء ، وأن يحرص على عدم فقد ورقـة واحدة منها ، وحتى لا تتحول إلى منشـور ملتهب ضد النظـام . عندمـا عاد عم شـوقى إلى العنبر ، كان النـزلاء من الزمـلاء ينتظـرون على أحر من الجمـر لمعرفـة سر استـدعاء العم شـوقى إلى مكتب المأمور .

وتجاهل العم شوقى الأسئلة التى انهالت عليـه من جانب الزملاء تـريد تفسيرا لهذا الاستـدعاء المفـاجىء ، ولكن العم شـوقى لم يهتم بالأسئلـة ، وشق طريقه وسط الـزحام ، وسلك الدهليـز الضيق الذى يفصل بين الزنازين وصـاح عاليا :

يا زملا .. اللى عاوز يستنكـر ونطلع كلنا بإذن واحد أحد وكل حى يروح بيته ويشـوف عياله أحسن من القعـدة المهببة دى .. اللى عاوز يستنكر يقول هات ورقة يا عم شوقى .

انجذب نحو شوقى عـدد من المعتقلين المسحوقين يطلبون أوراقا، فأمهلهم شـوقى قليـلا لكى يسجل أسماءهم على ورقـة معه، ولكنـه اكتشف أنه لا يحمل معـه أى أقلام ، والتفت عم شـوقى إلى الشاويش محمود الصيفى وطلـب منه قلما ، ولكن الشاويش الـذى لم يكن يعلم بسر الاتفاق بين المأمور والعم شـوقى ارتعد كثيرا لهذا الطلب . فالقلم والورقة كانا على رأس الممنـوعات فى هذا المعتقل الرهيب ، وتصور أن عم شوقى اللئيم يريد الإيقاع بـه ، فلطشه بالقلم على صرصور ودنه ، ثم صاح بأعلى صوته :

قلم يابن الكلب .. عـاوز ترمينى رميتكوا المهببة دى ! كـان شوقى الـذى تـرنح بسبب عنف القلـم ، خصـوصـا أن الشـاويش محمـود

الصيفـــــى كان يزن مائة كيـلو على الأقل وكان كفه فى حجم جزمة مقـاس ٤٦ ، قد سقطت من يـديه الأوراق التـى أخـذها من المأمـور ، فخطفها بعضـهم ودخل إلى الـزنازين ، وجـرى شوقى نحو الـزنازين يطلب منهم الأوراق التى اختطفـوهـا ، فهى عهـدة من البيـه المأمـور وسيدفنه حيا لا محالة إذا ضـاعت هذه الأوراق . ولكن شوقى فوجىء بثورة عارمـة ضده ، اتهمه بعضـهم بأنه عميل للمخابـرات المركزية ، والبعض الآخر أكـد أنه يعمل لحساب حلـف الأطلنطى ، ولكن شوقى لم يهتم بهذه الاتهامـات ، المهم عنـده هو الحصـول على الأوراق التى فقـدهـا ، وليكن عميـلا للشيطـان نفســه ، فـلا شىء يهم إلا الأوراق المفقودة . واضطـر شوقـى إلى الدخول فى عـراك مع الـزملاء ، وتجرأ أحـدهم وضرب شوقى بكف يـده على وجهه ، ثم انهالت اللكمات بعـد ذلك من الجميع .

كانت ليلة ليـلاء لم ير شوقى مثلها فى حياته ، كـان وحيدا فى غرفة التأديب ، ولا سجائر معه ولا رشفة شـاى ، والحجرة ظلام، وإن كان وقع دبيب الحشرات السارحـة فى الزنزانة يصل إلى سمعه الـذى تأثر كثيرا بسبب أقلام العسـاكر ولكمات الزمـلاء وشومة المأمـور ، الذى أصر على تعليق شـوقى فى الفلكة ، لأنــه خدعـه وسرب الأوراق للحزب الشيوعى لكى يستخدمها فى كتابة المنشـورات وكانت هذه هى النهاية الكئيبة . وأسبوع كـامل والعم شوقى فى الزنزانـة لا يقتات إلا بأرغفة الخبز والماء ولا يرى أحدا ولا يكلم أحـدا ، حتى العسكرى عبد الفتاح المعتـوه الذى كـان يبـدى الـود للعم شـوقى رفض مبادلـة شـوقى الحديث، بـاعتباره خـائنا وعميـلا للمخابـرات المركزيـة الأمريكيـة ! أسبـوع كامل والعم شـوقى يفكـر فى أحوال الـدنيـا والناس ، هـؤلاء العيال الشيوعيون يلقـون بأنفسهم إلى التهلكة ، لا يبالون بما يحدث لـذويهم ، مـع أنــه يعلم علم اليقين أن بعض الأسر اضطـرت إلى تـرك مسـاكنها والإقامة فى الشـارع ، وأكثر من مئتى حالة طلاق وقعت بين

الـزوجـات المقيمـــات وحـدهن فى الخـــارج والأزواج المحبـوسين فى الزنازين، ومع ذلك لا أحد منهم يهتم ، يقولون إن مستقبل الوطن أهم وما هو الوطن ؟ إذا لم يكن أسرة سعيدة ومتماسكة وتمارس الحياة فى أمان ؟ لم يحب مصر أحد مثل العم شوقى ، ولكنـه بعد الذى حدث له فى السجن ، وبعد أن أصبح ملطشـة للعساكـر والنزلاء ، ملعـون أبوه الـذى لا يلزم داره ، حتى إذا شبت النـار فى كل مكان . ولكن .. مـاهى هذه المركزية التى يتهمه النـاس بها ؟ ويرددون فى كل مكان أنها تدفع بسخاء للمتعاملين معها ؟ أين تقع هذه المركزية وفى أى مكان ؟ لابد أن هـؤلاء الشيـوعيين يعـرفـون مكـانها وأنهم يترددون عليهـا ، وربما يقبضون منهـا ما يساعـدهم على احتمال المحنة التى يتعـرضون لها الآن . ياسـلام .. لو ابتسمت الأيـام وقدر للعم شوقى الخروج حيا من هنـا . ولـو ضربـة حظ وعـرف العم شـــوقى الطـريق إلى المركـزيـة خصـوصـا أنـه قـرأ فى منشوراتهم التـى جاء بها زميلـه فى مـديريـة التحـرير أن رئيس كـوريا الجنـوبية يأخـذ منها ورئيس جـواتيمالا يغترف من كنوزها ، وإذا كان الرؤســاء يأخذون من أموال المركزية ، فلماذا يرفضها العم شـوقى ؟ مرت أيام التأديب كئيبة ومملـة وعندما غـادر العم شـوقى زنزانـة التأديب قـرر أن يقطع صلتـه بأى تنظيم شيـوعى ، وأن ينضم إلى زمش ، وقـرر أيضـا أن يبقى فى زمش حتى وهو خارج الأسوار ، والله يرحمه ويحسن إليـه المقاتل الذى خرج من المعركـة ونادى عليـه أحدهم يـاجبان .. فـرد قائلا .. أن يقـال جبان وهرب خير من أن يقال بطل ومـات يرحمه الله، ومرت سنوات السجن سريعـة على العم شوقى وهـو فى تنظيم زمش حتى الـزنـزانة لم يعـد يغـادرها كثيرا إلا لجمع أعقـاب السجايـر ، فقد كـانت السجايـر من الممنوعات ، ولكن حتى أعقاب السجاير أصابها ما أصاب كل شىء فى الحياة ، أعقاب سجاير رخيصة لم يتبق منها غير الفلتر ، وأحيانا يعثر

العم شوقى على أعقاب فيها رمق ، يبـدو أنها كانت بين أصابع سجان فاجأه المأمـور فألقى بها على الأرض ولكن نظرية العم شـوقى كانت تقـوم على أســاس شىء خير من لا شىء وأحيـانـا كـان يضطـر إلى تجفيف أوراق الشجـر وتدخينهـا ولكن جاءت الفـرصة للعم شــوقى ذات مساء وبعـد التمام وإغلاق الزنازين ، دخل العنبر أحـد الضباط الصغار وطلب من مندوبى التنظيمات الخروج لمقـابلة المأمور لعرض مطـالبهم عليه ، وخـرج منـدوب الحزب ومندوب طش ومنـدوب وش ورفض مندوب حدتو الخروج لأنه ليس له مطالب وطلب العم شوقى الخروج باعتباره مندوب زمش لكى يعـرض مطالبها على البيه المأمور ، خرج الضابط من العنبر يتبعـه مندوبو التنظيمات ومن خلفهم العم شوقـى بقامته الطـويلة وظهـره المحدودب كأنــه ديك هندى مـريض وبينما اتجه الجميع يســـارا اتجه العم شـوقـى يمينـا وراح يــرقب باهتمام تحت قـدميه ، فلم يكن هدف العـم شوقى مقابلـة المأمور أو عرض مطالب عليـه ، ولكن كان هدفه الحقيقى هـو جمع ما تيسر من أعقاب السجائر فى هذا الجو الخالى الذى لا يـزاحمه فيه أحد واندهش المأمور جدا لهذا المعتقل الذى اتجه يمينا ، بينما المأمور وسط حراسه الأشداء يقفـون ناحية اليســار ، ولم يكن المأمور فى واقع الأمر يـريد أحدا غير هؤلاء الثلاثة الذين كـانوا لحظتها يتجهون نحوه فى خطوات ثابتـة ، وكذلك صاح هـائجا مطالبـا العساكر بإعـادة هذا الحمار إلى العنبر ، كان المأمور قـد دبر هذا اللقاء لضرب هؤلاء المنـدوبين الثلاثة علقة موت ، حســب التعليمات الرسمية التى وردت إليه وكـان قد أعد العـدة بعساكـر أشداء وشـوم من النوع الـذى يكسر ولم يكن يريـد شـاهـدا واحـدا على مـا ســوف يجرى خلف مكتبـه بين العســاكـر والمعتقلين الثـلاثة ولـذلك أمر بإعــادة العم شوقى إلى العنبر بسرعـة وبأى طريقة ، ولذلك تكرر صيحاته دخلوا الحمار ده دخلوا البغل ده ،

دخلوا الطـور ده واستبد الذعـر بالعســاكر فانهالـوا ضربا على العم شـــــوقـى ولكن كل أنواع الضرب تهـون إزاء هذا الكنز من أعقاب السجـاير الـذى رآه العم شـوقى متنـاثرا على أرض الحوش فى هـذه اللحظة التى لا يوجد فيها أحـد من المساجين غيره ، ونزلت شومة على كلية العم شوقى فانطرح على ظهره يئن أنينا رهيبا وتصور العساكر أنه يتظاهـر بينما كان الدم يتدفق من فمه بغزارة وبعـدها لم يتوقف الضرب إلا عنـدما كف العم شوقى عن الصراخ عندئذ حمله العساكر وأدخلوه زنزانتـه وألقوا به على الأرض وعندما التف حولـه الزملاء فى الزنزانة أدركوا بوضــوح أن العم شوقى فارق الحياة.. بعد أن انتهت العلقـة التى دبرهـا المأمـور للمندوبين الثـلاثـة نقلهم العساكـر إلى مستشفى السجن وعندما طلب نزلاء زنـزانة العم شوقى نقل شوقى إلى المستشفى أمرهم المأمـور بأن يلزمـوا الصمت ولكنهم فى الصباح اضطروا لنقله إلى المشرحة وبعد يـومين فى المشرحة أكلت فيها الفئران انفه وأذنيـه سمحوا بـدفنه بعد أن كتب الطبيب تقـريره بأن الـوفاة حدثت نتيجـة اصطدامـه بجسم صلب أثناء قفـزه من سور السجن بقصد الهرب !

مـات العم شوقى سمبلـة آك سورى إكـوانى على رأى إخواننـا فى جنـوب السـودان ، لم يـر الشـــارع كما كـان يتمنى ولم يجلس على رصيف قهوة كتكوت ولم يذهب إلى المركـزية ولم يعرف حتى أين تقع وفى مساء اليوم التـالى خيمت على السجن سحابة من الحزن العميق ، وجلس جميع النـزلاء داخل زنـــازينهم يستمعـون إلى كلمات التأبين التى القـاها بعضـهم فى ذكـرى الشهيـد العظيم ، الذى مـات فى سبيل مبادئه ضـد القمع الديكتاتـورى وضد الإرهاب الفـاشى وفى الصباح البـاكر وزعـوا سجايـر على روح الشهيد العم شـوقى ، مسكين العم شوقى ، لـو أعطوه سيجارتين من هـذه السجاير فى حياتـه لكان الآن حيا وسطهم .



١١ الأســـد الجــربـــان

●● سيد الديبكى مجرد عـامل غلبان من شبرا الخيمــة ، دخل الحزب الشيــوعى فترة قصيرة قبل أن يجد نفســه فى السجن مع عدد كبير من المثقفين من الــوزن الثقيل . كـان بـرغم السجن والتعذيب يشعر بالفخر لأنه محبوس فى مكان واحد مع هؤلاء المشاهير الذين كان يرى صورهم فى الصحف. وكــان يحــلو لــه أن يستمــع إلى منــاقشــاتهم الحامية ، ويتأثــر بشــدة من بعض التعبيرات الغـــريبـــة التى تتردد على ألسنتهم فيحفظهـا وينقلهـا عنهم وينطقها بطـريقتـه . فـرية (فـريم) فيـزيكال (فـازيكا) وكان ينطق الكلمة الأخيرة بطريقة مضحكة فأطــلق عليــه الجميــع اسم فازيــكا ، وصار اســمه سـيد فـازيكـا وعرف بهذا الاسم عنــد العســاكــر والنــزلاء ●●

واستهوت هذه العبارات الزميل سيد ، فراح يجمع منها مفردات كثيرة ، ثم راح يستخدمها فى حديثه وتسبب له هذا السلوك فى علقة سخنة فقد استدعاه المأمور واتهمه بتهريب أشياء ممنوعة لكنه نفى الاتهام بشدة وقال للمأمور دى فريم ! ولما ضربه المأمور بقبضة يده على صدره احتد سيد بشدة وصرخ فى وجه المأمور محذرا الضرب ده عمل لا يحمد كعباه ، كتم المأمور ضحكة ثم انهال عليه ضربا باللكاكيم والشلاليت بينما سيد راح يصرخ ويحتد ويحذر المأمور بأن نتيجة هذا العمل سيكون من أسوأ (العناكب) العواقب . وبالرغم من شدة الضرب الذى كان ينهال على سيد بين الحين والآخر إلا أنه لم يكف عن استخدام لغة المثقفين ، وتطور سيد كثيرا فأصبح يفتى فى كل شىء من السياسة إلى الدين إلى الفن إلى الأدب وتجرأ أكثر فألف مسرحية بعنوان النضال الزاحف ثم كتب قصة قصيرة ووجد بين زملائه من يشجعه وتمادى بعضهم فى التشجيع فعقدوا مقارنة بينه وبين جوركى وكتب أحدهم دراسة عن أدب سيد فزيكا التلقائى وقارن بينه وبين نجيب محفوظ الذى يكتب للطبقة البرجوازية المنحلة ، بينما أدب فزيكا هو التعبير الحقيقى والموضوعى عن الواقعية الاشتراكية . واندمج سيد فى الدور الجديد فعقد ندوة داخل السجن تحدث فيها عن أدب الأفنديات وأعلن قيام عصر الأدب الشعبى الذى يكتبه الشعب لكل الشعب . وانقسم السجن حول قضية سيد فزيكا فقال بعضهم

لا بأس من تشجيع سيد ولكن بشرط أن يكون التشجيع فى حدود مواهب سيد وقدراته الحقيقية، والبعض وصف هذا الموقف بأنه رجعي ومتخلف ، وأعلن أن عصر الأدب الفردى انتهى أمره ، وأن الأدب فى واقع الأمر ليس إبداعا فرديا أو حالة من الاتصال بين المبدع والوحى ، وأن الأدب فى المستقبل القريب وطبقا لنظرية الواقعية الاشتراكية سيتحول إلى عمل جماعى ، أما القصص التى يكتبها ابراهيم الوردانى أو يوسف إدريس فتصبح جزءا من التراث وستدخل فى متحف التاريخ . أصبح سيد فزيكا القضية الأولى فى السجن . وأهمل سيد واجباته التى كان عليه أن يقوم بها فى الزنزانة . كان عليه واجب تنظيف الزنزانة يوما فى الأسبوع والاشتراك مع أخرين فى تنظيف دورة المياه . وكان ضمن واجباته أيضا إعداد الشاى داخل الزنزانة ليلا ، ولكنه كف عن ذلك منذ أن صار أديبا يشار إليه بالبنان . كان هناك جانب آخر من الزملاء الذين كانوا لا يؤمنون بموهبة سيد فزيكا ولا يعترفون بفضله على مسيرة الأدب العالمى فكانوا يسخرون منه أحيانا وتنشب أحيانا بينه وبينهم خناقات بسيطة ، وعندما أقترب موعد الافراج عن الشيوعيين كان سيد فزيكا يحتفظ فى أماكن سرية ، داخل الزنزانة بعدة دفاتر من ورق البفرة تحمل عصير أفكاره ، وكان مستعدا للموت فى أى لحظة من أجل الدفاع عن هذه الدفاتر .

أخيرا ... انفتحت أبواب المعتقلات وخرج الشيوعيون من المعتقلات والسجون وبدأت مرحلة جديدة فى مسيرة العمل الثورى ، الاغلبية مع حل التنظيمات ، والدخول فى تنظيم الحكومة باعتبار أنه نظام وطنى يحقق الاشتراكية بطريقة أو بأخرى . وانتهى الخلاف بانتصار الأغلبية وحل التنظيمات ، وبدأت عمليات اندماج بين الشيوعيين والحكومة وعاد أغلبهم لأعمالهم ورأت الحكومة إبعاد

بعضهم عن المراكز التى يشغلونها ونقلتهم إلى مراكز أخرى .

أما أصحاب الرأى وأصحاب الكلمة فقد ألحقوهم جميعا بدور نشر ودور صحفية .. وبدأت الحياة تعود إلى وضعها الطبيعى .

وابتسمت الدنيا للمناضلين من أعضاء التنظيمات اليسارية الذين قضوا أغلب وقتهم فى السجون والمعتقلات على مدى السنوات الطويلة التى أعقبت الحرب العالمية الأخيرة .. وإذا كانت جميع المشاكل قد حلت أو كادت فقد بدأت مشكلة بلا حل هى مشكلة سيد فزيكا . قبل السجن كان عاملا فى مصنع نسيج بشبرا الخيمة ، وهو الآن يفضل الموت على العودة إلى هذا المصنع الكئيب الذى واجه فيه صنوفا من الهوان والعذاب . كان فزيكا يتصور أن النقاد الكبار الذين رفعوه إلى مصاف جوركى وتشيكوف سيعملون بعد خروجهم من السجن إلى حشره فى زمرة المثقفين والأدباء والحاقه بعمل يتفق مع مواهبه الجديدة ، وظيفة محرر فى جريدة أو مؤلف فى دار نشر ، ولكن يبدو أنهم نسوه بعد أن تحول كل منهم إلى تنظيم مستقل بذاته . وراح فزيكا يدور على زملائه القدامى فى مواقع أعمالهم واستقبلوه فى البداية بترحاب وبشوق ، وبعضهم راح يستعرض معه ذكريات أيام السجن الطويلة ، وبعضهم بعد الزيارة كان يدس فى جيبه بعض أوراق النقد ، خصوصا بعد أن يعرف أن فزيكا لم يعد إلى المصنع القديم ولم يعثر على عمل جديد ولكن بمرور الأيام وتعاقب الشهور والسنوات ، بدأت زياراته للزملاء القدامى لا تجد ترحيبا كبيرا ثم لا تجد ترحيبا من أى نوع ، ثم شعر بفتور الآخرين نحوه ، واضطر أحد الزملاء إلى الصراخ فى وجهه وتمزيق مامعه من أوراق وطرده شر طردة من مكتبه وهدده بتسليمه للشرطة إذا عاود زيارته مرة أخرى .

كان من عادة سيد فزيكا عندما يقوم بزيارة أحد زملائه القدامى فى موقعه الجديد أن يحمل معه بعض نماذج من إنتاجه الجديد .

وكانت قصة الأسد الجربان هى آخر إنتاجه الأدبى بأسلوب الواقعية الاشتراكية التى كشف عنها السادة نقاد السجن الذين دخلوا معارك ضد زملائهم من أجل أدبه الجديد .

كانت القصة عن رجل يعمل فى مهن شتى فهو بائع أحيانا ، ولص يسرق أشياء تافهة أحيانا ، ثم صاحب قهوة صغيرة على الطريق مجرد مائدة صغيرة عليها باجور جاز وبراد شاى وعدة أكواب وفنجانين وزير ماء إلى جانبه ، وكان يتوقف عنده سائقو سيارات الأجرة الصغيرة خصوصا فى النهار . أما فى الليل فكان يتوقف عنده اللصوص وقطاع الطرق ورجال الشرطة وساومه رجال الشرطة ليعمل مرشدا لهم ولكنه لشدة كرهه لرجال الشرطة الذين تعامل معهم داخل السجون قرر أن يتخذ جانب اللصوص والمجرمين وفاتح رئيس العصابات فى المنطقة على أن هناك مكانا ما فى الجبل يستطيع فيه أن يعد الشاى والقهوة لرجال العصابات .. وبالفعل انتقل من مكانه إلى مكان آخر فى الجبل .. ولكنه اكتشف أنه فعل شيئا غير مدروس وأن حصيلته اليومية فى الجبل لاتتعدى بضعة قروش . وعندما شكا حاله لرئيس العصابة عرض عليه أن يترك هذه المهنة الخايبة التى لا تغنى ولاتشبع من جوع وأن يشترك مع أفراد العصابة ويحصل على نصيبه وهو بالتأكيد نصيب كفيل بتوفير حياة طيبة للقهوجى . وفى أول طلعة مع اللصوص وقعت كابسة من الشرطة وقتل بعض اللصوص وفر البعض الآخر وسقط القهوجى فى أيدى الشرطة . ورفض سيد أن يعامل كاللصوص فهو ثائر وليس لصا .

فوقف يناقش ضابط المباحث ولكن ضابط المباحث لم يكن لديه الوقت أو الاستعداد لمناقشة أى أحد أو الاستماع إلى أى شىء ولما أصر القهوجى ضربه الضابط على وجهه فرد له القهوجى اللطمة

وبدأت معركة انتهت بمقتل القهوجي والقاء جثته بالمزارع وعثر عليه اللصوص في اليوم التالي فأخذوه وغسلوه وكفنوه ودفنوه وعندما انتهت مراسم الجنازة التي لم يحضرها إلا أربعة أشخاص فقط من زملائه اللصوص قال أحدهم .. أنا شفته وهو بيكلم الضابط كان زي الأسد ورد عليه زميله بس أسد جربان . كان كل من يقرأها يثني عليها طبعا وعلى مؤلفها خجلا وحياء باعتبار أن سيد فزيكا زميل على كل حال .. ولكن سيد ألح على نشرها ونشر مؤلفات أخرى من إنتاجه . ثم نشر جميع ماكتبه في كتاب أو في كتب .. وعندما ناقشه أحدهم بأن هذا الأمر غير ممكن ، والظروف لا تسمح ، تساءل سيد في دهشة شديدة .. واشمعنى لويس عوض ومحمود العالم ولطفي الخولي ومش بس دول .. دانتوا بتطلعوا كتب لناس كانوا بيعارضونا في السجن وكان خطهم السياسي مايع وبتطلعوا كتب كمان للي أسوأ منهم حاول أحد الزملاء مساعدته وكان فنانا ورقيقا ، وكان يعطف على سيد فزيكا ويمده بين الحين والآخر ببعض النقود ، بل انه ذات مرة ـ وكان مسئولا عن دار نشر ـ أخذ منه بعض إنتاجه وأصدره في كتيب صغير على أساس أنها محاولات من مواطن يشعر بأن عليه واجبا نحو وطنه . هذا العمل الخيرى الطيب كان سببا في الجنون الذى أصاب سيد فزيكا وجعله يؤمن بأنه أحد كبار الأدباء في العالم العربي . طبعا سيد كان معذورا . فرجل لا يعرف القراءة والكتابة ويجيد لغة فريم وفازيكا وكعباة ويدعو إلى تطور الأدب والفن لمصلحة الناس الشقيانين . المهم أنه كان شديد الوطأة وشديد التعذيب للرجل الفنان الرقيق الذى حاول أن يمسح على جراحه وحاول أن يقنعه بالعودة إلى عمله القديم مع استمراره في كتابة القصص .. وقال له .. إن هناك كثيرين مثله يشتغلون في أعمال أخرى ويمارسون الأدب في الوقت نفسه وضرب له مثلا بالدكتور عبد القادر

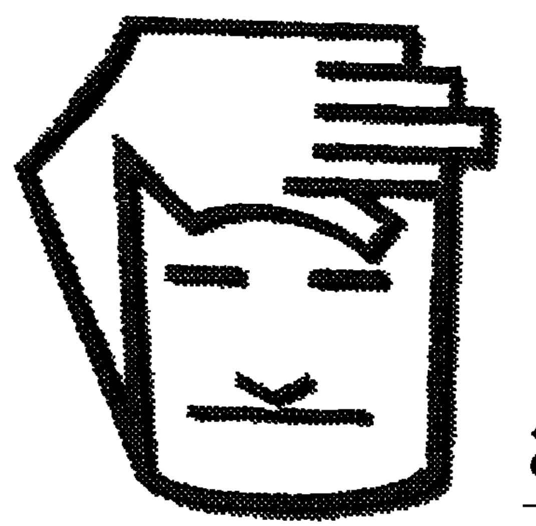
القط استاذ الجامعة والاستاذ يحيى حقى الذى كان سفيرا وزكريا الحجاوى الذى كان موظفا . وتوفيق الحكيم الذى كان مديرا لدار الكتب ولكن سيد فزيكا لم يقتنع . لقد تفجرت موهبته فى السجن واعترف بها جميع النقاد خصوصا الذين كانوا ينزلون فى زنزانة ٨ بعنبر أ فى سجن الواحات الخارجة ، ولابد من نشر هذا الإنتاج أو الالتحاق على الأقل بوظيفة أدبية ، وخسر سيد فزيكا آخر صديق كان يعطف عليه فى مجموعة الزملاء القدامى .. بعد انقطاع صلة فزيكا بآخر خيط كان يربطه بالزملاء السابقين لجأ إلى مهنة أخرى ربما لم يفكر فيها من قبل إلا لحظة تأكده بأنه فقد كل شىء . كان يقف على باب المؤسسات الصحفية التى يعمل بها زملاؤه السابقون ينتظرهم ويطلب منهم أن يشتروا قصصه وينشروها بمعرفتهم باعتبار أن هذا واجب تفرضه عليهم الزمالة القديمة ـــ ثم تطور الأمر بعد ذلك فأصبح يقف على الأبواب يوم القبض فقط . وأعطوه مرة ثم انقطعوا بعد ذلك فعاد فى الشهر التالى وفى يده شومة وقام بتهويش البعض مرة وضرب فى المليان مرة أخرى . واضطر رفقاء الماضى لإبلاغ الشرطة وعاد فزيكا إلى السجن من جديد ولكن ليس من أجل رفع مستوى الفقراء وشيوع الرخاء والسعادة على الجميع هذه المرة كانت التهمة هى البلطجة . وتردد فزيكا على السجون ذهابا وإيابا عدة مرات ثم شعر فى النهاية بأنه لا يستطيع أن يحتمل كل المشوار ، فالوضع مختلف كثيرا عن السجن فى الفترة الماضية فقد حاول الاتصال بأحد رفاق السجن ولكنه فشل .

لقد تبرجزوا جميعا وانتقلوا إلى طبقة أخرى هم ينعمون الآن بالاستقرار والأمان يشربون أفخر أنواع الشراب ويأكلون أفخر أنواع المشويات ويدخنون السجائر الأمريكية التى يعود ربحها إلى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية . لقد خانه الزملاء وتركوه وحيدا فى العراء .

وإذا كان قد فشل فى أن يكون له مكان بينهم وفشل فى أن يحتفظ لقدمه بموضع فى عالم الأدب ، فهو يستطيع أن يجد له دورا متفردا وهو كشف هؤلاء العملاء والخونة وفضحهم أمام محكمة التاريخ . وعندما اكتشف فزيكا هذا الدور الفريد لنفسه أطلق ذقنه ومزق ماتبقى من ملابسه التى امتلأت بالرقع والثقوب وعاد إلى شومته القديمة قبض عليها بأصابعه بما تبقى له من قوة وكتب منشورات بخط يده فضح فيها خيانة الزملاء الذين أصبحوا يأكلون عند الكبابجى ويشربون الشاى فى قهوة المعلم أمين ويشترون القمصان الجاهزة من عمر افندى ويعيشون عيشة أمراء الهند فى العهد القديم . وبعضهم يفطر صنفين وثلاثة فول وطعمية وجبنة ، وهناك معلومات تشير لأن بعضهم يأكل عسل نحل فى الصباح ، كل منشور كان يتضمن عددا من الفضائح من نوع أكل الفول والطعمية معا فى وقت واحد .

ومن يومها نزل فزيكا إلى الشارع يرتدى بنطلونه القديم وقميصه المهلهل ويخفى عينيه بنظارة سوداء والشومة تحت إبطه بينما أصابعه توزع المنشورات الثورية ضد رفاق الأمس .

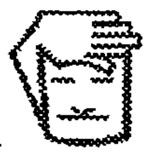
وتستطيع أن تراه حتى اليوم يقطع الشارع ذهابا وإيابا يوزع المنشورات والشتائم ، وأحيانا يهجم على بعض الجالسين فى المقاهى يطلب سيجارة وأحيانا ساندويتش ، وهو يختار الذين يطلب منهم ويشترط أن يكونوا من عامة الشعب أما المثقفون الذين خذلوه والرفاق الذين تخلوا عنه فهو لايطلب منهم شيئا لا ينتظر منهم أى شىء ، فليس بينه وبينهم إلا الثورة على الادعاءات الكاذبة والدعاوى الزائفة وإذا كان هناك هدف فهو الحرص على الواقعية الاشتراكية التى هو نفسه رمزها والتطبيق العملى على أنها الطريق الوحيد والصحيح !



تحامي بنات الشام

١٢ العمـــــدة

●● لا أحـد يستطيع أن يحدد مـا الـذى سيحـدث فى السجن فى اللحظة التـاليـة. فـالأمور عـادة لا تستقر على حال. وقد يقع ما ليس على البـال فتتحول حياة النزلاء إلى جحيم. وفى ذلك الصباح كان كل شىء يسير على مايرام، الـورش شغالـة والإدارة مسترخيـة فى مكـاتبهـا، وبعض النزلاء يلعبـون فى حوش الرياضـة، وعسـاكر الحراسة فوق السور يتبادلون الشتائم مع بعض النـزلاء، والأثـريـاء من النـزلاء يتمشـون كالعـادة فى الحـوش الكبير تحت شمس ينـايـر الضـعيفـة. فى الوقت نفســه كـان الشـاويش المكلف بإدارة المطبخ يشرف على اللمسات الأخيرة لإعداد وجبة العدس بعد أن اقتربت عقارب السـاعة من الواحـدة بعد الظهـــر. وبينما شـــاويش المطبخ يصرخ فى النـــزلاء الطبـاخين، وصل حضرة الصول مبعـوثـا من البيـه المأمـور بأمـر عاجـــل بوقـــف عمليـــة إنضـاج العـدس، لأن البيه أمر بـذبح بقـرة من أبقـــار مزرعـــة الســجن وتوزيــــع لحمهـــا مطبـوخـا على النـزلاء من بـاب الترفيـه ●●



وصفق النـزلاء العاملـون فى المطبخ للخبر السعيـد، وسرت مـوجـة من الفـــرح بين النـزلاء فى العنـابـر وفى الـورش. فالبقـرة هـذه المرة بلدى من المزرعـة وليست لحمة مجمـدة من المتعهد، وهى طازجة أيضـا لأن البيه المأمور ذبحها لمنـاسبة لابد سعيدة وإن كـان النزلاء لم يعـرفوا حقيقتهـا بعد. وبلغـت فرحـة النزلاء العـاملين بـا لمطبخ حـدا جعلهم يحملـــون الإنـاء الضخم الـذى ينضجون فيـه العدس ويلقـون بالطبيخ فى المراحيض. فهـذا العدس الـذى كـانوا ينضجـونـه مـرت عليه سنـوات طويلة فى المخزن، وهـم اضطروا إلى طبخه رغـم أنهم شاهدوا السـوس يسعى داخل الصفيحة التى وصلتهم من المخـزن، سوس على دود على ذباب على بقايـا صراصير، ولذلـك ولأنهم يعرفـون سر العدس، فقـد عملوا حســابهم وقـامـوا بسلخ وتتبيل عـدة فئـران غيطى فى حجم القطـة ولفوها بأوراق شـجر عريضـــة ووضعوها فى الفرن. والفئران الغيطى أنظف فى رأيهم من السوس والدود وبقـايا الصراصير. ثم انهمكوا بعد ذلك فى تقطيع البقـــرة واحتفظـوا لأنفسهم بقطعـة كبيرة مـن الفخـذ وأعدوا منهـا ورقة لحمـة بالبصل والثـوم والطماطم والفلفل الأسود والملح. وقطعوا للشـاويش خمسة كيلو من بيت الكلاوى لـزوم عشاء العيال فى البيت، وأذاعوا فى السجن كلـه أن اللحم الطيب سيكون معدا للتـوزيع فى الخامســة وأن التمام سيتأخـر نصـف سـاعـة لكى يتم التـوزيع على الجميع قبل إغـلاق الزنـازين. وبينما الجميع يترقبـون

وصول اللحم البلدى الطيب عاد العمـدة من المزرعة. والعمدة هو لقب أطلقـه النزلاء على فـلاح مسجون تأبيـدة فى جـريمة ثأر. ولأنـه رجل طيب ومؤمن ويعرف الله، فقد كان الجميع يقبلون حكمه فى المنازعات التى تنشأ بين النـــزلاء لسبب أو لآخــر. وكـان العمـــدة يتـــولى مع الشـاويش الحلـوانى مهمـــة الإشراف على عمل النـزلاء الفـلاحين فى المزرعة، ولذلك كان غالبا يعـود إلى السـجن بحزمة جرجير أو عدد من حبات الليمـون، وربطة فجل أو بعض ثمار التـوت، أو أى صنف آخر مما تنتجه المزرعـة التى تبلغ مساحتها خمسة أفـدنة بجوار السـجن. وعاد العمدة فى ذلك المساء ومعه فجـل كثير وكرات وخيارتان. وسـأله النزيل بدوى وهو يقطع الحوش داخلا إلى العنبر .

ـ دا النهاردة لحمة يا عمدة. جايب الحاجات دى ليه ؟

ورد العمدة فى هدوء :

ـ أنا رجل مسلم ما كلش الميتة.

ـ ميتة !؟

هكذا صرخ بدوى فى الحوش ثم عاد يسـأله .

ـ البقرة دى ميتة يا عمدة ؟

ــ من امبارح ، وعشـــان كده اتأخـرنـا سـاعـة امبارح فى المزرعـة، والشـاويـش الحلوانى خاف يبلــغ ليلة امبارح عشـــان السين والجيم، وكان عاوز يلحق الحلزونة عشان يسافر لعياله فى منوف .

ـ يا نهار أزرق

هكذا صاح بدوى بصوت مرتفع سمعه كل من فى الحوش، وجذبت الصرخة انتبـاه النزلاء فهرعوا إلى حيث يقف بـدوى والعمدة، ولم تمر لحظات حتى كان الخبر فى كل زنزانــة وفى كل موقع عمل. وصاح نزيل كان يعمل مأمورا للضرائب :

ـ يا خبر اسود، هيأكلونا لحمة ميتة ؟!

ورد عليه اليانكى فى سخرية :

ـ يا عم ارم اللحمة وكل الخضار .

وقال نزيل آخر :

ـ يعنى الخضار اللى كويس، ما هو ميت راخر !

اشتد الزحام بشدة حول العمدة، والكل يسأله عن حقيقة الأمر. وحكى العمدة للناس الحقيقة دون زيادة أو نقصان :

ـ حقيقة ربنا البقرة دى كانت عيانة من مدة، وطلبنا الدكتور البيطرى يشوفها ما حدش سأل فينا، وبعدين اشتد عليها المرض، وبقت كلها جروح ودمامل وهزلت وضلوعها بانت. وامبارح وقعت على الأرض وفرفرت شوية وراحت طبة ساكتة. الشاويش الحلوانى قال.. خلاص، اكفوا ع الخبر ماجور لحد بكرة الصبح، حاكم الحلزونة كان فاضل عليها ربع ساعة، ولو مالحقهاش هيضطر يبات فى السجن. النهاردة الصبح راح بلغ البيه الوكيل ، والبيه الوكيل كلم ناس فى المصلحة ، وبعدين جابوا الواد نصر الجزار من التأديب سلخها وقطع رأسها وقطعها، والبيه الوكيل قال فرقوها على المساجين «ترفيه» وخلوهم يدعوا لنا فى الأيام المفترجة دى !

وسرعان ما ظهرت بوادر انقسام داخل السجن، بعض الملتحين طالبوا بأبلاغ النيابة، والمعلم بدوى ومعه بعض المجرمين أصحاب التأبيدة هددوا بعدم دخول الزنازين حتى يحضر مسئول من المصلحة. ولكن الجميع اتفقوا على عدم دخول الزنازين والبقاء فى الحوش وعندما اشتد الضجيج جاء وكيل السجن إلى الحوش وتساءل عن سر الاجتماع في الحوش. فتصدى له المعلم بدوى وأخبره بنبأ البقرة الميتة، فلزم الوكيل الصمت وراح يتفرس فى وجوه النزلاء، وعندما تأكد أن الصدور تغلى بالحقد، وكان هناك ما ينذر بالشر، رسم على شفتيه ابتسامة باهتة وقال :

ـ ومين اللى قال لكم الكلام الفارغ ده ؟

وانبرى له العمدة ووقال له فى لهجة واثقة :

ـ دا كلام مضبوط يا سعادة الوكيل وانت عارف كده .

كان الوكيل المنقول حديثا من عمله السابق كرئيس مباحث لأحد مراكز الصعيد، بعد اتهامه بقتل أحد المتهمين أثناء التحقيق معه. كان المتهم الشاب الذى لم يتجاوز الخامسة والثلاثين قد ألقى القبض عليه فى قضية سطو مسلح ولما لم تكن هناك أية أدلة تدين الشاب المتهم، فقد حاول إجباره على الاعتراف، ولكن كل محاولات الضابط فشلت فى حمل الشاب على الاعتراف بجريمة لم يرتكبها، وهداه تفكيره إلى طريقة جهنمية. أجبر المتهم على ارتداء فانلة مبللة با لماء فلما جفت كررها عدة مرات على مدى أيام، أصيب المتهم بعدها بالتهاب رئوى، ولم يلبث فى محبسه إلا فترة قصيرة غادر بعدها الحياة، وأدانت النيابة الضابط وأحالته إلى المحكمة، ونقلته الوزارة من المباحث إلى مصلحة السجون .

خاف الضابط من عواقب انفجار الموقف فى السجن ، ولو حدث هذا الذى يخشاه فسيكون مصيره الفصل بالتأكيد. ولذلك بذل مجهودا كبيرا لكى يضع أعصابه فى ثلاجة. وقال للعمدة بلهجة ودودة :

ـ مش عيب يا عمدة تبقى راجل تعرف ربنا وتقول كلام زى ده ؟

ورد العمدة بهدوء شديد :

ـــ أنا عشان عارف ربنا قلت الحقيقة، واللى انت عملته دا غلط.

ومسح الضابط بعينيه وجوه النزلاء المتجمهرين وقال :

ـ طيب.. إيه رأيكم بقى، أنا حكون أول واحد يأكل من اللحمة دى عشان أثبت لكم إن الراجل العمدة دا بيقول كلام مش مضبوط .

وطلب الضابط من الشاويش الحلوانى أن يحضر له أحد المقاعد

ليجلس عليه فى الحوش وترابيـزة، وطلب من المعلم البدوى أن يخطف رجله إلى المطبخ ليحضر لـه قطعة لحم وشويـة مرق لكى يأكلهـا أمام الجميع. ونظر المسـاجين للعمدة يحاولـون اكتشاف الحقيقـة. وأعاد العمدة على مسـامع الجميع ماسبق أن أكـده لهم، وقال وهـو يستعيذ بالله.

ـــ البقـــرة ميتـــة من امبـــارح واللى يقـــول لكم كـــلام غير ده ما تصدقهوش!

نظر الضـابط إلى جموع النزلاء وقال :

ـ لو كلت من اللحمة تصدقونى ؟!

وهتف الجميع فى صوت واحد :

ـ نعم .. بس تأكل منها قدامنا

كان الشـاويش الحلوانـى قد جاء بـالكرسى والترابيـزة، فجلس الضابط وسط الحوش وحـوله النـزلاء، وكان المعلم بدوى الـذى كلفه الضـابط بإحضار اللحـم قد عـاد ليبلغ الضـابط أن اللحمة عجـوزة وتحتاج إلى ساعة أخرى حتى تنضج، ونظر الضابط فى الساعة وقال :

ـ ع العمـوم أنا النوبتجى النهـاردة، وهنفضل كلنا فى الحوش لحد ما تستوى اللحمة وإن شا الله نقعد للصبح .

وصفق المسـاجين بشدة، فهى فـرصـة لا تعوض لقضـاء الليل أو جـزء منـه فى الهواء الطلق، فمن الغريـب أن يكون الليل ممنـوعـا على المساجين، بينما النهـار والشمس حق من حقوقهـم. وتطوع بعضهم فأحضر عدة الشاى من الزنزانـة، وعملوا واحد شاى مضبوط لحضرة الضابط. وراح الضابط يمزح مع زعماء السجن.. المعلم بدوى والمعلم أحمد . كـان بعضهم قتلـة وبعضهم تجار مخدرات، وقـال الحاج عكاشة :

ـ انت أصلك يا بيه مش ابن المصلحة، والسجون دى ما يعرفهاش

إلا الضباط أولادهـا، وانت سعادتك جـاى من المباحث، وممكـن قوى الصولات والشاويشية يعملوها وتخيل عليك .

ورد الضابط معاتبا :

ـ يعنى انت رأيك يا حاج عكاشة إن انا أهبل وعبيط .

ـ لأ العفو يا بيه، سعـادتك سيد الناس، لكن كل صنعة ولها أسرار ما يعرفهاش إلا أولاد الكار، والسجون صنعة !

ـ يعنى انت مـش مصدقنى أما أقـولك إن البقرة مـدبوحـة قدامى ودمها طرطش على .

وانحنى الضابط يبحث عن آثار الدم على بنطلونه، ولما لم يعثر على أثر للدم قال :

ـ أنا أصل عندى دوا بيضيع البقع على طول !

وقال العمدة فى صوت مسموع :

ـ أستغفر الله العظيم .

وتملك الغيظ من الضابط فقال موجها حديثه للعمدة .

ـ انت كان لك مقام كبير قـوى عندى، لكن بعد اللى حصل الليلادى أنـا هعاملك ميرى. أنـا هـاكل اللحمـة قدام الجميع وبعـدين هيكـون حسابك عسير على الكلام اللى قلته .

ورد الحاج قائلا :

ـ حسبنا الله ونعم الوكيل .

راح الضابط يمزح مع الجميع ويوزع النكـات هنا وهناك. وعندما وصلت سلطـانية المرق وبها قطع اللحم كـانت السـاعة قـد تجاوزت الثامنـة مساء. وران الصمت على الجميـع وركزوا أنظارهـم على البيه الضابط والسلطانية التى وضعت أمـامه على الترابيزة. ومرت لحظات كأنها الدهـر كله والضابط ممسـك بالمعلقة دون أن يتـذوق شيئا من محتويات السلطانية. ونادى الضـابط على العمدة وقال له على مشـهد

من جميع النزلاء :

ـ برضه لسه بتقول إن البقرة ميتة ؟

ولم يزد العمدة على القول :

ـ ربنا يلطف بنا جميعا .

والتفت الضابط إلى النزلاء وقال لهم :

ـ عشان تعرفوا ان العمدة كداب أنا هاكل اللحمة الميتة .

ثم انحنى على السلطانية وهات يا شفط ويا شرب من المرق، ثم أمسك بقطعة اللحم بين أصابعه ومزقها بأسنانه وهات يا زلط، بعدها تعالت الهتافات بحياة الضابط. ثم بدأ توزيع اللحم على الجميع فى الحوش وفى الهواء الطلق. وراح الجميع يأكلون بشراهة، وعندما انتهت الوليمة نفخ الصول فى صفارته ودخل النزلاء زنازينهم، ولكن الضابط اصطحب معه العمدة حيث حرر له محضرا بتهمة تحريض النزلاء ضد الإدارة، ثم سحبه من يده وأودعه زنزانة فى التأديب. كانت هذه هى المرة الأولى التى يدخل فيها العمدة زنازين التأديب، بعد ستة عشر عاما من دخوله السجن، كان مثالا على الطاعة والنظام يمارس مهنته كفلاح فى مزرعة السجن، يخرج من السجن من الصباح الباكر ولا يعود إلا ساعة التمام. وبالرغم من استحقاقه للافراج منذ عام، إلا أن مصلحة السجون أخطأت فى تقدير مدة عقوبته. فجريمته كانت القتل للثأر وليست مقترنة بالسرقة. ومن حقه الإفراج بعد مرور خمسة عشر عاما. ولكنهم يماطلون بدون سبب. يالها من ليلة سوداء مرت على العمدة وهو جائع وبردان. لم يأكل شيئا من البقرة الميتة، والضابط صادر ما معه من فجل وكرات وخيار قبل أن يلقى به فى زنزانة التأديب. هذا الضابط عديم الذمة قاتل المتهم البرىء يكذب على المساجين ويأكل الميتة التى حرم الله أكلها. وأغلب النزلاء حثالة لا دين لهم ولا ملة ولا يهمهم إلا حشر المعدة وقضاء المدة على أى نحو .

وحـاول العمدة النـوم .. ولكن كيف يتسلل النوم إلى عيني انســان مظلوم يشعـر بالجوع والبرد؟ إنه لم يشعـر فى حياته بأنـه مسجون. كان فـلاحا قبل دخـوله السجن وظل فلاحـا أثناء سجنـه. ولم يندم العمدة على شيـء فعله فى حياتـه. حتى الجريمة الكبرى التـى ارتكبها بقتل الرجل الـذى كان وراء مقتل عمـه، كان يستحق ما هـو أكثر من القتل، بعد مقتل عمـه بأشهر قليلة راح الرجل يفخـر بما فعله، بل راح يصف القتيل أثنـاء عملية القتل، مع أنـه لم يحضر العملية، فقـد كان محرضا ولم يكن قاتلا، حيث أنه أجبن من أن يقتل.

ولكن بعض الأغبيـاء من النـاس تحكم على نفسهـا بالموت، وهـذا الضابط الكذاب واحد منهم كذب على النزلاء وخدعهم فأكلوا الميتة. ثم عاقب العمـدة بدخول التأديب، مـع أن التأديب ليس عقوبة بـالنسبة لـرجل مثل العمدة. ولكن العقـاب الحقيقى سيأتى بعد ذلك، سيحـرم من العمل فى المزرعة، وإذا كان سعيد الحظ، سيلحق بعمل آخر، ولكن المؤكد أنه سيجرى تخزينه داخل العنبر .

إنها جريمة قتل أخرى سيرتكبها هذا الضابط الغشاش والضحية هذه المرة هـو العمدة نفسه. هل يستطيع العمـدة أن يلزم الزنـزانة لا يبرحها عدة أعوام؟ بالتأكيد سيموت فى العام الأول من الحبسة .

وكم مضى من العمر يـا عمدة؟ يـاه.. خمس وستون سنة، يـاقوة اللـه. إنها سن منـاسبـة للـرحيـل قبل أن تهجم الأمـراض وتفـرض الشيخوخة قـوانينها على الانسان. وهذا الضـابط لا يحتمل إلا ضربة واحدة فى صدره من نصلة ملوثـة. يأخذ الثأر للقتيل الشاب الذى قتله بالفانلات المبللة، وينتقم لنفسه أيضا فهو سيموت غيظا على كل حال. ومـد العمدة يـده يتحسس النصلة التى اختـارها لأداء المهمـة. ولكن العمـدة وجد نفســه يستيقظ فجأة على أصـوات غـريبة صـادرة من داخل العنـابر. وأصـوات حـركة سيـارات كثيرة تـدخل من البوابـة

وتخرج منهـا. لابـد حدث شيء فى السجن، زيـارة من رتبـة كبيرة فى المصلحة، أو وفد من الوفـود الكثيرة التى تتردد على السجون لتشاهد التطوير الذى دخل على السجون المصرية، زيارات ليس من ورائها أى جـدوى، ولكنها تضيف إلى متـاعب النزلاء متـاعب جديـدة. وفجأة.. سمع العمـدة طرقـات شـديدة على بـاب الزنـزانـة، وصوت المفتـاح الضخم وهــو يخترق فتحة البـاب، فوجد ضـابطا آخـر هو الضـابط محسن ومعه الشاويش مرسى الذى قال للعمدة :

ـ ياللا يا عمدة فرج ربنا وعفوه طالك .

ولم يفهم العمدة شيئا فتساءل :

ـ إيه الحكاية يا سعادة البيه ؟

ـ قوم انهض يا عمدة، روح العنبر بسرعة خد حاجاتك بسرعة .

ـ ترحيل واللا حاجة تانية .

ـ وقال الضابط وهو يغادر المكان ..

ـ إفراج يا عمدة .

حتى الضابط محسن السرساوى الطيب ابن الناس الطيبين يسخر من العمـدة، ولكن هذا السلـوك ليس من طبع الضـابط محسن.. فما الذى جرى؟

عندما غادر العمدة مكان التأديب ووصل إلى مكاتب الإدارة، شاهد عددا كبيرا من الضباط الكبار والبيـه المأمور نفسه وسيارات إسعاف وسيـارات بوكس وحـركة نشيطـة من جانب الصــولات والعساكـر. وعنـدمـا عبر الباب إلى حـوش السجن التقى بأحـد النـزلاء القـدامى فسأله عن سبب هذه الضجة .

ـ إيه الحكاية يا عم عنتر ..؟

ـ يوه .. انت فين ياعمدة ؟ السجن كله حولوه ع المستشفيات .

ـ ليه ؟

ـ مـاعرفش ، إسهـال وترجيع طـول الليل، والناس تصرخ وتلطم ما حدش سأل فيهم. لكن لما البيه الوكيل جـاتله الحالة الدنيا انقلبت، وبعـدين العسـاكـر كمان حصل لهم نفس الشىء، وجت العـربيـات ونقلوا الكل ع المستشفى.

ـ وانت ما حصلكش حاجة ؟

ـ لأ، ربك كبير، امبارح كنت عيان حتى مـا خرجتش ساعة القعدة اللى كـانت فى الحوش، كلت شويـة عسل اسود بلقمـة ونمت، يا قـوة الله.. يمهل ولا يهمل.. فـرجه قريب وعدلـه سريع، كم تمنى العمدة أن يموت الـوكيل وكان الجزاء العادل لـرجل لا يعرف ربنـا.. لملم العمدة كل متعلقاته وأسرع إلى مكـاتب الإدارة، تلقـاه المأمور بشوشـا.. وقال له :

ـ خلاص يا عمدة الرحلة انتهت .. مبروك .

ـ الله يبارك فيك يا باشا .

ـ على رأى المثل .. أنفاس معدودة فى أماكن محدودة .

ـ إيه الحكاية يا سعادة الباشا ؟

ـ إفراج يا عمدة.. لك أمانات عندنا ؟

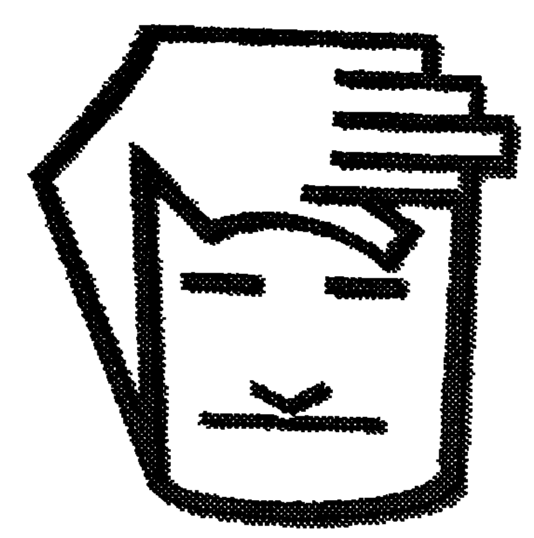
ـ منين يا باشا .. آدى الله وآدى حكمته .

ضرب المأمور يده فى جيبه وأخرج ورقة بجنيه ومد يده للعمدة :

ـ خلى دا معاك، تحتاج سجاير أو أى حاجة .

ـ يا بيه خيرك سابق .

ألح المأمـور فمد العمـدة يـده وتناول الجنيـه، وخـرج من بوابـة السجن. وصاح شـاويش البوابة.. مع السـلامة، أوعى نشـوفك تانى هنا !..



١٢

تعرف
الحاج عطوة

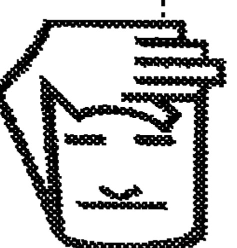
●● تعرف وهدان أبو سريع من غير مؤاخذة ؟

- مش واخد بالى فى الحقيقة .

- دا كان فتوة المديح من غير مؤاخذة، وقتل فى يوم تلاتين واحد وشرحهم وعملهم كوستليتة، دا كان ابن عمى لزم .

- وحصل له إيه بعد كده ؟

- ولا حاجة ، اهتدى وبقى يصلى ويصوم، وراح يحج ومات عند النبى ودفنوه هناك .



- دا كان لازم طيب ، هنيا له يا عم ●●

ـ وتعرف ابراهيم عطوة ؟

ـ مش واخد بالى فى الحقيقة.

ــ دا كــان ابن عمــة والدى على طــول، وكــان فتــوة المنايف من غير مؤاخــذة ولما قامت الحرب ضد الانجليز أيام النحاس باشــا بقى يأخذ التروسيكل بتاعه ويشيل مـدفعه على كتفـه، ويخش المعسكـر الانجليزى يـرمى قنبلتين كـده وقنبلتين كده، وبعـدين يـرش اللى يقابلـه بـــا لمدفع، قتل ييجى ألفين انجليــزى فى شهر ولما غلب الانجليز منه تعرف عملوا إيه من غير مـؤاخذة؟ ركبوا الدبابات وهدوا المنـايـف كلهـا مـــا خلــوش راجل ولا مـــرة ولا عيل بيرضع من غير مـؤاخـذة. لكن شــوف بقى حكمــة ربنا، الــوحيـد اللى طلع منهـا زى الشعرة م العجين هو عمك ابراهيم عطوة .

ـ يا سلام دا حظه كويس قوى.

ــ شوف بقى حكمــة ربنــا، هرب مــن المنايف والضرب على ودنــه وطلع على سكة مصر، وركب عـربية نقل مع جدع ســواق ابن حلال لما شافــه عرفه، وقبل مــا يخش بلبيس دخلت العربيــة فى شجرة انقلبت وولعت فيها النار، ماحطوش منطق لا هوه ولا السواق .

ـ يا سلام .. لكل أجل كتاب .

ـ اسـم اللــه عليك، كل بنى آدم له ســاعة، وممكن تفـوت من النار، وتموت فى شبر ميه. ودايما ربك يضرب الأمثال فى عبيده زى ما حصل بالضبط مع على عزوز.. سمعت عنه ؟

ـ أعتقد إن انا سمعت عنه .

ـ مـا هو دا كان فتوة بـاب البحر، ودا يبقى أخـو الجماعـة بتوعى من غير مؤاخذة. تعرف إيه اللى حصل له ؟

ـ آه عرفت .

ـ عرفت إيه ...

ـ عرفت كل حاجة ، وعن إذنك عشان البيه المأمور طالبنى .. كانت هذه هى الوسيلة الوحيدة للتخلص من المعلم رمضان طلبة نزيل عنبر ب بسجن القناطر ومسجـون مؤبد فى تهمة لم يفصح عنهـا فى حديثه معى، هـذا الحديث الـذى تكرر كثيرا بمناسبة أحيـانا وغالبـا بدون أى مناسبـة، حتى خيل للعبد للـه أنه يتعقبنى ويترصد لى، خصـوصا أثنـاء تواجـدى فى حـوش السجن، لـدرجة أننـى فكرت كثيرا فى عـدم مغادرة العنبر حتى لا أقع فى الشبكة التى يجيد المعلم رمضان نصبها للعبد لله .

والمعلم رمضان والشهادة لله كان كلمنجيا من نوع خاص.

كان يبدأ حديثه دائما بسؤال :

ـ تعرف المعلم على عزوز ؟

سمعت عن ابراهيم عوض الله ؟

عرفت إيه اللى حصل لسليمان أبو اكتاف؟ وبالطبع لم أكن سمعت شيئا عن أحـد من هؤلاء الـذين يذكـرهم المعلم رمضـان، ولـذلك كان دائما يجد من واجبـه تعريفى بهؤلاء الأعـلام الذين لا أعـرفهم بسبب جهلى الشديد بتـاريخ مصر الحافل بمثل هؤلاء الأبطال! ولكنى لحسن الحظ تمكنت من الإفـلات من مصيدة عم رمضـان بطـريقة بسيطـة للغاية. عندما يلقى على أسماع العبد لله بسؤاله الخالد :

ـ سمعت عن الحاج سعد برعى ؟

ـ كنت أبادره بالإجابة :

ـ وفيه حد ما سمعش عن الحاج سعد برعى ؟

يعنى عرفت الهوايل اللى هوه سواها .

ـ دانا أعرف عنه اللى انت ما تعرفوش، وانشاء الله أما أخلص من المشاكل اللى أنا فيها هقولك عنه اللى ودانك مش هتصدقوا .

ـ وتعرف إن المرحومة أمه تبقى خالتى ؟

ـ لأ أهى دى جديدة ، وعلى كل حال هوه راجل جدع ويشرف !

بعد هذه الواقعة لم يعد عم رمضان يلقى على العبد لله أسئلته التقليدية، ولكنه كان يلح على العبد لله فى أن أحكى له جانبا من بطولات الحاج سعد برعى .

فى بعض المرات كنت أجد سعادة فى سرد بعض الخرافات على مسامعه، ومن الغريب أنه كان يستمع باهتمام إلى أكاذيبى التى نسجتها عن الحاج سعد برعى.

ـ تعرف يا عم رمضان الحاج برعى عمل إيه فى ثورة ١٩، دخل على المعسكر الانجليزى اللى كان فى قصر النيل، وقبض على القائد البريطانى من قفاه وطلع بيه على بيتهم فى سوق السلاح. وبعت.. جواب.. للانجليز قاللهم فيه، ترجعوا سعد باشا أرجع القائد بتاعكم، مايرجعش سعد هافتح كرش القائد واعمله كفتة للكلاب .

وكانت السعادة الغامرة ترتسم على وجه عم رمضان عقب كل حكاية من هذا النوع، ولكنه كان حريصا فى كل مرة على توجيه سؤال واحد ومحدد .

ـ تعرف ان المرحومة أمه تبقى خالتى !؟

ويبدو أن المرض الذى أصاب عم رمضان قد انتقل إلى العبد لله بالعدوى. فقد أصبحت أنا الذى أبحث عن عم رمضان لأحكى له جانبا من أمجاد عم سعد برعى، وبالفعل، أخذتنى الجلالة فرحت أحكى عن بطولاته فى ثورة ١٩، ثم تجاوزتها إلى بطولاته فى ثورة

عرابى، ثم انتقلت منها إلى سجله الخالد فى ثورة القاهرة ضد العسكر الفرنساوى بقيادة نابليون. وكان عم رمضان يبدو منسجما أشد الانسجام أثناء الحكاية، ولكنه لا ينسى مطلقا أن يلقى على أسماع العبد لله بسؤاله الخالد·

ـ عارف إن المرحومة أمه تبقى خالتى ؟

أصبحت أكاذيبى لعم رمضان من هواياتى المفضلة لقضاء الوقت الممل الذى يمضى بطيئا فى السجن. ولكن سرعان ما أصبح عم رمضان أضحوكة بالنسبة لبعض المساجين الذين قطعوا المرحلة الثانوية فى الدراسة، وعلى أساس إن عم رمضان لا يفرق بين ثورة ١٩ وهوجة عرابى وثورة القاهرة ضد العسكر الفرنساوى. وبعدها أصبحت أنا الذى يبحث عنه فلا أجده. اختفى عم رمضان أياما فى زنزانته ثم نقلوه بعدها إلى المستشفى وعندما ذهبت لزيارته فى المستشفى لم يكن عم رمضان كعهدى به شديد الحفاوة شديد السعادة لزيارتى .

استقبلنى بوجه شاحب وابتسامة متكلفة وعندما عرضت عليه أن أقص عليه بعض الروايات عن نضال الحاج سعد برعى، امتقع وجهه وعلق قائلا :

ـ انت فاهم يا أستاذ إنى أنا حمار ؟ على العموم الله يسامحك .

حاولت أن أنفى عن نفسى هذا الاتهام، ولكنه اضطجع على سريره وقال·

ـ يا أستاذ أنا كنت عاوز أهون عليك الحبسة، لأنى شفتك مش مرتاح .

قلت مازحا :

ـ والحاج سعد برعى، هتنكر إن المرحومة أمه كانت خالتك

قال عم رمضان وهو يتأهب للنوم .

ـ تانى يا أستاذ، ربنا يسامحك .

ثم سحب البطانيـة على رأسه، وكان هـذا إيذانا للعبد للـه بمغادرة المكان .

هل صحيح كـان عم رمضـان يحاول التخفيف من وطأة السجن على العبد لله ؟

سألت ضـابط العنبر عن تهمـة العم رمضـان، فأشار إلى لـوحـة معلقة فى حجرته وقال :

ـ هتلاقى تهمته فى تذكرته .

ألقيت نظرة على التـذكرة لم يكن مدونـا بها سوى عبارة غـامضة (خطف أطفال وردهم بفـدية) وهى تهمة خطيرة فى نظـر الأمن العام. ولكن العبـارة المدونة لم تشف غليل العبـد للـه. وإن كنت قد عـرفت معلومة أخرى عن حياتــه، وهى أنه ارتكب عملية الخطف ثلاث مرات. فى المرة الأولى حكموا عليه بثلاث سنوات .

وفى الثانية صدر ضده حكم بسبع سنوات، وفى الثالثة صدر ضده حكم بالمؤبـد. أما غير ذلك فلم يكن فى السجن من يستطيع أن يضيف شيئا آخر .

اشتـد المرض على عم رمضـان، وعنـدما زرتـه آخـر مـرة اكتفى بالنظـر إلى وجهى، وعندمـا حاول الكـلام لم يستطع النطق. وبعـدها بثلاثـة أيام مـات عم رمضان. وفى مثل هـذه الحالات يحاول السجن الاتصال بأهل السجين المتوفى ليتسلمـوا الجثة، ولكنهم لم ينجحوا فى ذلك، فعندما دخل السجن لم يكن له عنوان ثابت، وبالرغم من السنين الطويلـة التى قضاهـا فى السجن، إلا أنه لم يحدث فى أى وقـت أن جاء أحد إلى السجن لزيارتــه، فلم يكن لعم رمضان أسرة ولا أقارب من أى نوع. ومن المؤكد أنه كان لقيطا وعاش فترة طفولته فى ملجأ.

ولعل ذلك هـو السبب وراء زعمـه الدائم بخيـوط تـربطه بـالحاج بـرعى والحاج أبو سريـع والحاج ابراهيم عطـوة. كـان يحكيها وهـو

متأكد أنه يكذب.

وبعض الأكاذيب تجعل حيـاة النـاس أجمل وأفضل. ارتـاح عم رمضان بذهابـه إلى قبره. الوحيد الذى عانى بعد وفاتـه هو العبد لله، فقد أدمنت رواية القصص المثيرة عـن الحاج عطوة والحاج أبو سريع، وأحيانا كنت أسأل أول من ألقاه فى حوش السجن :

تعرف الحاج عطوة ؟

أغرب شىء أن عم سعفان الشهير باليانكى أجابنى قائلا :

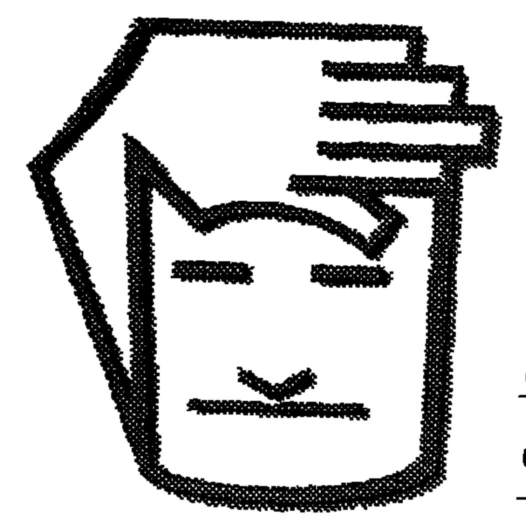
ـ ما اعرفوش ازاى، دا قريبى

قلت له على الفور :

ـ أمه تبقى خالتك ... مش كده ؟

ضحك اليانكى ضحكة عميقة وقال للعبد لله ·

ـ يا خويا اللهم صلِّ على سيدنا النبى دا انت عارف كل حاجة !



تمام يا فندم

١٤ البيض على الوتد

●● يا بخت حلاوة الدنيا إذا أقبلت، على رأى المطرب أبو دراع، إذا أقبلت باض الحمام على الوتد، وإن أدبرت بال الحمار على الأسد. هذه هي الدنيا أقبلت يا كابتن. والكل ومرعى وقلة صنعة، وهل الكورة صنعة؟ هؤلاء الحمير يدفعون مبالغ طائلة من أجل الكورة. مع أن الكورة مفروضة عليه، وهل يجيد الكابتن شيئا آخر، العيال الذين كانوا يسكنون في الشارع الرئيسي بجوار حارتهم، والذين كانوا يتعلمون في المدارس، وصار من بينهم الطبيب والضابط والمعلم والمهندس، كلهم يخطبون وده ويدعون صداقته، وأحدهم كان في سيارته الملاكي مع زوجته وطفله الصغير، عندما لمحه في السيارة لوح له بيده مرحبا، ثم ركن السيارة واندفع نحوه معانقا، ثم قدمه إلى زوجته الحسناء، وتوسل للكابتن أن يتفضل بزيارته، لعنة الله عليك هذا الشخص بالذات، كان ينظر نحوه شزرا ويحتقره احتقارا بالغا، وذات مرة أصيب حارس مرماهم وخرج من الملعب، فاستدعاه كابتن الفريق وطلب منه الوقوف في حراسة المرمى، ولكن هذا الشخص المغرور طرده بقوة ورفض أن يلعب في فريق يضم مثل هذا الشخص المنبوذ: ●●



انغمس الكابتل فى حياته الجديدة، حوله حلقة من كبار التجار والمعلمين وأشهر المهربين، وهو يدخن الحشيش ويستحلب الأفيون ويشم الهيروين ويمضغ البانجو ويبلع الحبوب وآخر ألسطة وانسجام. وما أحلى الفراشات اللاتى يرفرفن من حوله، زيزى وزيزيت وزوزو، فراشات لم يكن يحلم بمجرد النظر إليهن.

وما أكثر أصدقائه من أصحاب المناصب والمكاسب ورجال الأعمال، فيهم المتنفذ والقوى والمقتدر وصاحب النفوذ، إلا أن أقرب الأصدقاء إلى نفسه وأحبهم إليه هو الشيخ عزوز. والشيخ عزوز شيخ بالملابس فقط وليس بالعلم، وهو يقرأ القرآن أحيانا ويردد التواشيح فى المناسبات، كما أنه أحيانا يعزف على العود ويدق الطبلة، وعندما يتسلطن يرقص في جلسات الكابتن. وهو بالتأكيد أكثر المحيطين به إخلاصا، فهو حريص على تبخير الكابتل قبل كل مباراة، وعلى تغيير (الحجاب) الذى يتدلى من رقبة الكابتل، وأثناء المباراة يقرأ له الشيخ عزوز عدية ياسين. وبالرغم من أن الشيخ عزوز طيب وابن ناس وفى حاله إلا أنه كان مستعدا للدخول فى معارك حامية ضد المشجعين الذين يهاجمون الكابتل. فالكابتل ليس له نظير بين كباتن الكورة الآن، وليس له نظير بين الكباتن فى أى عصر.

وكان الشيخ عزوز يقسم برأس جده أن مارادونا نفسه قال في مؤتمر صحفى أن الكابتل هو أعظم لاعب فى العالم! وكان الكابتل لا

يبخل على الشيخ عزوز ويغدق عليه بلا حساب. كما كان حريصا على استشارته فى كل أموره ثقة منه فى علمه، ولكن هذا الشيخ المزيف سقط من عين الكابتن نهائيا. والسبب أن الكابتل كان فى خلوة مع زيزى ذات عصرية، ولم يكن فى البيت معه إلا الشيخ عزوز، وقد تركه فى الصالة لترتيب القعدة وإعداد كل مستلزماتها. ولكن فجأة عندما غادر الكابتل غرفة النوم اكتشف أن الشيخ عزوز يقف خلف الباب مباشرة وعينه فى ثقب الباب. لم يتردد الكابتل فى صفع الشيخ عزوز على وجهه وعلى قفاه، وطرده من البيت شر طردة !

وستمضى حياة الكابتل آخر حلاوة وانسجام بالشيخ عزوز وبدونه. ولكن (قر) الناس يقصف الأعمار ويهد البنايات الشاهقة. وهناك ولد ضابط مباحث جديد لا يفهم شيئا ولايتفرج على كورة ولايشاهد التليفزيون، ولايعرف الفرق بين مارادونا والمكرونة. هذا الضابط الجاهل القفل الذى لايعرف ولايجيد أى شىء. جاء ذات مرة وهاجم قعدة الكابتل وأصر على اصطحاب الجميع إلى القسم. وعبثا حول إفهام الضابط أن ما يفعله هو ضد مصلحته. ولكنه أصر على تحرير محضر وحشر الجميع في الحجز. ونجح أحد التجار الذين كانوا معه فى الاتصال بأحد المتنفذين، فجاء الأمر بسرعة بالإفراج عن الجميع، وتقديم الاعتذار المناسب خصوصا للكابتل. ولكن المسألة لم تمر بهدوء، استدعاه رئيس النادى وعاتبه بشدة، وحذره فى الوقوع مرة أخرى فى قبضة الشرطة، وأمره بالكف عن ارتياد القعدات، والابتعاد عن هؤلاء الأصدقاء. مسكين رئيس النادى يعيش نائما على ودانه. إنه لا يدرى أن الكابتل كان مسطولا على سنجة عشرة عندما سجل ثلاثة أهداف فى مرمى فريق النجوم، وهى النتيجة التى رفعت النادى إلى قمة الدورى. وهو لايعرف أن هدف الترجيح الذى سجله الكابتن فيما يشبه المعجزة فى مرمى فريق الزهرة، تمكن من تسجيله

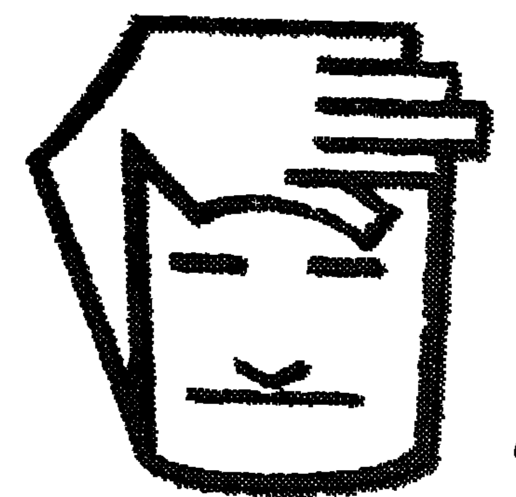
وهو فى قمة الونـونة، وكان على وشك أن يسقط على الأرض مغمى عليه من شـدة الانسطـال. لاشىء يجعل الكـورة طـوع قـدم الكـابتل إلا البلابيع والأنفـاس المعطرة. المهم. وعد الكابتل رئيس النـادى أنه لن يعود إليها مـرة أخرى.. ولكن كيف؟ استمر الكابتـل فيما اعتاد عليه. حتى جـاءت القـارعـة، ألقى القبـض عليـه بعض ضبـاط مكـافحـة المخـدرات وشحنوه مع الـذين كانـوا معه إلى الإدارة وكتبـوا المحضر وقدموه للنيـابة، وأفرجت النيابة عن الجميع بكفـالات إلا الكابتل، فقد عثروا معـه على طربـة حشيش ماركـة السفينة، وعشرات مـن حبوب الهلـوسـة. وقطعـة من الأفيـون الخام، واحتلت صـورة الكـابتل الصفحـات الأولى فى جميع الصحف، وخـاض البعض فى حيـاتـه ونشـأتـه. ولكن مسـاعى بعـض المشجعين من كبـار القـوم، وبعض الضغوط القوية، دعت المحكمة إلى الإفـراج عن الكابتل لحين المحاكمة. وكان الكابتل قد قرر فى التحقيقـات أن الكميات المضبوطة معه تخصه للمزاج، ولكن النيابة اتهمته بأنه يحرزها للاتجار.

وبـالرغم مـن الإفراج عن الكـابتل إلا أنـه شعـر بالإحبـاط وبأن الضربة نالت منه بالفعل. واضطرب الكابتل فى الملعب فلم يعد كما كان من قبل، وضربت معه لخمة فلم يعد يستطيع تسجيل الأهداف. ومرت عليه فترة قضـاها على دكة الاحتيـاطى، وانكمش دخله فلم يعـد قادرا على مـواجهة نفقـات حيـاته الجديـدة. وضربت فى مخه العبـارة التى استخـدمتها النيـابة واتهمتـه بأنـه يحرز المخدرات بقصـد الاتجار. ووسـوس له الشيطـان ولماذا لا تـدخل سوق التجـارة، تكسب بعض المال وتـوفر مـزاجك من الصنف. ودخل الكابتل عـالم الاحتراف، ولما تدحـرج فى الكورة أمعن فى مهنته الجديـدة، وجاءت الضربة القـاضية عنـدما قبضـوا عليـه متلبسـا بتهريب شحنـة كبيرة من العـريش إلى القـاهرة.. وحـاول الإنكار، واتهم رجـال المبـاحث بأنهم يترصدونـه

ويستهدفون القضاء عليه. ولكن شمس الكابتل كانت قد آلت إلى المغيب. وجد الكابتن نفسه فى السجن. لقد أدبرت الحياة، وإن هى أدبرت بال الحمار على الأسد.. حكمة محمد أبو دراع الخالدة يالها من أيام سوداء تخلى فيها الجميع عن الكابتل. حتى المأمور الذى كان يحرص دائما على توصيل الكابتل إلى سيارته، يتعمد إذلاله، وكم مرة صافح المأمور قفاه بكف يده. حتى المساجين من مشجعى النوادى المنافسة كانوا يحاولون الدخول فى معارك ضده ويتعمدون إهانته. حتى مباحث السجن كانوا يختلقون المناسبات لكى يفتشوه بحثا عن المخدرات. لم يقف إلى جانبه إلا أخوه الأصغر، كان يتصدى لأعدائه من المساجين، أما الإدارة فلم يكن باستطاعة شقيقه الوقوف فى وجهها. حتى النادى عديم الوفاء لم يحاول الاتصال به مرة واحدة، نسيه المشجعون الذين كانوا يهتفون باسمه ويصفقون له حتى تدمى أياديهم. حتى مدير مصلحة السجون الذى كان يقف خارج مكتبه لاستقباله جاء فى زيارة للسجن فلم يهتم ولم يستجب لطلبه بالسماح له بمقابلته. وفكر الكابتل فى الانتحار ولكنه جبان لا يستطيع الإقدام على أمر مثل هذا. يالها من أيام سوداء كالحة كالعمل الردى، وما أشبه حاله بحال الفأر الذى وقع فى المصيدة، ومن يجرؤ على فتح المصيدة ليطلق سراح الكابتن من هذا القفص الحديد. نسيه النادى ونسيه الناس وتجاهله المشجعون واشتد ضغط السجانة، وتضاعفت «رزالة» المساجين.

وذات صباح.. وبعد أن خرج من دورة المياه وجد خناقة فى دور أربعة شقيقه أحد طرفيها. كان السجين الذى يشتبك مع أخيه شخصية مجرمة معروفة فى السجن، وكان يضرب أخاه بقسوة شديدة فى بطنه وفى صدره، حتى تكاد عظامه أن تتكسر تحت وطأة الضربات. وهرع الكابتل إلى حيث الخناقة المشتعلة. وسدد لكمة إلى

المجرم المعـروف ولكنها كـانت اللكمة الأولى والأخيرة، تـرنح بعـدها الكـابتل تحت وطأة الضربـات وسقـط شبـه مغمى عليـه على صـدر المجـرم. اشتعل حماس شقيقه وازداد خـوفه على الكـابتل الذى كـان مـوضـع فخـره وزهـوه وعلى الفـور استل (نصلـة) حـادة من بين مـلابسه ورفعهـا إلى أعلى وهوى بها على رقبـة المجرم، ولكن المجـرم كان حاذقا فى هذا اللون من العراك، تفادى الضربة، فهوت النصلة على صدر الكـابتل وفى موضـع القلـب مباشرة. وسقط الكابتـل على أرضية السجن ميتـا بـدون حراك. وذهب شقيقـه والمجـرم معـا إلى زنزانـة التأديب، ونقلـوا الكابتل إلى مشرحـة السجن. وبعد ثـلاثة أيـام داخل المشرحة كانت الفئـران قد أكلت أصابعه وأنفـه وجزءا من لحم وجهه. ولما كان بلا أهل وبلا أصدقاء، فقـد ألقوا به فى عربة السجن الضـخمة وذهبوا بـه إلى مقابـر الصدقـة، وانتهت قصة الكابتـل، وكما جاء من تحت الأرض، ذهب إلى تحت الأرض. ولم يبق منـه إلا عدة قصـاصات من ورق الجرائد تحمل صـورة الكـابتل ومقـالات كتبهـا بعض الريـاضيين والنقاد، وتصريح للشيخ عـزوز بالبنط العـريض، نهاية الكابتل كـانت مؤكـدة، بعد أن حـاد عن طريق الصـواب وتفرغ لعمل الخبائث !!



١٥ الكابتن

●● الحكومة صعبة وإيدها ناشفة وضربتها والقبر.. وهي مثل المرأة اللعوب. ساعة معك وساعة ضدك.. وسعيد الحظ هو الذي يكفيه ربه شر الحكومة في جميع الأحوال.. لأن شرها كبير وهي ضدك، وشرها كبير وهي معك: وليس مثل الكابتن من يستطيع أن يبرهن على هذه الحقيقة، وليس مثل الكابتن من ذاق شر الحكومة في الحالتين.. في البداية.. تركته أمه مع أربعة أطفال هم إخوته. وداخ أبوه الذي كان يعمل خفيرا في مصنع الخواجا جان ماروجيان ولم يحتمل فمات هو الآخر على فراش قذر في مستشفى حكومي ليس له صفات المستشفيات إلا اليافطة المرفوعة على الباب. ووجد الكابتن نفسه وهو في العاشرة من عمره ضيفا في مبنى حكومي يسمونه الملجأ، وفي الملجأ تمنى الكابتن أن يصبح مجرما شديد البأس لينتقم من صنوف العذاب التي عانى منها داخل الملجأ. لو حقق الله أمنيته فسينسف الملجأ من أساسه، ثم يقتل مدير الملجأ والمشرفين والبواب والطباخ أيضا. ومع أن مهمة الطباخ تنحصر في إعداد الطعام للنزلاء. إلا أنه كان يقضي ربع الوقت في الطبخ وثلاثة أرباع الوقت في ضرب النزلاء لسبب أو بدون سبب، ربما للتسلية. وربما لقتل الوقت، وربما احتجاجا على العذاب الذي يلقاه في الحياة ●●





المهم أن عــذاب الملجأ تـوقف بهروب الكـابتل مع بعض زمـلائه ، كان قـد بلغ الخامسـة عشرة ، وعندمـا هرب خارج الأسـوار لم يكن قد تعلم شيئا داخل الملجأ إلا تدخين أعقاب السـجاير ونصب الفخاخ لاصـطياد صغار الطيور . ولم تكن حياته خارج الملجأ أفضل من داخله . جـاع أكثر وتعرى أكثـر ، والمكسب الوحيـد هو إحساسه بأنه حـر يستطيع أن يفعل ما يريد فى أى وقت يريد ، لا مـواعيد محددة ولا سلوكيات معينـة ولا إطفاء للأنـوار ، فالشـارع لا ينطفىء فيه النـور ليلا أو نهارا .. كان ينام فى أرض فضاء تنمو فيهـا بعض الأعشاب ، وفى البداية كـان ينام وحده ، ولـذلك اضطر إلى إشعـال نار على مقـربـة منه لكى يحمى نفسـه من الزواحـف والحشرات .. ويبدو أن النار المشتعلـة جذبت أنظـار بعض الصياع ، فجـاءوا واحدا وراء الآخر ، حتى تحولت الخرابة فى النهـاية إلى مجتمع يضج بـالحياة .. وفى البـداية حـرص على أن تكون هنـاك مسـافة بينـه وبين الآخـرين ، ولكن الضياع يجمع بين الضـائعين .. ووجد الكابتل نفسه دون رغبة منه واحدا من شلة الخرابة ، وشاركهم الطعـام وتـدخين السجـائر وشرب بعـض أنـواع السبرتـو المخلـوط بأصنـاف أخـرى لا داعى للسـؤال عن أصلهـا .. كـان بعض رفـاق الخرابة يحمـل نقودا والبعض الآخـر تظهر معـه ساعـات ونظارات ، ولكنها لا تستمـر معهم طويـلا ، ولم يكلف نفسـه سؤال الرفـاق عن مصدر مـا يحملون من نقود أو سـاعات .. وذات مساء وكـوز الشاى

على النــار المشتعلة وبعض نــزلاء الـخرابــة يلتفــون حول النــار هبط عليهم بعض الضيوف ، أصواتهم خشنة وكفوف أيديهم ثقيلة وأخذوا العــاطل على الباطل وشحنــوهم فى سيــارة ، ووجــد الكابتل نفســه فى الحجــز متهما بسرقة ســوبر مــاركت .. ودخل الكــابتن فى سين وجيم ولم يستطع أن يثبت أنــه يعيش مستقــلا عن الآخرين ، ولــذلك وجــد نفسه فى السجن لمدة عــام .. وعندمــا خرج الكابتــل لم يكن يعرف من الحياة ، إلا الـخرابــة والشارع المجاور .. ولكنــه اكتشف عند وصــوله للخرابــة أن الدنيــا تغيرت ، وجد ملعبا لكــرة القدم ، وأجــوالا خشبية وشباكــا حولها ، ورايــات فى الأركان ، ولكنــه لم يهتم فلجأ إلى مكــانه القديم وأشعل النار ونام . ويبدو أنه كان شديد التعب فلم يستيقظ إلا وحجر كبير يصطدم برأسه ، ثم اكتشف أن الحجــر هو كورة أنبوبة ، ثم اضطــر إلى النهــوض والابتعــاد عــن حــدود الملعب .. كــان الملعب مشغــولا طــول النهــار ، تشغلــه فــرق من كل الأصنــاف ، فــرق من الشباب بملابس الكورة ، وفرق مــن الصبيان بملابس النوم ، ولعيبة بأحذية ولعيبة حفاة ، وحكام بصفافير وحكام يستخدمون أصابعهم لإطلاق الصفــارة ، بعض الفرق كانت تــوزع برتقالا وبعضهــا يوزع سجاير ، وبعضهــا يدخل فى خناقة حاميــة عقب انتهاء المباراة .. ذات صباح وكــان يشاهد مبــاراة بين فريقين يلعبــون بالفانلــة واللباس ، استدعاه أحدهم وأمره أن يخلع جلبابــه ويقف حارسا للمرمى بعد أن أصيب الحارس الأصلى واضطر للخــروج من الملعب .. ووقف الكابتل دون أن تكون لديه أية فكــرة عن مهمته ، ولكنه فى أول مرة تسلم فيها الكــورة أخذهــا بقــدمــه وسرح بها متجاوزا كل الخصــوم وفــات من حــارس المرمى الآخر وركن الكــورة فى الشبكة ، وانهال عليــه الجميع بالأحضــان والقبلات ، ثم أخــذوه معهم قلب هجوم للفــريق ، وأطلقوا عليه لقبه الذى سيلازمــه إلى النهاية .. الكابتل ! وذاع صيت الكابتل فى

خـرابة شمايل ، وانتقل من فـرقة إلى فـرقة ، وأصبح يلعب بمـلابس الكورة ، وصـار له دخل معقـول يغنيه عن سـؤال اللئيم .. وذات يوم وهو جالس فى الخرابة يعد لنفسه كوب شاى مضبوط هبط عليه رجل طيب وعرض عليه اللعب فى صفوف فريـق شركة السكر مقابل وظيفة براتب مـائة جنيه فى الشهر وبـدون عمل محدد إلا الاشتراك مع فريق الشركة فى مباريـات الدوى . وانفتحت ليلة القدر أمـام الكابتل وصار فـرخة بكشك فى الشركـة ، واصطحبـه مديـر الشركة ذات صبـاح إلى المحـافظة وحصل لـه على شقة تمليك .. وداعـا لأيام الفقـر والنحس والضياع .. الكـابتل صـار له حيثيـة فى المدينة ، النـاس على القهاوى يقفـون احترامـا للكابتـل ، وحضرة الصول نفسـه عنـدمـا رآه داخل القسـم ضرب له تعظيم سـلام .

وفى كل صبـاح تمر عليه خـادمة تنظف الشقـة وتغسل الهدوم .. وصورتـه تظهر على صفحـات مجلة الشركـة ، ومعه دفتر تـوفير من ثلاثـة أصفار . الله يرحمه ويحسن إليـه ، أبوه الغلبان لـو عاش حتى رآه فى هذا الـوضع الممتاز ، ولـو امتد العمـر بأمه فعاشـت حتى رأته والنـاس تهتف باسمـه وتحملـه على الأعناق ، ولكن كل شىء قسمـة ونصيب ، وتجرى يا ابن آدم جـرى الوحـوش وغير رزقك ما تحوش ، وسبحانـه رب العباد يسبب الأسبـاب ، ويضـع سره فى أضعف خلقه ، ومن يدرى .. لولا الكورة لكان الكابتل الآن خلف الأسوار .

ولأن الكـابتل ذاق التشرد والجوع ، فقـد حـرص دائما على تـوفير بعض النقود ، وحتى لا يعـود إلى النوم فى الخرابة إذا هبت الـرياح بما لا يشتهى الكابتل . والغـريب أن الذى كان يخشاه حـدث بأسرع مما كان يتوقع .. فى البداية سمع كلامـا يتناثر هنا وهناك .. الشركة تنوى بيع الكابتل لنادى رمسيس ، الكـابتل يباع ؟ وهل صار البنى آدم مثل الحمار وفحل الجاموس ؟ ولكن .. يا خبر بفلـوس بكره يبقى ببلاش ..

استدعته إدارة الشركة وأبلغته أنه سينتقل إلى نادى النجوم مقابل ٥٠ ألف جنيه ، وسيكون نصيبـه من الصفقة ١٥ ألف جنيه ، وسيحصل النـادى على ٣٥ ألف جنيه ، وشعـر الكـابتل بأن قلبـه يرفـرف وعلى وشك أن يشق صدره ويحلق فى السماء .

١٥ ألف جنيه للكابتل .. لقد حرم نفسه من أشياء كثيرة لكى يدخر ١٥٠٠ جنيـه تكون عـونا لـه فى مواجهـة الزمن .. ولكن .. مـا مصير الشقة ! هكذا سأل الكابتن مديـر الشركة ، واطمأن عندما أخبره المدير أن الشقـة من أملاك الكـابتل ، إذا أراد أن يحتفظ بها فليفعل وإذا أراد أن يبيعها فهذا حقه .

يا قوة الله ، نادى رمسيس ليس من النوادى، إنه قطعة من الجنة .. وهؤلاء الأعضــاء لا يمكن أن يكونـوا من صنف البنى آدمين .. وأولئك الستات أشبـه بورد قـاعد على الكراسى ، والسنـدوتشات هنـا حلوة قـوى ، واللحمـة طـريـة وحتـى الكـازوزة طعمهـا مختلف .. وهنـا سيتقاضى الكابتل ألفين جنيه كل شهـر ، والنادى يتفاوض معه الآن ليسلم لهم شقتـــه ليشتروا لـه شقـة أخـــرى فى القـاهـــرة وفى حى المهندسين ، وهو لا يعرف أين يقع حـى المهندسين هذا ، ولكن لابد أن كل من يسكن هنـاك مهنـدس ، وحتى أصحـاب الـدكـاكين لابـد من المهندسين .

وفى أول مبـــاراة مع نـادى رمسيس ، رزع الكـــابتل كـــورة من منتصف الملعب ، لم يشـــاهـدهـا حـــارس المرمى إلا وهى تتلعبط فى الشبكة.. وقبـل نهاية المبـاراة بدقائق أخـذ الكابتـل الكورة وهـات يا ترقيـص ويا تغزيـل حتى حارس المرمى نفســه طرحه أيضـا قبل أن يركـن الكورة فى الزاويــة اليمنى .. ولم يخرج من النـادى ليلتها إلا فى منتصف الليل ، ولم ينم طول الليل عنـدما شـاهد صورتـه على صدر صحيفة (الأيام) ليته كان يجيد القراءة والكتابة ليعرف ماذا يقولون

عنه فى هذه الأوراق .. خلال الأسبوع التالى كـان لدى الكابتل هدايا لا حصر لها .. أحدهم أهـداة ساعة دهب بالشىء الفلانى .. وأحدهم أعطـاه باكـو بألف جنيه .. وبعضـهم قـدم بدلتين واحـدة فيهم بتلمع كأنها مصنوعـة من خيوط الفضـة .. الفلوس زى الـرز الآن ، والهدايا بـالكوم وشقـة المهنـدسين أصبحت حقيقيـة ، وحتى البواب ينـادى الكابتل بلقبه الجديد .. ياباشمهندس !

ولكن كله كوم وما حدث للكابتل ذات صباح وهو يجلس مسترخيا على أحد المقـاعد المتنـاثرة فى الحديقـة .. كوم آخر .. أقبلـت عليه بنت شكلهـا زى الغجريـة ، عيـونها واسعة وشعـرهـا سايب على كتفيهـا وفستانها يظهر أكثـر مما يخفى ، وعندما تجلس تـرفع ثوبها إلى أعلى فتظهـر أوراكها ، وصـافحت الكـابتل ثم طبعت على خديـه قبلتين .. يادى الفضايح يا ناس ، ولكنه عندما اختلس النظر فيما حوله لم يجد أحدا ينظر إليه ، الكل مشغول بنفســه وبمن معه ، وعندما دعته البنت على الغـداء نظر فى سـاعته ، وطلـب منها التمهل حتى يبـدأ المطعم فى العمل ، ولكنهـا جذبتـه من يـده ، لأنهما سيـذهبان للغـداء فى المطعم الصينى .. حلـوة دى .. وهل هنـاك مطعـم صينى ومطعم أمـريكى ؟ وانشرح قلب الكـابتل لأن الأكل الصينى مش بطال ، وحـراق زى أكل بلدنـا . وبعد الغـداء وجد نفســه فى شقة البنت الغجـرية ، لا .. ليست شقة ، ولكنها تسكـن فى صـالون حلاقـة ، هنا مرايات وستـائر ملونة ومـزيكة تخرج من الحيطـان ، ثم جاءت بـزجـاجة وكـاسات وعلبـة سجـاير من كل الأصنـاف ، علب من النـوع الذى يجلبـه البعض من بورسعيـد . ولم يخرج من صـالون البنـت الغجرية إلا فى مســاء اليوم التـالى .. خرج بعـد أن لفت البنت حـول رقبتـه سلسلة ذهبيـة تحمل اسمـه وخرطـوشتين سجـايـر ، وشىء ملفـوف فى ورق سوليفـان ، أوصته بأن يكون حريصا على تناوله فى إفطاره ، لأنه يقوى الساقين ، ويجعله أقدر على تسجيل الأهداف .

يا سلام يـا ناس .. إذا أقبلت باض الحمام على الـوتد ، وإن أدبرت شخ الحمار على الأسد ! والحمد لله لأنها أقبلت وستبقى فى حالة إقبال على الدوام . المهم أن العـلاقة بينه وبين البنت أصبحت أكثـر تطورا .. أغلب أيـام الأسبوع يقضيهـا عنـدها .. ولكـن بعد ذلك صـار ينضم إليهما آخرون .. ذات سهـرة جاء عدد من أصـدقائهـا ، أحدهم رئيس المباحث . ولم يصدق الكابتل أن الـذى يجلس معه هو رئيس المباحث ولكنه تأكـد من ذلك عندما زاره فى مكتبـه .. مخبرين إيه وعساكـر إيه ومتهمين إيـه ، أتخن شنب فيهـم يقف مـرتعشـا أمـــام البيـه رئيس المباحث ، ويا سلام على الـدنيا لما تضحك للبنى آدم .. رئيس المباحث نفسه خـرج لتوصيل الكـابتل حتى الشـارع ، وأصر على أن يكون فى شرف مـرافقتـه حتى بـاب السيـــارة . ولما اكتشف أنـه بـلا سيـارة استـدعى سيارتـه بالسـواق الشـاويش لتوصيلـه .. أعجب شىء أن العساكر فى الشارع كانـوا يضربون تعظيم سلام للكابتل وهو يخترق شوارع القاهرة بالسيارة .. البنت الغجريـة حلوة وطيبة وإيدها فرطة وفتحت له أبوابا كثيرة ، وقادتـه إلى عالم المزاج الأعلى .. الكابتل جرب الحشيش وجـرب الأفيون ولكـن هذا المسحـوق الـذى يشبه السكـر لا يعلى عليه .. شمـة واحدة وكل شىء آخـر مزاج .. فى أول مـــرة كان عليه أن يلعب مباراة فى اليوم التالى .. كـان المزاج لا يزال يداعب خلايا مخه.. لم يشعر بشـىء وهو فى الملعب ، ولكنـه عندما استـلم الكورة تحول إلى شيطـان ولم يترك الكورة إلا وهى داخـل الشبكة . النــاس الذين شاهدوا المباراة يؤكـدون أن الكابتل ممسوس ، وأنه فى الحقيقة عفريـت على هيئة إنســان وذات مساء فى حفلة عنـد البنت الغجـرية ، دست إحـداهن ورقة فى يـده ، وعندمـا ألقى عليها نظـرة اكتشف أنها رقم تليفون . وتردد عـدة أيام ثم أقدم على طلب الرقـم ، وجاءه صوت نـــاعـم جميل وصريح أيضـــا ، قـــالت للكـــابتـل ، مثلك لا يصلح للخصخصـة، ولكن مثلك ينبغى أن يكون (قطـاع عـام) لأنك فريـد

عصرك ، أنت لست مثل الآخرين وحرام عليك أن تنقطع لواحدة فقط ، مع أن الدنيا كلها تفتح ذراعيها لاحتضانك . ودعته إلى منزلها وذهب . يا قـدرة الله . بيت البنت الغجرية مجرد صـالة فى بيت الست .. جمال إيـه وغنى إيـه ، كما أن يـدها أكثـر سخـاء من الأخـرى ، أخيرا حقق الكابتل حلمه ، سلمته السيدة الجديدة مفتـاح سيارة جديدة باسمه . أين أنت يا ناظـر الملجأ يا جحش لكى ترى الكابتل فى ثـوبه الجديد ؟ ولكن الدنيا لا تترك راكبـا إلى الأبد ، ولا مركوبا إلى مـا لا نـهاية . جاءه شـاويش ذات مسـاء ومعـه خطـاب من السجن ، والخطـاب يحمل استغـاثة من نـزيل يعانـى بشدة ، ولم يكن هـذا النزيل إلا شقيقـه ، الوحيـد الذى بقى من أشقائه على قيـد الحياة . وخطف الكـابتل رجله إلى مـدير المبـاحث . ولكنه اكتشف أن المسألـة أكبر من طاقـة مديـر المباحث ، وعندما فاتح الست ، اتصلت تليفونيـا وأرسلته لمقابلة مدير السجون ، واكتشف هناك أن شقيقه خبير تـزوير ، وأنه محكوم عليه بالسجن لمدة ١٨ عاما ، سيقضى منهـا ٦ أعوام فقط خلف الأسوار .. واحتفل مديـر السجون بـالكابتل ، وقضى الـوقت كله معـه يتحدث حـول الأهداف التـى أحرزهـا الكـابتل فى مبـاراته الأخيرة . ومنحـه تصريحا بزيارة شقيقـه ، وتحدث مع مأمور السجن وأوصى بشقيق الكابتل وحـوله إلى لجنة طبيةٌ ، ووعـد الكابتل بتدبير طريقـة لشقيقه ليقضى فترة العقوبـة فى المستشفى ، وعندما غـادر مكتب المدير أصر الأخير على أن يصحبـه إلى الخارج ، وطلب منه أن يحضر إلى مكتبـه فى أى وقت إذا دعت الضرورة إلى ذلك :

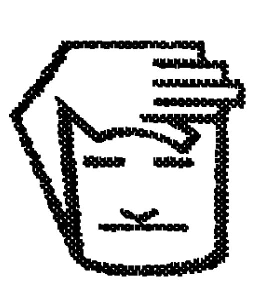
يالـه من وقت عصيب عنـدما وقع بصره لأول مـرة على شقيقه فى مكتب المأمور .. جلس معه ساعة كاملـة ، وسلمه ما معه من مأكولات وسجـايـر ودس فى يـده مبلغـا من المال ، ومنحـه شمـة واحـدة من المسحوق الـذى يشبه السكر . ووعـده بزيارتـه مرة على الأقل فى كل شهر ، وأعطاه أرقام تليفوناته ليتحدث معه إذا حدث ما يستدعى ذلك، وعندما غادر السجن كان البيه المأمور فى وداعه حتى باب السيارة.



تنظيم يا شاويش

١٦ الشيخ فتحى الحــــرامى

●● قبل دخولى سجن القناطر كنت أتصور أن السجن هو المكان الوحيد الذى تتحقق فيه المساواة بين الجميع. فعقوبة السجن معناها النزول بسكان الزنازين الى أحط مستوى اجتماعى يمكن النزول إليه فالطعام هدفه الحفاظ على الحياة فقط والملابس هدفها ستر العورات ، وطابور الشمس ليس للمتعة ولكن حماية للسجناء من الأمراض . ولكنى بعد دخول سجن القناطر اكتشفت أن السجن جزء من الحياة ، وما يدور خارج الأسوار يحدث مثله تماما داخلها . هناك المسجون الغنى ، والمسجون الفقير والمسجون الضائع والمسجون صاحب النفوذ ، وعرفت منذ اليوم الأول فى السجن أن باستطاعة القادرين استئجار من يقوم بخدمتهم ولذلك استأجرت سجينا لغسل الأوانى وعمل الشاى ونقل جردل البول إلى دورة المياه ، واستحضار مياه الشرب من حنفية المستشفى واحضار أرغفة الخبز من الفرن ●●



وجاءت قرعتى مع خادم يطلق لحيته بشكل مبالغ فيه ، ويمسك بين أصابعه بمسبحة طويلة ، وهو دائم الركوع والسجود فى أوقات الصلاة وفى غيرها ، كما أنه كان حريصا على صوم رمضان والأيام الستة البيض ، أما فى الأيام العادية فكان يصوم الاثنين والخميس من كل أسبوع وفى السجن يطلقون على الخادم الأجير كلمة النوبتشى ، وبعد مراقبة دقيقة للشيخ فتحى .. هذا هو اسمه ، اكتشفت أنه صادق فيما يبدو عليه من تدين وتمسك بأصول الدين .. وخيل إلى أن جريمته ربما كانت القتل من أجل الثأر أو من أجل الشرف ، ولكن أدهشنى أنه جاء إلى السجن فى جريمة سرقة وأنه مسجل خطر سرقات ، كان الشيخ فتحى يحكى بصراحة متناهية قصة حياته السابقة ، كان مجرد حرامى وسخ يسرق الغسيل من فوق السطوح ، ويسرق الفراخ السارحة فى الحارة ، ويسرق الأقراط الذهبية من أذن البنات ، وسجن عدة مرات سجينا بسيطا وعلى مدد تتراوح بين ثلاثة أشهر وسنة ، وأخيرا صدر ضده حكم سبع سنوات نظرا لتكرار جرائمه وتطور سرقاته التى بدأت بالفراخ وانتهت بسرقة خزينة مكتب البريد !

عند دخول فتحى السجن فى المرة الأخيرة فكر بشكل جاد فى الانتحار ، فسبع سنوات كفيلة بقصم ظهر جمل ، وفتحى له تجارب سابقة مع السجن ، ويعرف تماما قسوة السجن خصوصا إذا كان

السجين من الفقراء .. ولكن حظ فتحى الحسن أنه وجد فى السجن ما جعله يعدل عن فكرة الانتحار . فاتحه أحدهم فى خدمة رجل عجوز يحتاج إلى مساعدة فى الذهاب إلى دورة المياه ، ويعد له كوب الشاى ، ويرافقه فى طابور الشمس لأنه يعانى من روماتيزم حاد فى مفاصل ساقيه. كان العرض مغريا لفتحى لأن الأجر الذى عرضوه عشر علب سجاير فى الشهر وهى بالنسبة لفتحى ثروة كبيرة خصوصا أنه ضمن الطعام والشاى مع مخدومه العجوز. وتعجب فتحى عندما دخل زنزانة الرجل الذى سيتولى خدمته خلال الفترة المقبلة. كانت تدل على مدى الرفاهية التى كان يعيشها الرجل خارج الأسوار. وتصور فتحى أنه تاجر حشيش من المعدودين، وتمنى فتحى لو وجد لنفسه مكانا إلى جانب الحاج رفاعى بعد خروجه من السجن. إنه لا شك فى حاجة إلى رجل ميت القلب مثل فتحى، يخوض بحر الأخطار دون أن يرمش له جفن. وليس هناك نسبة بين الأخطار التى يواجهها الحرامى الغلبان، وتلك التى يواجهها مهربو الحشيش. لأن الحرامى الغلبان يمارس عمله بين جماهير أكثر منه غلبا، ونهار أبوه أزرق لو انكشف أمره فى حارة أغلب سكانها صياع وأرزقية على باب الكريم، وليله أسود من الخروب إذا عكموه فى أتوبيس أو فى قطار. وبعد أسابيع من العمل عند الحاج رفاعى أدرك فتحى أنه عثر على ضالته أخيرا، فالطعام أكثر من فاخر، ويجلبه الحاج رفاعى من الخارج كل يوم، والشاى متوفر والسكر يكفى لعدة شهور، وخراطيش السجاير من الأرض إلى السقف ومع ذلك لا يقربها الحاج رفاعى، لأنها للشاويشية والعساكر والحلاق والغسال والفران، وأيضا لشراء ما يعرضه المساجين من سلع داخل السجن ويحتاج إليه الحاج رفاعى ولكن الذى أدهش فتحى أنه عرف أن الحاج رفاعى ليس من تجار الصنف. وقيل له إن تهمته سياسية، وإنه دخل السجن فى عام ١٩٦٥

لأسباب سياسية، فالرجل يعمل بالسياسة وهدفه خدمة الوطن والناس، ولكنه اختلف مع الحكومة فدخل السجن، وعانى الحاج رفاعى فى سجنه كما لم يحدث لأحد من قبل. ولكن شاءت إرادة الله أن يرفع عنه معاناته، فمات الحاكم وجاء حاكم جديد، فخفت عن الحاج رفاعى القيود، وأمر بمعاملة الحاج وزملائه بالحسنى وتلبية رغباتهم، فخرج أكثرهم إلى المستشفيات، وأفرج عن الذين أمضوا نصف المدة، وعاش الذين بقوا فى سجن القناطر عيشة السلاطين.

لحظة دخول العبدلله السجن كان الحاج رفاعى قد غادره إلى منزله. وبقى فتحى لقضاء مدة العقوبة، ولكنه كان قد تغير على نحو لم يكن يتوقعه أحد ولا فتحى نفسه. فقد كان فتحى تحت تأثير الحاج رفاعى يواظب على الصلاة، ويحضر صلاة الجمعة ويحضر أيضا دروس الوعظ التى كان يشارك فيها الحاج رفاعى نفسه. وشيئا فشيئا اندمج فتحى مع الجماعة وأطلق لحيته وواظب على الصلاة والصيام، وأمعن فى الطريق لدرجة أنه كان يصوم يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع ويصوم رجب كله، ولم تنقطع صلة فتحى بالحاج رفاعى، إذ استمر الحاج رفاعى فى إمداد فتحى بين الحين والآخر ببعض النقود، وكان يرسل له فى بعض الزيارات من يحمل له الأطعمة والسجاير وكميات السكر والشاى وبعض الحلوى وما يحتاجه الحاج فتحى من ملابس فى بداية فصل الصيف وفصل الشتاء.

وبالرغم من عدم احتياج الحاج فتحى إلا أنه قبل العمل كنوبتشى مع العبدلله عندما عرف أن تهمتى سياسية كالحاج رفاعى. صحيح أن فتحى فشل فى الحصول على جواب حاسم من الحاج رفاعى عندما سأله عن السبب فى سجنه، مع أنه رجل طيب ويعرف الله ويمشى على طريقه. كل ما قاله الحاج رفاعى لفتحى : إنهم سجنوه لأنه يعبد الله ويؤدى واجبه كمسلم ويتطلع إلى عالم تسوده الطمأنينة والأمان.

ولم يعلق فتحي على جواب الحاج رفاعي، فهو يعلم بتجربته أن الحكومة ظالمة، وأنها أحيانا تسجن الأبرياء. وهو نفسه تعامل مع كل الحكومات التي تولت السلطة في قسم روض الفرج ضابط مباحث يذهب وضابط مباحث يأتي. ولكن سلوك الجميع واحد، والظلم هو شعار الجميع .

— تصدق حضرتك. وأنا في السجن هنا جاتلي الحكومة لحد هنا، عارف البيه ضابط المباحث عاوز إيه؟ عاوزني أعترف بعشرين سرقة حصلت في القسم بتاعه عشان ما يتحاسبش على التقصير .

وأنت مالكش دعوة بالسرقات دي ؟

— ولا أعرف عنها أي حاجة .

وعملت إيه ؟

— اعترفت له، عشان يستفيد هوه، وأنا كمان مش هيحصلي حاجة لأن أي حكم آخذه على سرقة تاريخها قبل سجني يخش في السبع سنين، هوه القانون كده من غير مؤاخذة .

لكن ليه تعترف بجريمة أنت ما عملتهاش ؟

— طيب وأعمل إيه؟ إذا كانت الحكومة بذات نفسها جت لحد السجن. والضابط قعد معايا في أودة الوكيل.. زميله وصاحبه أنا قلت لنفسي البيه الحكومة في قسم روض الفرج يحفظ جميلي، ويمكن يعاملني كويس بعد كده، والبيه الوكيل كمان يرضى عني عشان جاملت صاحبه. وصمت فتحي قليلا ثم قال :

— تعرف يا أستاذ.. فيه ناس هنا رفضت تعترف، اللي حصل لهم في السجن ربنا ما يوريه لحد. ضرب وجلد ونوم على البلاط في زنزانة التأديب سكت فتحي لحظة وسألني فجأة :

— لكن أنت جابوك السجن ليه؟ مع أنك ما بتصليش بانتظام وما بتصومش الاثنين والخميس ؟

قلت لفتحى بصراحة :

الحقيقة يـا فتحى احنا جينـا نستولى على الحكـومة، لكن أعـداءنا سبقونا وإستولوا عليها وسجنونا وسألنى فتحى مندهشا .

— وانتو بقـى الحكومة بتـاعتكم فى قسم إيه، قصر النيـل واللا فى الجيزة. اكتشفت فى تلك اللحظة أن الحكومة التى يقصدها فتحى هى : ضابط المباحث. فتحى لا يعنيه وزير المالية أو وزير الصناعة. كما أنه لا يعرف وزيـر الداخلية. وقـد تذهب حكومـة قاسية وتأتى حكـومة معتدلة، ولكن فتحى لا يشعر بأى فـرق فضباط المباحث لهم سياسة واحدة لا يـؤثر فيها الزمـان وهذه الحكومة التى يتعـامل معها فتحى لا أمل فى إصـلاحها. وليس هنـاك أمل فى عقـد هدنـة معها.. وحـاول فتحى أن يعـرف منى معنى محاولتنـا الاستيلاء على الحكـومـة. هل نقتحم قسم البـوليس ونحتل مكتب ضـابط المبـاحث ونـديـر العمل عوضا عنه. وحـاولت أن أشرح له الأمر ولكننى فشلت، فلم يكن فتحى على استعداد ليصدقنى أو يصدق غيرى بأن ضـابط المباحث ليس هو الحكومة، وأن الفرق كبير بين الاثنين .

— طيب تصـدق باللـه يـا أستاذ، أتخن تخين فى روض الفـرج لما يشـوف ظابط المبـاحث يقف على رجليـه يعظم. حتى المعلم عـوضين المرعب اللى بيهز الدنيا كلها بيبقى زى القطة قدام البيه ظابط المباحث.

وصمت بعض الوقت ونظر نحوى نظرة طويلة ثم قال :

— طيب وحضرتك مين اللى جـابك لحد السجـن هنـا؟ مش البيـه ظـابط المباحث. أنـا شفتك وأنت داخل والحكومـة معاك وسلمـوك ع السركى وروحوا همه. مش كده بذمتك .

وهززت رأسى بـا لموافقة، وبدا على فتحـى الرضا لأنـه استطاع فى النهايـة اقناعى بـوجهة نظره التـى هى الحقيقة الوحيـدة وما عـداها أكاذيب خـدمنى فتحى سبعة عشر شهـرا وفى غاية الانضبـاط. وكان

يـؤدى واجبـه دون حاجـة إلى تعليمات من جـانبى. يعـد الشـاى فى الأوقات التى يشعر فيهـا أننى محتاج للشاى. ويبحث عنى فى كل ركن يحتمل وجـودى فيـه. فى المستشفى فى الحوش فى المدرسـة فى الملعب، وغـالبا يبحث عنى عنـدما ينتهـى من إعداد وجبـة الغداء. وفى شـهـر رمضان كان مسمـوحا بفتح الزنازين إلى ما بعد وجبـة الافطار. وكان فتحى الصائم يعد لنا وجبـة الافطار، ويحرص على تدبير المواد الأولية اللازمـة لطبق السلطة. ولا يعوقـه شـىء عن تدبير ما نحتـاج إليه من خضراوات، كـان يجلبه غـالبـا من مزرعـة السجن، وكـانت علاقتـه بالحرس على مايرام، بـاعتباره من المسلمين الطيبين الذين يرضى عن أمثالهم رب العبـاد. وكان الحراس يصطفـون خلفه فى صـلاة الظهر والعصر، وكان الشيـخ فتحى يؤذن للصـلاة بطريقـة تشبه الأذان فى ريف مصر، وكان الحراس يستمتعون بصـوته المتحشرج الذى هو فى نظرهم علامة التقوى والإيمان.

وعندمـا حانت لحظة الإفـراج عن العبدلله، تـركت لفتحى ما تبقى عنـدى من سجـايـر وشاى وسكـر وبعض الملابس وبطـانيـة ملكى فاخرة وحذاء وبعض الملابس الداخليـة والجوارب، كانت كلها جديدة لم استعملها فى أى وقت. وشكرنى فتحى وهو يـودعنى طالبا لى حياة جديـدة آمنة وعـلاقة حسنـة مع البيه ظـابط المباحـث فلا أعـود مرة أخرى إلى هنا.

أما ربنـا يفك سجنك أبقى فوت علىّ وربنـا يكرمك بشغلـة شريفة ويتوب عليك من السرقة والسـجون.

وقال فتحى

— سرقـة تانى مش هيحصل، أنـا ربنـا تاب علىّ من السكـة دى وهـاعمل اللى يـرضيه. والحاج رفـاعى كـان وعدنـى بشغلة شريفـة، وهافوت عليه الأول، إذا ربنـا وفقنى هابقى أجيلك عشـان أسلم عليك.

وإذا ماحصلش هاجيلك عشان تدور لى على شغلانة إن شا الله فى مسجد أهلى أو فى دكانة أو مكتبة أو أى حاجة شريفة تبعدنى عن الطريق اللى كنت ماشى فيه .

ومر عام كامل قبل أن أرى وجه فتحى مرة أخرى، جاءنى فى ثياب بيضاء نظيفة، وإن كان جلبابه أقصر من المألوف. ويلف رأسه بشال أبيض، كان يحلق شاربه ويرسل ذقنه بطريقة مهذبة تلفت إليه الأنظار .

وبادرنى فتحى قائلا :

— الحمد لله اللى جمعنا على خير، أنا جى أسلم عليك بس، الحاج رفاعى ربنا يخليه شاف لى شغلة حلوة قوى، واداني اجازة لمدة شهرين أشوف فيها حالى وأدبر أمورى، واداني قرشين أأجر مطرح بعيد عن روض الفرج، وبالفعل لقيت سكن كويس مع ناس كويسة نواحى البدرشين. وبينى وبينك أنا طول النهار فى الجامع بأصلى وأحفظ كتاب الله. ثم تنهد ونفخ نفخة شديدة وقال :

ياسلام.. دا الاستقامة دى حلوة قوى، دا الواحد كان مخبوط فى عقله وكان عايش زى الحيوان .

عندما استأذن فتحى فى الانصراف، حاولت أن أدس فى يده ببعض الأوراق المالية، ولكنه رفض بشدة. فلما أصررت قبلها .

بس عشان حضرتك ما تزعلش منى، أنا مش محتاج والحمد لله، والحاج رفاعى ما بيقصرش .

اختفى فتحى طويلا، ثم عاد لزيارتى قبل أيام من مغادرتى مصر إلى منفاى الاختيارى فى عام ١٩٧٤. ولم يكن وحده، ولكن كان بصحبته شخص آخر يرتدى نفس ملابسه ويطلق ذقنه بنفس طريقة فتحى. وتصورت أنه جاء بصديقه بحثا له عن وظيفة. ولكنه قدمه لى باعتباره شريك الزنزانة التى كان يقيم فيها بسجن القناطر .

بس أنت حضرتك مـا شفتوش، أصلهم أفرجـوا عنه بعـد وصولك السجن بأسبوع وراخـر كان نوبتشى عنـد الحاج زيدان، راجل طيب زى الحاج رفاعى بـالظبط وهمه الاثنين كانوا أصحـاب واتمسكوا مع بعض واتسجنوا مع بعض. راخر كان آخر إيمان وصلاح، وتقوى .

وأشار إلى أن زميلـه انصلح حاله على يد الحاج زيـدان، الناس دى ربنا خـالقهم عشان صـلاح الدين والـدنيا. حـاولت تقديم مســاعدة للشيخ فتحى أو زميله ولكنه رفض. وقال فى سعادة واضحة :

كفـايـة نعرف حضرتك ونشـوفك، دا نـاس كثير تعـرف حضرتك بيقولوا بس لو ربنا يشرح صدره للإسلام .

نظرت لفتحى نظرة غاضبة وقلت له :

وأنا مش مسلم يا فتحى ؟

ورد على الفور :

لا.. أنا أشهد أنك مسلـم كويس وتعرف ربنا، لكن همه بيقـولوا لو قلمه يخدم الإسلام .

يعنى ايه قلمه يخدم الإسلام يا فتحى .

صمت عدة لحظات ثم قال :

والله أنا سمعتهم بيقولوا كده .

همه مين يا فتحى اللى بيقولوا كده .

الاخـوة اللى معانـا، أصل أنت ما تعـرفش إيه اللى حصل ـــ الحاج رفاعى والحاج زيدان ونـاس ثانية جمعوا نـاس كثير زى حالاتى كده من اللى كانـوا ماشيين فى سكة الشيطان. تعرف يـا أستاذ لقيت ييجى عشرة من اللى كانـوا فى سجن القناطر إيشى حرامية وإيشى نشالين وإيشى بلطجية ، وجمعونا كلنـا فى البلد دى ، أى والله وعاملين مزرعة حلوة قوى ، أرض صلحوها فى الجبل اللى عنـد سقارة وبنزرع دلوقت أحسن زراعـة ، وكل واحد بيشتغل شغلتـه وبقية الـوقت فى الجامع ،

دروس دين ورياضة وحاجة حلوة قوي .

مش قادر أقولك احنا مبسوطين قد إيه ؟ وكفاية رضا ربنا علينا .

وبيني وبينك يا أستاذ الحكومة الموجودة اليومين دول كويسة ، مش زى الحكومة دوكها ، البيه ظابط المباحث ندهلنا عنده فى البدرشين ، وسقانا قهوة فى مكتبه ، أى والله ، أول مرة نشرب قهوة مع الحكومة وقال لنا أنا عارف انتومين وكنتم إيه قبل كده . لكن دلوقت أنا مبسوط منكم قوى ، السكة اللى انتو ماشيين فيها دلوقت هى السكة الصح .

وربنا يوفقكم وياريت تهدوا كل الناس اللى زيكو .

كان هذا اللقاء هو آخر عهدى بفتحى .. غادرت مصر فى رحلة . امتدت مائة شهر كاملة ، ثم عدت فى عام ١٩٨٢ ومرت أربعة عشر عاما طويلة دون أن يقع بصرى علّى فتحى ، ولم يحاول فتحى الاتصال بى ، وتصورت أنه إما غادر القاهرة وإما انتقل إلى رحاب الله.

ومنذ أسابيع قليلة وقع بصرى عليه ، صورته منشورة فى جميع الجرائد اليومية . فتحى بلحمه وشحمه ، مطلوب القبض عليه فى حادث سطو على محل مجوهرات فى الصعيد ، يا قوة الله ، الشيخ فتحى الحرامى عاد إلى مهنته القديمة ولكن فى ملابس جديدة ، وبعد أن هادنته الحكومة وشرب قهوة مع البيه ظابط المباحث ، ودعا له بالتوفيق فى هداية أمثاله من الحرامية والنشالين !

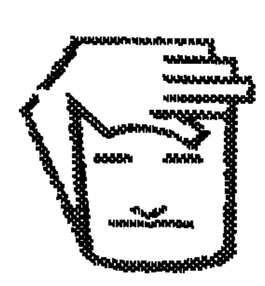
كم كنا فى منتهى السذاجة جميعا ، الحكومة والناس والعبد لله أيضا كان على رأس طابور المغفلين !





١٧ من طقطق لسلامو عليكم

●● عى مدى سنوات طويه كن لعد طقطو من نوع نى كـ فى خيره شرد . سيع نصنف فى عبوت صغيرة نص قرش وربع قرش ، وكنت اجنبهات نعبنة تنى يكسبه تكفيه وتكفى بنته لصغيرة نتى تركهـا نه مه وزحت فى زحف نه وكان سعد ا بنعشة نى نعب فيها ونى ثـمه فى نصحراء على مشرف أرض تعاه . ونى كنت مكونه من حجرة موسطه وحجرة صغيرة ومساحة صية تكفى نمو لطعام ولفرجه على نسفزبون . ولم تحدث فى حدة لعد طقطو نه ضطر الى عرض بضاعته على حد من تزبائن . ونكن لزبون هو لذى كن يسعى نيه وكانت بضاعته من صمص . حشيش وفيون . وكنن تكر صنف نه كودى ، لأفيون هو نزبون .. وحشيش هو جبنة نرومى وكن نزبون نس فيحدد تصف نذى يريده ثم يسس نقود فى يد لعد طقطق وعى قدر قوسه يحصل على ميتعد . ونو سرت لأمور عى هذا لنحو ألف عام لـ حدث مكروه لمعد طقطق ولكن معون أبو تنسطن لذى كن لسبب فيه حدث إذ صح جاءه زبون ووقف بيديه لـلاكى على مقربه من نكان وتقدم من لعد وثنى تحته صنج ثم وقف صامت . وبعد فترة صمت قصيرة اضطر لعد إلى سؤال لرجل .. زبون ولاجبه ؟! ورد لرجل بهدوء .. لا ده. ولا ده. وقل لعد لرجل طلبات سعادتك ؟ ولم يرد لرجل ولكنه رفع حقيبة كانت فى يده ووضعها أمام لعد وفحص لعد لشنطه ثم خرج ثم قال للأفندى نو ثقف أمه بورد من غير مؤاخذة ورد لأفندى فى نهجة واثقه افتح لشنطة وأنت تعرف فقال لعد للأفندى ●●



ـ طيب مش الأول نتعرف على حضرتك .

ورد الأفندى على الفور .

ـ مش مهم تعرف أنا مين، المهم نشتغل سوا .

ثم قال بلهجة آمرة :

ـ افتح الشنطة واتفرج .

فتح المعلم (طقطق) الشنطة ويا لهول ما رأى. عشرات من طرب الحشيش ملفوفة بأناقة ومرصوصة بعناية ورائحتها النفاذة تتصاعد فى الجو. والمفاجأة عقدت لسان المعلم ولم يستطع أن يصلب طوله فجلس على المقعد الوحيد المتهالك المركون داخل الدكان. ماهذا الذى يراه؟ هل هى ورطة؟ هل هو كمين؟ ولزم الصمت فترة راح يلتقط فيها أنفاسه بصعوبة، ثم نطق عدة كلمات بصوت خافت للأفندى :

ـ طيب مش من غير مؤاخذة نعرف الحكاية إيه ؟

وقال الأفندى :

ـ ولا حكاية ولا رواية، بضاعة أنا جايبها لك، انت حتصرفها وتاخد حسنتك، وكل ما تخلص من شنطة هاجيبلك شنطة ثانية .

ـ لكن دى فلوس كتير قوى، وأنا من غير مؤاخذة بالعب فى أبونكلة.

ـ مفيس حاجة بتفضل على حالها، والصغير بيكبر يا معلم .

ـ لكن اشمعنى أنا ؟

ـ أنا درستك وعرفت عنك كل حاجة، وانت راجل طيب ومالكش دوسيه فى الحكومة .

ـ طيب وانت عرفت ازاى ؟

ـ أنـا باعرف حاجـات كثير قوى، وبعدين مالهاش لـزوم الأسئلة الكتيرة دى. خلى علاقتنا فى حدود الشغل .

ـ طيب مش ممكن أعرف اسم سيادتك وبتشتغل إيه ؟

ـ ولازمته إيه، هـوه أنا هاخد منك حاجة، أنـا هاديك.. وبعدين عن إذنك أنا مستعجل .

نـادى المعلم (طقطق) على الأفنـدى وتوسل إليـه أن يتمهل قليـلا، وعندما عاد الأفندى إلى مكانه الأول، قال له المعلم :

ـ طيب انت مش خايف أحسن أكلك أو انصب عليك ؟

وقال الأفندى بلا مبالاة وهو يستعد للانصراف :

ـ أنا ما حدش يقـدر ياكلنى أو ينصب على، توكل على الله يا معلم، إن شاء الله هتشوفنى قريب لما تصرف البضـاعة .

عندما اختفت السيارة بعيدا سارع المعلم (طقطق) بإغلاق الدكان، وأخذ الشنطة معه إلى داخل البيت، وانتابته رعشة شديدة عندما عاود فتح الشنطة، إنه لم يحلم فى حياته بأن يذهب فى تجارة الصنف إلى هذا الحد. بهذه الشنطة التى بين يديه قفز المعلم (طقطق) إلى مصاف كبار المعلمين، سار مثل المعلم قرقر والمعلم كتكت والمعلم طلبة، وهو وضع لايحتمله المعلم (طقطق) لأنـه يعلم أن الحياة أخذ وعطا، وعلى قـدر ما تأخذ على قـدر ما تعطى. والبحـر الذى كان يعـوم فيه ديتـه بسيطة، ستة أشـهر سـجن وأقصـاها سنتان. أما هذا البحر الجديـد الذى وجد نفسه فيـه فديتـه تبدأ من المؤبـد وتنتهى بالإعـدام. والمعلم (طقطق) لايخاف المصير المنتظر، ولم يكن لديه مـانع من الحياة خمس سنوات فقط فى العز والنعيم ثم يحدث بعد ذلك أى شىء. ولكن الشىء الوحيد الذى يقلقه هـو ابنته، لقد أصبحت البنت على وش جـواز، وماذا يكون مصيرها لو ذهب إلى السجن المؤبـد، وتعلق فى حبال المشنقة. لا حول

ولاقوة إلا بالله، مصير أسود نهاية سيئة للعائلة الصغيرة التى حاول دائما حمايتها من شر الزمان. وفكر فى أن يرفض عرض الأفندى الغامض ويرد له الشنطة، ويتشبث بموقعه كتاجر قطاعى، لا يلفت نظر رجال المكافحة ولا تطارده أسراب المخبرين. ولكن.. من الذى يرفض ثروة هبطت عليه من السماء؟ ومن يستطيع مقاومة إغراء الصعود على سطح الدنيا بدلا من البقاء فى السرداب؟ وهل ترفض حلاوتهم ابنته أن تقب على وش الدنيا؟ هل ترفض أن يكون لها حشم وخدم وأن تعيش حياة البنى آدمين؟ لم يغمض له جفن طوال الليل، وكان بين الحين والآخر يقوم من مضجعه ليلقى نظرة على البنت حلاوتهم. وكان يسعده أنها فى عالم آخر لاتشعر بقلقه ولاتحس بالنار التى تأكل قلبه المذعور.

كان على المعلم (طقطق) أن يخرج من عزلته التى فرضها على نفسه على حافة الصحراء فى أرض النعام. أصبح لزاما عليه أن ينزل السوق لتصريف الصنف على من يستطيع دفع ثمنه. وبالفعل ذهب المعلم (طقطق) إلى الباطنية حى المخدرات، وفاتح المعلم درويش الذى يتعامل معه فى القطاعى. وهو معلم متوسط ولكنه يعرف أحوال السوق، وله علاقات بعدد من الحيتان الكبار. وحاول أن يعرف من المعلم درويش معلومات تفيده دون أن يكشف له عن سره، ولكنه لم ينجح فى الوصول معه إلى شىء.

ويبدو أن المعلم درويش حذر أكثر من اللازم، أو أنه لايعرف أى شىء. وأخيرا استقر رأى عم (طقطق) على أن يذهب إلى الباشا دون سابق معرفة وأن يعرض عليه الصنف وليكن بعد ذلك ما يكون. كان الباشا يتخذ من أحد كازينوهات شارع الهرم مكانا مختارا، يسهر فيه مع أصدقائه، ويعقد فيه الصفقات مع عملائه. وانبهر المعلم (طقطق) بمنظر الباشا، يا سلام باشا بحق وحقيق. أسطول سيارات

فى انتظـــــــاره، وطقم كامل من الالاضيش حوله. بعضـهم للحراسة وبعضـهم لوضـع كل ما يـدور فى عقل الباشا موضـع التنفيـذ. يا سلام يا ناس، هكذا تكون العيشة واللا بلاش. المائدة حافلة بكل الأصناف، والجميلات حوله كالفراشات. والباشا نفسه يهمس ولا يشخط يشير ولا يفصح، ويومىء ولا يأمر. ولاتعرف يســاره مادفعته يمينه لأنه لا يحاسب ولا يدفع، ولكن الذيـن حوله يقومون بـالعمل كله والحساب يجمع يـوم الحســاب. وبـالـرغم من الهيل والهيلمان استطـاع المعلم (طقطق) أن يفـاتحه فى الأمر، كـان الباشــا يستمع بأذنه بينما عينــاه سارحتان فى تعاريج جسم الـراقصة التى تتلوى على المسرح. وعندما انتهى المعلم (طقطق) من عرضه، أشــار الباشا إلى أحد الحاضرين، ثم أشار للمعلم (طقطق) بـالذهاب معه. وركب الاثنــان معا انطلقت بهما السيارة إلى أرض النعام. ولعب الفار فى عب المعلم (طقطق) فلم يحدث بينه وبين البـاشا أى اتفاق، فقط إشـارة من إصبعه وغمـزة من عينه وسلام عليكم وعليكم السلام. ولكن.. هل يمكن لـرجل مثل الباشا أن ينصب عليه؟ هل يطمع رجل مثل الباشــا فى بضاعة (طقطق) الغلبان؟ ومن الـذى يستطيع الإجـابـة على هذا الســؤال؟ ومــا الـذى يستطيع (طقطق) أن يفعلـه بعد أن وقعت الفـاس فى الراس. نزل مــن السيارة الفاخـرة التى أقلته إلى أرض النعام، ودخل بيته وألقى نظـرة اطمئنان على حلاوتهم، وارتــاح قلبه عندمــا اكتشف أنها تغط فى نوم عميق. ثم تناول الشنطة وسلمهــا للبيه وكيل الباشا، الـذى تناولها بعدم اهتمام ومضـى إلى حال سبيله دون أن يتبادل كلمة واحدة مع المعلم (طقطق) يــالها من مصيبة كبرى إذا انتهت المسألـة عند هـذا الحد؟ وما الـذى سوف يحدث له إذا عمل الباشا طناش وأكل الشنطة بما فيها من رزق وفير؟ ومــر أسبوع كأنــه الـدهر كلـه، وذات مســاء والكلاب تعــوى

بجنون حـول البيت توقفت سيارة ونـزل أحدهم منها وطـرق الباب، وعندمـا فتح المعلم (طقطق) اكتشف أنه أمام البيه نفسـه الذى استلم منـه الشنطة منـذ أيام. ولم يفتح الـرجل فمه بحـرف، مد يـده وسلم المعلم (طقطق) نفس الشنطة التى كانت تحتوى على الصنف. ياداهية دقى... هل لم يعجبهم الصنف؟ هل باظت الصفقـة؟ فتح الشنطة على عجل ليكتشف أن الصنف اختفى وحلـت محلـه رزم أوراق مـاليـة... ياقوة الله. أغلق الشنطة وركنها خلف الباب وجرى خلف البيه قبل أن ينطلق بالسيارة، وسأله وهو يرتعش :

ـ ماقدرش أشوف الباشا ؟

ونظر إليه البيه نظرات متفحصة وقال :

ـ حاضر، نقوله، ولما يحدد لك ميعاد هنيجى ناخدك .

ثم انطلقت العربة كالسهم، بينما تصـاعدت أصوات الكلاب داخل الصحـراء. وطول الليل لم يغمض للمعلم جفن، انهمك فى عـد الأوراق المالية، ياقوة الله... مائة ألف جنيه بالتمام والكمال. ولكن هل هذا هو ثمنهـا الحقيقى؟ وهل يخفى جـزءا لنفسه أم يقـدمهـا كلـه للأفنـدى المجهـول؟ المهم أنـه فى الصباح تـرك النقـود كما هى فى الشنطـة ولم يدخل فى النـوم إلا والشمس تتسلق العلالى. وعندما جـاءت حلاوتهم لإيقاظـه كانت الساعـة تشير إلى الغروب. وقد تصـورت حلاوتهم أن والدهـا مريض، ولكنه نفى لها ذلك، وتعلل بأنـه مصاب ببرد خفيف، وأنه سيعـاود نشاطه فى اليـوم التالى. ولكن... هل يعاود فتح الـدكان مرة أخرى، ويصبر على «رزالات» الزبـائن، وسخافات اللى يسوا واللى مـا يسـواش؟ طيب... ولـو قفل الدكـان.. هل يثير ذلك انتبـاه أحـد؟ المسـألة فى حـاجة إلى تفكير، وأفضل شىء أن يهجر أرض النعـام كلها وينتقل إلى الحيـاة فى أحيـاء البنى آدمين. هذا أفضل مـن البقاء هنـا،

ولكنه لايستطيع الانتقال قبل إخطار الأفندى المجهول .

فى اليوم التالى مباشرة حضر الأفندى المجهول، وما أن وقع بصره على المعلم (طقطق) حتى سأله :

ـ هيه .. كل شىء تمام ؟

ومد المعلم يده بالشنطة ووضعها أمام الأفندى، الذى قام بفتحها ثم ألقى نظرة على مافى داخلها، نظرة خاطفة مع ذلك تمكن من معرفة المبلغ الذى يرقد داخلها، ولم يعلق إلا بعبارات بسيطة :

ـ ميت ألف بس، دا بقى حرامى الباشا ده، هوه ضحك عليك فى مبلغ زى ده، ولازم تقولله كده عشان يعرف إنك فاهم .

ثم مد يده فانتزع عشرة آلاف جنيه ووضعها أمام (طقطق) ثم أخذ الشنطة وسلمه شنطة غيرها، شنطة لها نفس المواصفات ونفس المقاس وبها نفس الصنف. والله ابتسمت لك الحياة يا عم (طقطق) وحظ بمب يا حلاوتهم وربك عالم بالغلابة، ولكن ماذا لو تأخر مندوب الباشا فى الحضور ؟ ولم يطل انتظاره فبعد أقل من أسبوع حضر له مندوب الباشا وحمله حيث يوجد ضمن شلة من الناس الكبار، وفى هذه المرة كانت الجلسة فى عوامة على صفحة النيل. وسأله الباشا فى استنكار :

ـ هيه ، معاك تانى واللا شطبت ؟

ـ خير ربنا كتير يا باشا، بس السعر دا ما ينفعش .

ـ خلاص ، هنزودك خمسين ألف، بس يكون هوه نفس الصنف .

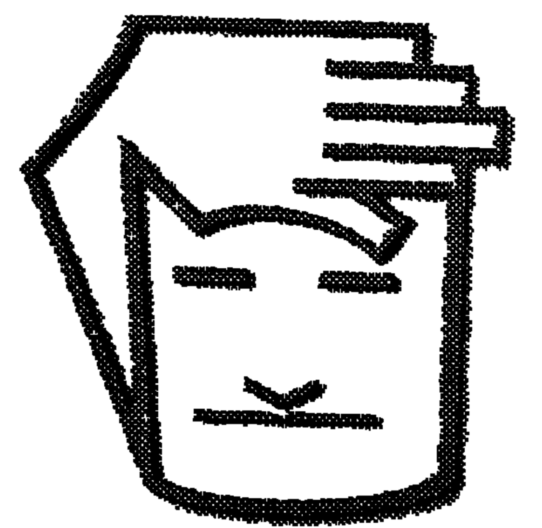
غادر المعلم (طقطق) العوامة د "البيه وكيل الباشا وسلمه الشنطة وبعد يومين عاد مندوب الباشا ومعه الشنطة بالفلوس. وهكذا مضت الحياة بالمعلم (طقطق) والأفندى والباشا ومندوبه، وفى عدة أسابيع كان المعلم قد جمع حوالى خمسين ألف جنيه، كان لا يتصور أن يراها

فى الأحلام. وذاع أمر المعلم (طقطق) فى السوق، واتصل به آخرون من كبار تجار السوق، وصار يسهـر كثيرا فى مصر، يعود إلى أرض النعام فى الفجـر، وفى كل يوم يســأل الله الستر، فهـو بطبعـه يحب العزلـة، والاختفـاء أفضل من الظهـور، ولكن ما بـاليـد حيلـة، وكان عليـه أن يجارى المرحلة الجديـدة، فانتقل من أرض النعام إلى مـدينة نصر، وفى مسكن واسـع وحجراته كثيرة، وأصبح لديه ثلاجـة وبوتاجاز وغسالة وخادمة تـرعى شئونه وتلبى حاجـات البيت. وأصبحت حلاوتهم بعد انتظام مـواعيد الأكل والمعيشة فى مسكن صحى كالقمـر المنير، ولابد سيأتى لها عدلها فى يوم من الأيام، وتغيرت أحوال المعلم (طقطق) كما عرف السهـر فى الخارج، عرف السهر فى البيت، وصار يـدعو المعلمين إلى منزلـه، وأصبحت حلاوتهم هى المشرفة على السهـرات. وكان قلب المعلم يوجعـه كلما ضبط عيون الضيـوف تكاد تلتهم القـوام الملفوف والوجـه المضىء كالقمر ليلـة التمام. وتمنى على الله أن يرزقهـا بابن الحلال بعيـدا عن ســوق المعلمين كم يسأل الله أن يـرزقهـا بأفنـدى مستـوظف يعيش بـالحلال وفى الحلال، فهـذه المهنـة التى يعمل بها المعلم لا أمان لها ولا ضمان. وياما فى السجون معلمين كانت كلماتهم أوامـر ورغبـاتهم قـوانين، ثم خسروا كـل شىء، ومـاجـرى لأسرهم يحتاج إلى موال من مواويل محمد أبو دراع!

يـاسلام يـا معلم (طقطق) سترى الدنيـا على حقيقتها الآن. دعـاه المعلم عواد على رحلة فوق ظهر مركب تطوف بموانىء البحر الأبيض، سترســو فى تونـس وفى طنجة وفى لشبـونـة وفى مـرسيليا وفى بيريـه بـاليونـان وعلى الشــاطىء التركى والشـاطىء السورى ثم تعـود إلى الاسكنـدريـة فى أمـان اللـه. ويـا ميت فل على البحـر المتـوسط وعلى خواجـاته. وهـو معزوم على حســاب المعلم عواد، ومع ذلك فـالفلوس

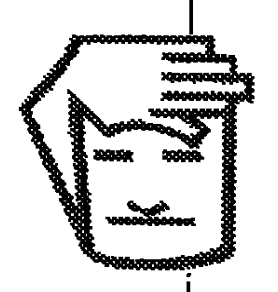
معـه كالـرز، وسيـدلع المعلم نفسه ليثـأر من سنوات الفقـر والغلب. ولكن حلاوتهم!؟ لايزعجه الآن إلا أمر حلاوتهم. ومع ذلك فقد صارت واحدة ست، وهى عاقلة وتستطيع أن تتصرف، وستقوم هى باستلام الشنطـة وسيحضر المنـدوب لاستلام الشنطـة منهـا، ودولاب العمل سيدور كما لو أن المعلم (طقطق) نفسه موجود فى مصر .

وهمس لحلاوتهم بنصـائحـه، وأوصـى الأفندى الغـامض عليهـا، وأوصى المنـدوبين الذين يتسلمـون الشنط، وأوصـى الست الشغالـة التى تـرعـى شئـون البيت، ثم ودع الجميع وركب البحـر مع المعلم عواد، رحلة اكتشاف لذيذة للعالم الوردى .



١٨ أبو شنطة !

●● يا سلام على عظيم صنع الله وعميق حكمته .. لم يتصور المعلم طقطق صورة البحر، كما يراها الآن ، كان يتصور أنه أكبر من نهر النيل ربما عشر مرات أو عشرين مرة ، يا قوة الله !! إنه أكبر من مصر كلها ، ربما أكبر منّ مصر وما جاورها من بلاد .. ومن لطف الله أن البحر لا يطغى على البر، ولو فعل لابتلع الأرض والناس وانتهت الحياة ●●



بالتأكيد سيطغى البحر يوم القيامة على البر فيهلك الحرث والنسل ، ثم ينفخ فى الصو ويحشر الناس حشرا أمام رب العرش سبحانه !

عند هذه النقطة انتابت المعلم طقطق رعشة شديدة وارتفعت درجة حرارته وتصبب العرق من جبينه .

يا لطيف بعبادك يا الله .. وبسمل المعلم طقطق وحوقل وتوسل بالأنبياء والأولياء أن يغفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .. والحمد لله لأن المعلم طقطق لم يغضب الله قط ، ولم يمارس إلا ما يرضى الله ورسوله .. بعض الناس يقولون إن الاتجار فى الصنف حرام ، وهو الأمر غير الصحيح على الإطلاق ، لأن التجارة حلال ، وسيدنا عثمان كان يعمل بالتجارة ، وعبد الرحمن بن عوف كان شهبندر تجار زمانه.. والشيخ سعد قطب بنفسه أكد للمعلم طقطق أن الصنف نفسه ليس من المحرمات ، لأنه لا يخامر العقل ولا يذهب به ، والدليل على ذلك أن الشيخ سعد قطب نفسه يتعاطاه ..

ومن هو الشيخ سعد قطب ؟ الرجل الطيب الذى درس أصول الدين واشتغل بالوعظ ويلتف حوله الألوف من أهل الطريق ، والحمد لله لأن صفحة المعلم طقطق ليس بها ما يغضب الله ورسوله .

انتزعت المعلم طقطق من تأملاته أصابع المعلم عواد وهى تغوص فى لحم بطنه .. ناداه أكثر من مرة ولكن المعلم طقطق لم ينتبه .. وعندما انتبه أشار له المعلم عواد إلى نقطة ناحية البحر .

كانت هناك أعداد هائلة من سبع البحر تقدم استعراضا رياضيا

فى الماء .. ما أحلى الحياة يا معلم طقطق ، وما أكثر نعم الله على عبيده .. استغرقه المنظر فسرح فى عظمة خلق الله .. هذا القطيع من سباع البحر يبدو أنهم من عـائلة واحدة ، لابـد أن يكون سكان البحـر مثل سكان الأرض شعوبـا وقبائل . ومـا يراه الآن هو استعـراض تقوم بـه قبيلة واحدة قبيلة مثل حاشـد وبكيل وعنزه وشمر .. القبائل هى الأصل فى كل شىء .. هو نفسه المعلم طقطق أصله من جـزيرة العرب ، وهو من قبيلة يـافع التى سكنت الجيـزة فى بدايـة عهد أهل مصر بـالإسلام .. وأهله كانوا دائما فى عز دائم .

ولكن الحياة ليس لها أمـان ، أحيانا فى الطالع وأحيـانا فى النازل .. على كل حال .. أيام البؤس ولت ياعم طقطق ، والحياة ستعود الآن على قبائل يافع بالعز الذى كان !

ويـوم وبعض يوم مضى ورست السفينـة على البر فى مالطـا .. الله يرحم أيام زمان ، اضطر المعلم طقطق أيام الحرب العالمية إلى العمل فى (الأورنس) داخل معسكـرات الجيش الإنجليـزى ، الإنجليز كـانـوا يعاملون النـاس معاملة طيبة ، ولكن أحـدهم كان أغبر أشعث ، ضيق الصدر ، وكـان يعامل الناس بغلظـة وبوقاحـة ، وكان يجيد العـربية ويشتم العمال بها ، وكـان يهوى الأذيـة فيـوقع عليهم الغـرامـات والخصومات وأحيـانا كان يعتدى عليهم ضربـا باليد ، ثم علم المعلم طقطق أن الرجل (الغلس) ليس إنجليـزيا ولكنه من مالطـا . إذن هذه هى مـالطـا بلـد الـرجـل الشر ، ولعل المعـلم طقطق عـرف الآن سر غلاسته .

فهذه أرض الحجر ، حجر ناشف حـاشف والزرع قليل والمساحة أقل والـرزق محدود . المبانى هنـا مثل مبانى شـارع محمد على أيـام زمان .. بـواكى وحوارى معلقـة ، والميادين تشبـه ميدان العتبـة أيام زمان ، لم يهزه إلا منظر البحر ومراكب الصيـادين ، وبعد ليلة واحدة أبحـرت السفينة إلى تـونس الخضرا . تـونس بلـد عربى .. هكـذا فهم

المعلم طقطق ، يعنى إيـه بلد عـربى ؟ يعنى زى مصر تماما .. النـاس تتكلم اللغة العـربية وتكتب بـالعربية ، ولـديهم مشايخ ومسـاجد .. وبعض ركاب السفينـة يؤكـدون أن فى تونس أزهـر شريف مثل أزهر القاهـرة ، يا قدرة الله جل شأنـه ..هذه أول أرض عربيـة خارج مصر يقع عليهـا عين المعلم طقطق ، وهذه مينـاء مثل الإسكندريـة ، ينطبق عليهـا المثل القائل .. الماء والخضرة والـوجـه الحسن .. وجوه ستـات تـونس حلـوة وقـوامهم ملفـوف.. واللهجـة حلـوة زى الحمصيـة والسمسمية .. والمزاج واحـد هنا وهنـاك ، الشيشة والكبـاب والشاى بـالنعناع وأغـانى أم كلثوم وعبـد الوهـاب ، والسيما هى هى .. كمال الشنـاوى وأنـور وجدى ومحمـود يس والست سعـاد حسنى وليلى علوى وفردوس محمد ونجمة إبراهيم .

ياميت حـلاوة على تونس يا ناس .. لو ضرب الحظ معـاك يا معلم طقطق وبنيت لنفسك بيت هنـا على شاطىء البحر فى تـونس ، ولبست الجلابية والعبـاية التونسية ، وجلست على الشـاطىء ودلدلت رجليك فى ماء البحر والشيشة بين أصابعك .

ليت المركب انكسرت على شاطىء تونس لكى يبقى المعلم طقطق فى تـونس إلى ماشـاء الله . ولكنهم أيام ثـلاثـة فقط ، ثم أطلقت الباخـرة صفارتها وتوغلت فى البحر الواسع الغويط .

قضـى المعلم طقطق وقتـا طـويـلا فى البحـر قبل أن تلقى المركب مراسيهـا على شاطىء طنجـة . هذه أرض عربيـة أيضا ، بـلاد العرب حلوة وجميلـة والعرب طيبين وحلوين ، وطنجـة جوها حلـو وشاطىء البحر عريض وطويل ، ولكن المنظـر مش ولابد .. ستات زلط ملط على الشـاطىء .. استغفـر الله وأعـوذ بـالله من كل شيطـان رجيم .. أغلق المعلم طقطق عينيه وأشـاح بوجهه نـاحية البحـر .. ولكن المعلم عواد أقنع المعلم طقطق بأن النظـر ليس محرما ، لأن صنف الستـات الزلط الملط من غير العـــرب ، والتمتع بهم ليس حـرامـــا لأن الله خلقهم

للاستمتاع .. صحيح .. رحمة ربنا واسعـة وفضله على العباد ليس له حـدود ، وصنعـة ربنـا فى الستـات دليل على عظمـة الخالق ، الخصر المخنوق والصدر الناهد والعنق الذى مثل سن الفيل ..

الله يـرحمها ويحسن إليهـا أم العيال كـانت مثل سيد قشطـة ، إذا مشت .. يا أرض انهدى ما عليكى قدى ، وإذا جلست كأنها قبة سيدى الشيخ عطـوة ، وإذا نامت كأنها جثـة مضـى على طلـوع الروح منهـا عشرة أيام .

ولكنهـا والحق يقـال كانت ســت طيبة ، عـاشت ع الحلـوة والمرة وتحملت نصيبها من الشقاء والعذاب ..

يا لها من أيام ربنا ما يعيدها بحق جاه المصطفى ..

وانتبه المعلم طقطق على السفينة ترسو على جبل طارق . الله يرحم العرب الشجعان الـذين فتحوا هذه الأرض بسواعدهم وأقـاموا عليها أجمل وأعظم حضارة عرفها البشر فى العصر الوسيط .

جبل طـارق جبل فعـلا ولكنـه جبل ولا كل الجبـال ، اشمعن جبل المقطم عندنا لا يبخ إلا ترابا وغبارا ودقشوم من كل الأحجام ..

الجبل هنا مزروع وعلى قمته أشجار وبيوت وقرود أيضا .

والناس هنـا خواجـات ، ولكنهم بعكس الخواجات الابتسـامة على الشفاه ، والـدلع فى الحركات ، يقولـون إنهم عرب أيضا ولكن الـزمان مال بهم فمالـوا مع الزمان ، والله يـرحمه الحاج مصطفى بتاع عـزبة النخل ، قال يوما ما ، مل مع الـريح لو مالت وإلا فاحتمل ! وقليل من النـاس هـم من الصنف الـذى يحتمل ، أمـا الأغلبيـة العظمـى فـلا يحتملون .

المعلم طقطق نفســه احتمل مـا لا يستطيعـه البشر عنـدمـا مـال الزمان.. ولكن فى المقـابل .. الله يكافىء الذين يحتملون ، وفـرجه قريب ونعمتـه خير تعويض لهؤلاء الـذين يحتملـون .. يـا ترى البنت بنتـه عاملـة إيه دلـوقت مع الناس الغيـلان الذين بيتعاملـه معاهـا .. ربنا

يعينها على اللى هيـه فيه ! لكن البنـت جدعـة وبنت أبوهـا وربنا كبير وستار وعالم بعبيده الطيبين .

ويا ميت حلاوة على اللى حب ولا طالشـى ، أهى دى الجنة يا ناس ولا حدش واخـد باله ، مارسيليـا .. الفرنساوى .. إيه النضـافة دى ؟ وإيـه الحلاوة دى ؟ وإيه الـدنيـا دى ؟ العبـد اللى ربنا راضى عليـه يعيش فى البلد دى .. لو الود ودك يا طقطق تعيش هنا على آخر العمر .. ونتأهل بـواحدة مـن بنات البلـد دى ، وتشـوفلك مصلية على حـرف البحـر ، ولو جـوزة نضيفة وتعميرة حلـوة ، تبقى ضمنتهـا يا حـاج طقطق دنيا واخرة .. يا سلام ع الراجل المعلم عواد يسوى تقله دهب ، راجل فهيم صحيح ويعرف ربـه ويعرف حقه فى دنياته .. تـاجر ألفى بصحيح ومرزق والناشفة تصبح فى إيـده خضرة ، وربنا يديله على قد نيتـه . الفلوس عنـده كـالـرز ، والرزق جـارى زى حنفيـة الحريق ، ودولابه شغال على ودنـه ، وعنده تفانين حلوة قـوى .. جاءه فى المساء واقترح عليه البقاء فترة من الوقت فى البلد الحلوة دى .

— طيب والمركب يا عواد ؟

— المركب مش مشكلة ، اللى خلقها خلق غيرها .

— والتذكرة اللى معانا يا عواد ؟

— التذاكر كتير ، واللى هنخسره شىء بسيط ، إيه رأيك ؟

— إن كان على الفلوس فى ستين داهية ، بس أنا قلقان ع البنت .

— يا راجل وحد الله ، بنتك راجل ، والناس اللى معاها طيبين .

— وهنقعد كتير يا عواد ؟

— نقعد لنا كام أسبوع .

— مفيش مانع ، وعلى رأى المثل .. زى ما ترسى دقلها !

مضت الأيام بالمعلم طقطق على شاطىء البحـر فى مرسيليا، حكمة الله أن فى مـرسيليـا حـوارى ولا حوارى مصر .. الفـرق الـوحيـد أن حـوارى مرسيليـا نضيفة ، لا زبـالـة ولا مجارى .. والدكـاكين تبيع

الجبنـــــة ولكن ولا أي جبنة في أي أرض .. جبنة رومي ولا جبنة زمان وجبنة حلوم ولا جبنـة ستي هدية يرحمهـا الله . والعيش الفينو يؤكل حـاف ، إنـه عيش ولحمـة ، عيش بغموس .. حكمـة الله .. وكلـه كـوم والنسوان هنا كوم آخـر .. والأكادة كل شيء عادي وكل شيء مباح .. المرة من دول تقـولها أنت حلـوة تشكـرك تحسس عليهـا تشكـرك .. تطلبها للونسـة تشكرك ، تطلبها للفراش والهراش جـوزها يشكرك .. والمعلم عواد نـاصح وابن حنت ، لا يعود في المساء إلا ومعـه عدة نتف من اللي قلبك يحبهـا .. الشيء المدهـش أن فـرنسـا تعـرف الصنف ، ولكنه صنف من النـوع الفشنك ، وهو مغـربي درجة تـانية ، الصنف اللبنـاني لا يعلى عليـه . مصر محظـوظـة لأن الصنف اللبنـاني هـو المفضل عنـد المصريين .. ولكن يـا تـرى البنت بتعمل إيـه دلـوقت في السوق ، ما ينهش قلب المعلم طقطق أن تليفون البيت لا يرد .. لابد أن العطب أصاب التليفون .. ولكن المعلم عواد مطمئن ويطمئنه بين الحين والآخر .

مرت أســابيع طويلـة قبل أن يعود المعلم طقطق للبحـر ، لم يعرف لماذا اختـار المعلم عـواد السفـر على هذه المركب بـالـذات ، مـركب في طريقهـا للإسكندرية ولكن عن طـريق برشلونة وجبل طـارق وطنجة وتونس ثم الإسكنـدرية في نهاية الأمر .. وشـهر بطـوله والمعلم طقطق يجوب البحـر الأبيض ، رحلـة مملـة لأنها مكـررة .. والمعلم طقطق لا تحتمل صحته كل هذا الإرهاق .

وفي تونس لم يغـادر السفينة ، شعر كأنـه خارج لتوه من معـركة مع عدة فتوات .. حرقان في الصدر وصداع في الرأس وزغللة في العينين . وشعر وهو على سريره في السفينـة والموج يتلاعب بها في طريقها إلى الإسكندرية أنه لن يكتب لـه الوصول إلى هناك .. وتمنى المعلم طقطق أن ينفخ الله في صورته حتى يصل إلى بيته ويرى ابنته ويطمئن عليها ،

ثم بعد ذلك فليكن ما يكون.. ومـر وقت طويل قبل أن تستقر السفينة على رصيف ميناء الإسكندرية .

أخيرا .. ها هـو البيت بعد طـول غياب ، ورن المعلم طقطـق جرس الباب ، ولكن حتـى الجرس أصيب بالخرس ، واستعان بنجـار ليفتح الباب ، ليفاجأ المعلم طقطق بأن الشقة خـالية من السكان وعارية من الأثـاث ، أين البنت ؟ الله يخرب بيتك يـا معلم عـواد ، الـولـد وكيلـه الغنـدور العـايق أكل عقل البنت ، وبعـد أسبوعين تـزوجهـا واشتغل معها فى الصنف ، جاءها الرجل الغامض بالشنطة الممتلئة بالصنف ، وبعد أيام جاءها بالشنطة التانية ولكنه لم يجد الشنطة الأولى الممتلئة بالفلـوس ، واعتذرت البنت بأن الشنطة تـأخرت لأسباب خـارجة عن إرادتها ، ووعدت بأن تكون الشنطتان جـاهزتين بالفلوس فى الأسبوع القادم .. ولكن الرجل فوجـيء عنـد عودته ، أن الجميع هجروا البيت .. لا نـاس ولا شنط فلوس ، والـرجل الغامض صـاحب الشنطة لا أحـد يجرؤ على النصب عليه .. ومـن يفعل ذلك تخترق صدره رصـاصة فى الظـلام ، أو تطيح به سيـارة مسرعـة فى شارع قليل الحركـة .. ولكن البنت والولد الذى تزوجها فص ملح وداب .. وتصور الرجل الغامض أن المعلم طقطق شريك فى العمليـة القـذرة ، لأنه هـو الآخـر فص ملح وداب .

ولكن الرجل الغامض من طبعه عدم التسرع فى اتخاذ القرار ، بقدر ما هو شـديد الحزم قدر ما هو طـويل النفس والصبر .. انتظر الرجل الغامض حتى عاد المعلم طقطق من رحلة الأحـلام .. وعندما اجتمع به فى منـزلـه جلـوسا على البـلاط ، كـان المعلم طقطق بحـالـة لا يمكن وصفها، كان شديد السعادة لأنه على حد قوله :

— أنا شفت يـا أستاذ اللى ماحـدش شافه قبل كـده . اللى صعبوا علىّ أهلنا اللى مـاتوا قبل كـده . أهم دول عاشـوا وماتـوا ما شـافوش

حاجـة أبدا ! وفى الـوقت نفسـه كان المعلم طقطق شـديد الغم وشـديد القلق .

— لكن نقول إيـه يا أستاذ ، النـاس ما بتسبش النـاس فى حالها . وأدى أنت زى مـا أنت شـايف ، أنـا جيت لقيت الحال اتشقلب ، البنت زى ما يكـون عفاريت خطفوهـا ، وأنا خايف ليكـون الواد اللى ضحك عليهـا قتلها ورمـاهـا فى أى خـرابة . وبعـدين الفـار بيلعب فى عبى ، وخـايف ليكون المعلم عـوّاد لـه ضلع فى الملعوب ده . حـاكم دا راجل راسه توزن بلد . لكن أقول إيه وأعيـد إيه ؟ بقول الغايب حجته معاه .

لم يعلق الرجل الغامض على الأمر إلا بكلمات قليلة :

— شوف يـا معلم ... الشغلة بتـاعتنا دى شغلـة وسخة لكن اللى بيشتغلوها لازم يكونوا زى الجنيه الدهب ، لأن الغلطة بتكلف كتير !

— وحضرتك خدت علىّ أى ملحوظة ؟

— لسة .. مش هيبان دلوقت .

— إن شاء الله مش هتسمع عنى إلا كل خير .

— إن شاء الله .. المهم دلوقت ، ناوى تشتغل ولا خلاص ؟

— أنـا تحت أمرك ، ومن إيـدك دى لإ يـدك دى ، وربنا يعلم أنـا مكسوف منك أد إيه !

— شغلتنـا دى مـا تحبش الكـلام ، دى شغلـة هـات وخـد ، وع العموم الشنطة أهه ، وهافوت عليك بعد أسبوع .

عندما رأيت المعلم طقطق فى سجـن القناطر ، كان قد مـر عليه أحد عشر عاما فى السجن ، كـان آخر عهده بالحياة خارج الأسـوار هو هذا اللقاء الـذى تم بينه وبين الرجل الغامض ، كـان اللقاء فى العصر ، وفى المساء هجموا على البيت وعثروا على الشنطة ، و ...

— من يومها يا أستاذ ما شفتش الأسفلت .

— طيب ومين الراجل دا يا معلم ؟

— لو كنت حضرتك تعرف يبقى أنا أعرف .

— وما حاولتش تسأل ؟

— واسأل ليـه ؟ والـرزق بعتوا لى ربنـام السماء ، والـرزق يحب الخفية .

— وبنتك .. مفيش أخبار عنها ؟

— ربك أعلم بيها .

— وعايش إزاى فى السجن ؟

— ربك بيدبرها .

— عاوز تقولى ما حدش سأل عنك أبدا .

— المعلم عواد بعت لى جـوابات وزارنى مـرة وحط لى فلوس فى الأمانات ، بس دا أول سنة ، وبعدين أدى وش الضيف .

— وما سمعتش أى حاجة عن بنتك ؟

— إذا كان حضرتك سمعت يبقى سمعت أنا راخر .

— غريبة !!

— ولا غريبة ولا حاجة .. كل شيء فى الدنيا دى بحساب ، الطلوع فوق بحسـاب ، النزول لـه حساب ، مش مولـد وصاحبـه غايب زى الناس مـا هى فاهمة ، وبعـدين أنا اللى استـاهل ، مـاكنت قاعـد كافى خيرى شرى فى الحتة اللى كنت مرزوع فيها وبنتى معـايا وقافل بابى علىّ وحامد شاكر ربنا ، لكن تقول إيه للطمع .

— وعندك كام سنة دلوقت يا معلم ؟

— ٦٢ سنة من غير مؤاخذة .

— وهتطلع امتى م السجن ؟

— الأصول بتاعة ربنا اطلع دلوقت . عشان أنا قضيت ثلاث أربع المدة ، وسلوكى فى السجن آخر تمام .

— وليه ما طلعتش ؟

— قدمت مظلمة للباشا مدير السجون ، لكن ما حدش سأل فيه.

— ليه ؟

— أبخات بقي يا بيه .. وبعدين بقى .. ربنا ينتقم م الظالم .

ولـزم المعلم طقطق الصمت ، وراح ينكش فى أسنـانه بعـود نجيل أخضر انتزعه من أرضية حديقة السجن .. وقطعت عليه صمته قائلا:

— ومين اللى ظلمك يا معلم ؟

وكأنما لسعته بجمرة نار ، فانتفض صارخا .

—و النبى يا أستاذ ما تقلب علىّ المواجع .. ربنا يسترك .

— فيه حاجة إنت مخبيها عنى يا معلم .. إيه هيه ؟

— ربنا يخليك تسكت .. أنامش ناقص .

— وخايف من إيه يا معلم طقطق ؟ هيجرالك إيه أكتر م اللى جرالك

— ممكن يجرالى حاجات كتير قوى ، أنت باين على نياتك .

دار هــذا الحوار بينى وبين المعلـم طقطق ذات نهار فى حـــوش السجن، وكـان الجو شتـاء وفى عـام ١٩٧٣ . وعنـدمـا جـاء الصيف واقترب مـوعـد الافـراج عـن العبـد لله . جمعتنى مستشفى السجن بالمعلم طقطق . وذات مسـاء انتابتـه نوبة كحـة شديـدة كادت تقطع شعيرات صدره . واعتقـد أنه كـان يبصق دما عقـب كل نوبـة سعال شديدة ، واستـدعيت له طبيب السجن الذى أعطاه مهـدئا ، ويبدو أنه أعطاه جرعة منومة أيضا ، وسألنى المعلم طقطق فجأة :

— أنت خارج امتى ؟

— بعد أسبوع إن شاء الله .

مال برأسه ناحيتى وقال .

— أنا كنت عاوز أقولك حاجة .

— أتفضل .

— عارف الراجل بتاع الشنطة إياها ؟

ماله

— أنا شفته كتير .

— منين ؟

— فى الجرايد وفى التليفزيون .

— صحيح .

— زى . ما بقولك

— مين هوه .

— كفاية كده يا أستاذ أنا مش ناقص .

ثم انتــابته نــوبة سعــال جديــدة ، وعنــدما تخلص منهــا كان قــد استسلم للنــوم ولم ألتق بــه بعــد ذلك ، وعرفــت بعد عــدة أشهــر من الإفراج عنى أن المعلــم طقطق مات فى السجن بعــد أن أنشب السرطان أظافــره فى رئتيه ، ومات الــرجل ودفن ومعه سره ، والــرجل ا لغامض أبو شنطة ربما لحق به ، ربما لا يزال على قيــد الحياة . ربك وحده هو الذى يعرف السر .. وما أغرب الحياة !

الفهـــرس

صفحة

رقم الايداع ٧٧٣٤ / ٩٧
I. S. B. N. الترقيم الدولى
977 - 08 - 0645 - 5

هذا الكتاب

الكاتب الكبير محمود السعدنى خلقه الله ليكون كاتبا ساخرا .. فهو ساخر بالفطرة أو بالطبيعة.. وقادر على أن يجعلك تضحك طوال الوقت الذى تقرأ له دون أى جهد أو تعب لأنه يكتب دون أن يتكلف السخرية او يصطنعها بل يجعلك تحس بخفة دمه دائما.

وقد برع محمود السعدنى فى أن يكون ساخرا دائما مهما كان الموضوع الذى يكتبه والذى يحتاج إلى قدر من الجد وسواء كان الموضوع سياسيا أو اجتماعيا أو حتى عن الكرة والرياضة فهو مثل الكاتب الإيرلندى برنارد شو لايستطيع أن يتخلى فى كل كتاباته عن سخريته اللاذعة!!

وفى هذا الكتاب يواصل «الولد الشقى» سخريته اللاذعة وذكرياته المريرة.. والولد الشقى هو الاسم الذى اختاره محمود السعدنى لنفسه ليكتب ذكرياته وسيرته الذاتية أو عن رحلاته أو عن المقالب التى دبرها ووقع ضحيتها الناس الطيبون!!

«وتمام يا فندم» كتاب جديد من كتب الولد الشقى محمود السعدنى.

نبيل أباظة

الثمن ٥ جنيهات

طبع بمطابع أخبار اليوم